Kuwait Capital of Islamic Culture 2016

فَتَاةٌ في حَالَةِ حَرْب

رواية

تأليف: سارة نوفيتش

ترجمة: مالك أحمد عسّاف

مراجعة: د. محمد عبدالغني غنوم

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

ديسمبر 2016

416

@ketab_n
Follow Me
27.12.2016

فَتَاةٌ في حَالَةِ حَرب
رواية

العنوان الأصلي

(Girl at War)

A Novel
By: Sara Novič

Published in the United States by Random House.
All rights Reserved.
First Edition 2015

الطبعة الأولى - الكويت
المجلـس الوطـني للثقـافـة والفـنـون والآداب، 2016م
إبداعات عالمية - العدد 416

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1990 - 1923)

Twitter: @ketab_n

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

فَتَاةٌ في حَالَةِ حَرْب

رواية

تـــألـــيـــف: سارة نوفيتش

تـــرجـــمـــة: مالك أحمد عسّاف

مـــراجـــعـــة: د. محمد عبدالغني غنوم

Twitter: @ketab_n

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:
أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:
أ. د. سليمان علي الشطي
د. ليلى عثمان فضل
د. زبيدة علي أشكناني
د. علي عجيل العنزي
د. حنان عبدالمحسن مظفر

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي
سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-533-4

Twitter: @ketab_n

المقدمة

كنا قد اعتدنا في الماضي على مشاهدة صور الأطفال المجندين فـي أفريقيا، مثلما أصبحنا نألف مشـاهدتهم في الحروب العبثية التـي تشـهدها بعـض مناطقنا العربيـة. ليس هذا فحسـب، بل إن آذاننا تمرّسـت أيضا على سماع القصص المروّعة عن التجارب التي مرَّ فيها أولئك الأطفال. لكنّ الروائيّة الشـابة سـارة نوفيتش، وهي أميركيـة من أصل كرواتي، تذكّرنـا في أول رواية لها، «فتاة في حالة حرب»، بأن مثل هذه الأشـياء تحـدث في أوروبا أيضا، حيث تأخذنا إلـى قلب ذلك العالم المظلم بطريقة تبتعد عن الإسـفاف وتتوخى الصدقية دون أن يؤدي ذلك إلى ترويض الجانب المؤلم.

تجـري أحـداث هذه الروايـة في العاصمـة الكرواتيـة زغرب في تسـعينيات القرن الماضي، التي كانت في ذلك الوقت مسرحا لحرب أهليـة طاحنة أودت بحياة عشـرات الآلاف. وعندما اندلعت الحرب في يوغوسلافيا في العام 1991، كانت آنا تبلغ من العمر 10 سنوات وتعيش حياة هانئة في زغرب مع والديها وشقيقتها الصغرى، حيث كانت تهوى لعب كرة القدم وركوب الدراجة الهوائية برفقة صديقها لوقـا. وحتى بعد بـدء الحرب، لم تكن آنا تشـعر بالقلق أو الخوف، بل كانت الحرب في البداية شـيئا مثيرا في نظرها، حيث اكتشـفت مـن خلال الملاجئ والغارات الجوية عوالـم جديدة للهو والمرح، كما وفّـرتْ لها مبررا للتغيب عن المدرسـة وقضـاء وقت أطول في اللعب مـع صديقها لوقا. ومع تدهور الوضع السياسـي وبـدء موارد المياه والغـذاء بالنفـاد، بـدأ الجيـران بالنظـر بعضهم إلى بعض بشـيء مـن الريبـة، حيث أصبح كل تفصيـل من تفاصيل الحيـاة اليومية

Twitter: @ketab_n

مشحونا بالانتماء العرقي أو الطائفي؛ فنوع السيجارة التي يدخنها المرء وطول شعر ذقنه باتا ينبئان باتجاهاته وولاءاته كما لو أنه كان يرفع راية.

شكّلت تلك الحرب نبوءة مخيفة عن حروب القرن الحادي والعشرين، حيث يشاهد المدنيون مدنهم وهي تحترق من خلال نوافذ منازلهم وعبر شاشات تلفزتهم.

بالنسبة لآنا، كان طريق العودة إلى البيت من ساراييفو - بعدما قامت أسرتها بإيصال شقيقتها الصغرى المريضة لكي يتم إجلاؤها على متن طائرة ميدي ميشن إلى الولايات المتحدة- بمثابة البوتقة التي تتحول من خلالها آنا من طفلة عادية إلى طفلة مجنّدة. في هذه اللحظة تتقاطع الأمراض المستوطنة في الجسمين البشري والسياسي، حيث تقطع القوات الصربية الطريق وتعتقل آنا ووالديها وتأخذهم إلى الغابة. في واحد من أقوى المشاهد في الأعمال الروائية، تتم تصفية والدَي آنا إلى جانب عدد كبير من المعتقلين، في حين تنجو آنا من الموت بأعجوبة، علما أن الذي بقي على قيد الحياة هو آنا المجنّدة وليس تلك الطفلة البريئة التي لم تكن تعرف سوى المرح واللهو في شوارع زغرب. وكما تقول في وقت لاحق مخاطبة مندوبي الأمم المتحدة في نيويورك: «لم يكن القتال خيارا.. كان مجرد شيء قمنا به لكي نعيش.. القوة النارية هي الشيء الوحيد الذي يحدد من يأكل».

تتنقل الكاتبة مرات عديدة بين سنة 1991، التي اندلعت فيها الشرارة الأولى للحرب، وسنة 2001، التي تنضم فيها آنا إلى شقيقتها في ولاية بنسلفانيا وتدرس في جامعة نيويورك. بيد أن حالة الحرب التي عاشتها آنا في كرواتيا لا تنتهي مع انتقالها

Twitter: @ketab_n

للعيش في الولايات المتحدة، بل هي تخوض حربا من نوع آخر تتمثل في تثقيف الإنسان الأميركي العادي عن حرب الاستقلال الكرواتية، بعد أن اكتشفت أن معظم الناس هناك لم يسمعوا بتلك الحرب على الإطلاق. ليس هذا فحسب، بل هي تعيش صراعا داخليا حول أي التفاصيل يمكن البوح بها وأيها يجب أن يبقى سرا دفينا. ولكنها سرعان ما تتعلم بأن الصمت هو الوسيلة الأنسب لكي تتمكن من الاندماج في المجتمع الأميركي، حيث تقول: «صرتُ أنتقي القصص التي أخبرهم بها كأنْ أحكي لهم عن الإذلال الذي كنا نُنزله بذلك الرجل الصربي عندما كنا نرنّ جرس شقته ثم نهرب قبل أن يفتح الباب، أو عن الألعاب التي اخترعناها ونحن في الملاجئ، وذلك إلى أن رسمتُ في أذهانهم صورة خفيفة الظل عن زغرب جعلتها أشبه بدار تسلية في أحد الكرنفالات». وتدريجيا، تتوقف عن التحدث بالماضي، حيث تقول: «عشتُ كمواطنة أميركية، وقلتُ لنفسي إن الأمر كذلك أهون بالنسبة لهم». ولكن الذكريات البشعة للحرب ظلت تؤرق آنا من الداخل، حيث إن خوفها على الناس الذين خلّفتهم وراءها في كرواتيا قبل عقد من الزمان كان يشل حياتها.

حتى سارة نوفيتش نفسها ولدت في أميركا لأبوين كرواتيين، وتنقلت بين الولايات المتحدة وكرواتيا. وفي المقابلات التي أُجريت معها تشير إلى أن ما دفعها إلى كتابة رواية «فتاة في حالة حرب» هو أن التجربة الكرواتية تعرضت للكثير من التجاهل والتبسيط، حيث تقول: «من السهل التركيز على عنصر الإثارة في تصوير الحرب وتجاهل وجود صراع عرقي عبر القول: حسنا، هؤلاء الناس يكره بعضُهم بعضا وحسب».

Twitter: @ketab_n

وهـي بلا شـك في هذه الروايـة تنجح في تصحيـح هذا المفهوم الخاطئ؛ فإلى جانب عملها في تعليم الكتابة الإبداعية في جامعة كولومبيا، هي أيضا أسـتاذة متمكنة من صنعتها الروائية، حيث إن اسـتخدامها الضميـر المتكلم في قالب سـردي مُحجَّم يضفي بُعدا ساخرا على نحو لاذع. ويتجلى هذا التحجيم السـردي في تجريد اللغـة النثريـة مـن الصفات والظروف بشـكل يجعل من الأسـلوب الواقعـي المُحكَـم للرواية الوسـيلة المُثلى لبلورة شـخصية آنا، التي كانـت قـد فقدت كل شـيء ولم تعد تثـق في أي شـيء. وكان قرارها العـودة إلى كرواتيا بمثابة رحلة لاكتشـاف ما حدث للعالم وللناس الذين أحبتهم، وأيضا رحلة بحث عن ذاتها المحطَّمة.

تنقل لنا سارة نوفيتش بمنتهى البراعة الحالة الذهنية المفكَّكة لطفلة مكلومة وجدتْ نفسها في خضمٍّ حرب بالكاد تفهمها.

أثنـاء وجـود آنا على مـتن الطائرة المُغـادرة من كرواتيـا، أُصيب جنـود قـوات حفـظ السـلام بالصدمة عندما شـاهدوا كيـف تقوم بتعبئة مخزن البندقية بالطلقات وتفريغها منه بسرعة احترافية. وببراعـة لا تقـل عنهـا تنجح نوفيتش فـي إبراز الجانـب العاطفي بـين آنـا ووالدهـا، الـذي أنقذها من المـوت المحتوم فـي آخر لحظة قبـل مقتلـه. ولكـن الإنجـاز الحقيقي الـذي حقَّقتْـه نوفيتش في هـذه الروايـة يتمثل في تصويرها المتنقل لعلاقـة الصداقة الآخذة فـي النضـج بين آنا ولوقا، بدءا من اللحظـة التي كانا فيها طفلين يعيشـان حياة هانئـة خاليـة من الهمـوم وصولا إلـى الوقت الذي

Twitter: @ketab_n

أصبحا فيه شابين بالغين وقد تركت الحرب ندوبا عميقة داخل كلّ منهما.

صحيحٌ أنه مع انتقال المشهد إلى أميركا نجد أن اللغة النثرية وحبكة الرواية تتعثران أحيانا لتدخلا حيز المألوف، لكن هنا أيضا تكشف الكاتبة نوفيتش عن مدى طموحها، حيث تتسع روايتها لتصبح أكثر رحابة، وأكثر رحمة مما قد يوحي به ذلك الجزء الذي يتناول الحرب. فالشقيقة الصغرى لآنا - أي راهيلا- تمتاز بثقافتها الأميركية الصرفة والمُشبعة بروح التعددية، التي تؤمن بالحرية المطلقة للفرد، الأمر الذي يتعارض بشكل حاد مع التحديد العرقي الصارم الذي اتسمت به حياة آنا أثناء الطفولة. ونظرا لصغر سن راهيلا أثناء الحرب، فإنها لا تتذكر كرواتيا أو والديها اللذين ضحّيا بنفسيهما من أجلها، ما يجعل آنا الخزّان الوحيد لذاكرة الأسرة. والتحدي بالنسبة إلى آنا لا يتمثل في كيفية التحدث عما لا يمكن وصفه بقدر ما يتمثل في كيفية التحدث عبر فجوة ثقافية بالغة الاتساع لدرجة أن ما لا يمكن وصفه لا يمكن سماعه.

مالك أحمد عسّاف

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إهداء المؤلف

إلى عائلتي
وإلى أ

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«أتيتُ إلى يوغوسلافيا لأرى كيف انعكس التاريخ على أجساد الناس وأرواحهم. وبتُّ أعلم الآن أنَّ عالما مليئا بالرجال والنساء الأقوياء والطعام الوفير والنبيذ المُسكر قد يصبح، بسبب زوال إمبراطورية ما، أشبه بمسرحية ظل، وأن رجلا متميزا في كل شيء قد يجلس قرب النار ليدفئ يديه على أمل عبثي بأن يتخلص من قشعريرة لا تستوطن جسده».

ريبيكا ويست

من رواية (الحمل الأسود والصقر الرمادي)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«أرى صورا تتقاطع أمام مخيلتي، حيث تختلط صور الطرقات التي تمر عبر الحقول والمروج النهرية والمراعي الجبلية مع صور الدمار، والغريب في الأمر أن الأخيرة هي التي تجعلني أشعر كما لو أنني أعود إلى وطني، وليس تلك الصور الجميلة غير الواقعية على الإطلاق والتي ارتبطت بطفولتي المبكرة».

و. ج. سيبالد

من كتاب (عن التاريخ الطبيعي للدمار)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

I

سقطتا كلتاهما

(1)

بدأت الحرب في زغرب بسبب علبة سجائر. سبق ذلك حدوث توترات، كما تناهت إلى مسامعي إشاعات عن وقوع اضطرابات في بعض المدن الأخرى، إنما لم تكن هناك انفجارات، ولا أية تطورات مفاجئة. كانت زغرب، التي تحاصرها الجبال من كل حدب وصوب، حارَّة جدا خلال الصيف، ولذلك كان الناس يهجرون المدينة خلال الأشهر الأكثر حرارة ويتوجهون نحو المناطق الساحلية. وكل ما أستطيع تذكُّره هو أن أسرتي كانت تمضي عطلتها برفقة أبوَيَّ الروحيين في قرية لصيد السمك تقع في الجنوب. لكن الصرب قطعوا الطريق المؤدي إلى البحر، على الأقل هذا ما كانت تتناقله ألسنة الجميع، وهو ما جعلنا نمضي إجازة الصيف لأول مرة في المناطق الداخلية.

تركت الرطوبة أثرها على كل شيء في المدينة، فمقابض الأبواب ودرابزين القطار جميعها كانت لزجة من كثرة تعرُّق الناس، في حين كان الجو يعبق برائحة غداء يوم أمس. أخذنا حماما باردا وصرنا نتجول داخل الشقة بملابسنا الداخلية. خُيِّل إليَّ وأنا أقف تحت المياه الباردة أن بشرتي تصدر صوت أزيز،

Twitter: @ketab_n

وأن البخار يتصاعد منها. وأثناء الليل كنا نستلقي فوق أغطية أسرَّتنا، بانتظار أن يأتينا النوم المتقطِّع وكوابيس الحمَّى.

بلغتُ العاشرة من عمري في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس، وقد اتسم الاحتفال بهذه المناسبة بكعكة تم تحضيرها على عجل، كما طغى عليه الشعور بالحر والضيق. خلال عطلة نهاية الأسبوع تلك وجَّه والداي الدعوة إلى أعز صديقين لهما - وهما أبواي الروحيان بيتر ومارينا - لتناول العشاء معنا. كان المنزل الذي نقيم فيه عادة خلال إجازة الصيف يعود إلى جد بيتر. وكانت الإجازة التي تظفر بها والدتي من عملها في التدريس تمكِّننا من قضاء عطلة مدتها ثلاثة أشهر، حيث كان والدي يركب القطار ليلحق بنا فيما بعد، وكنا نحن الخمسة نعيش هناك سوية على الجروف الممتدة على طول البحر الأدرياتيكي. أما الآن وقد احتُجزنا في المناطق الداخلية، فقد تحولت ولائم العشاء التي كانت تُقام خلال نهاية الأسبوع إلى مهزلة يشوبها الترقب للإيحاء بأن الحياة طبيعية.

قبل وصول بيتر ومارينا تجادلتُ مع والدتي حول مسألة ارتداء الملابس.

- «لستِ بهيمة يا آنا. سوف تلبسين الشورت على العشاء، وإلا فإنكِ ستُحرمين من الأكل».

- «في تيسكا لم أكن أرتدي سوى القطعة السفلية من لباس السباحة»، قلتُ لها.

لكن ما إن رمقتني والدتي بنظرتها المستهجنة حتى ارتديتُ ملابسي.

في تلك الليلة كان الكبار منهمكين في نقاشهم الاعتيادي

Twitter: @ketab_n

حـول التاريخ الدقيـق لتعارفهم بعضهم ببعـض. وكانوا يحبون القـول إنهـم أصبحوا أصدقاء مـذ كانوا أصغر مني سـنا، وذلك بغـض النظـر عن عمري في تلـك اللحظة، وبعد قرابة السـاعة واحتسـاء زجاجة مـن نبيذ الفيرافينو، كانوا عـادة يتوقفون عن النقـاش عند تلك النقطة. لم يكن لدى بيتر وماريـنا أطفالٌ كي ألعب معهم، لذلك كنتُ أجلس على الطاولة وأنا أحمل شقيقتي الصغرى وأسـتمع إليهم وهم يتنافسـون حول مـن منهم الأقدر علـى اسـتحضار الماضـي. كان عُمـرُ راهيـلا ثمانية أشـهر فقط، ولـم تكن قد رأت الشـاطئ قطّ، فحدثتُها عـن البحر وعن قاربنا الصغيـر، وراحـتْ تبتسـم عندما كشَّـرتُ في وجههـا مقلِّدة وجه السمكة.

بعـد أن تناولنـا الطعام، اسـتدعاني بيتـر وناولني حفنة من الدنانير.

- «لنرَ ما إذا كنتِ تسـتطيعين تحطيم رقمك القياسـي»، قال لي.

كانـت عبارة عن منافسـة بينـي وبينه، حيث كنـتُ أجري إلى المتجر لأشـتري له علبة سـجائر، بينما يقوم هو بضبط الساعة لـي. وفي حال تمكنتُ من تحطيم رقمي السـابق، فإنه سيسـمح لـي بالاحتفاظ ببضعة دنانير من الفكـة. وضعتُ المال في جيب الشـورت الذي كنـتُ أرتديه ثم انطلقتُ هابطة الـدَّرج المكوَّن من تسع لفّات.

كنـتُ متأكـدة من أنني سأسـجِّل رقما قياسـيا جديـدا. فقد حفظـتُ الطريـق جيـدا، وكنـتُ أعلـم متى يجـب علـيَّ معانقة المنعطفـات حول المباني وتجنـب المطبّات في الشـوارع الجانبية.

Twitter: @ketab_n

تجـاوزتُ المنزل الذي توجد عنده لافتة كبيرة تحمل عبارة «احذر الكلـب» (علمـا أننـي لا أتذكر أنه كان هناك كلـبٌ في ذلك المنزل علـى الإطلاق)، وقفزتُ فـوق صفّ من الدرجات الإسـمنتية، ثم انحرفتُ بعيدا عن حاويات القمامة. وتحت ممر خرسـاني كانت دائمـا تنبعـث منـه رائحة تشـبه رائحة البول، حبسـتُ أنفاسـي ومضيـتُ مسـرعة نحـو المدينـة المفتوحـة. طفـتُ حـول أطراف الحفـرة الكبيرة الموجودة أمام الحانة التي يرتادها هواة الشـرب نهارا، حيث خففتُ من سـرعتي قليـلا عندما وصلتُ إلى الرجل العجـوز الـذي يجلس إلـى طاولة قابلة للطـي يبيع من خلالها الشوكولا المسروقة. هبَّت نسمة هواء نادرة أدت إلى تحريك المظلة الحمـراء التـي تظلّل كشـك بيع الصحف، ما جعلها تبدو أشـبه براية خط النهاية التي تعلن وصولي.

وضعـتُ مرفقـيَّ علـى الطاولة كـي ألفتَ انتبـاه الموظف. كان بيتروفيتـش يعرفني ويعرف ماذا أريد، لكن ابتسـامته اليوم كان فيها شيءٌ من التكلّف.

- «هل تريدين سجائر صربية أم سجائر كرواتية؟».

كانـت الطريقة التي شـدَّدَ بهـا على هاتين الجنسـيتين غير طبيعيـة. لقد سـمعتُ الناس في الأخبـار يتحدثون عن الصرب والكروات بهذه الطريقة بسـبب القتال الدائر في القرى، لكن لم يسبق لأحد أن قال لي أي شيء بشكل مباشر عن هذا الأمر. ولم أكن أريد شراء نوع غير مناسب من السجائر.

- «هـل لـك أن تعطينـي النـوع الـذي آخـذه بشـكل دائم من فضلك؟».

- «سجائر صربية أم كرواتية؟».

Twitter: @ketab_n

- «أنت تعلم. ذات الغلاف الذهبي؟».

حاولتُ الالتفاف بنظري من حول جسده والإشارة إلى الرف الموجود خلفه. بيد أنه ضحك وأشار بيده إلى الزبون التالي، الذي نظر إليَّ باستهزاء.

- «مهلا!».

حاولتُ لفت انتباه الموظف مرة أخرى، فتجاهلني وقام بإرجاع الفكة للزبون الذي كان يقف خلفي. لقد خسرتُ المنافسة، لكنني مع ذلك ركضتُ عائدة إلى المنزل بأسرع ما يمكن.

- «بيتروفيتش طلب مني أن أختار بين السجائر الصربية والكرواتية»، قلتُ لبيتر. «لم أكن أعرف الجواب، فرفض إعطائي أية سجائر. أنا آسفة»، أضفتُ.

تبادل والداي النظرات فيما بينهما، وأومأ بيتر لي كي أجلس على حضنه. كان طويلا - حتى إنه كان أطول من أبي - ووجهه متورِّد من شدة الحرارة وتناول النبيذ. صعدتُ وجلستُ على فخذه العريض.

- «لا بأس»، قال مربِّتا على بطنه. «على أية حال أنا متخمٌ إلى درجة أنه ليس هناك مكانٌ للسجائر»، أضاف.

أخرجتُ المال من جيب الشورت خاصتي وأعطيته إياه. دسَّ في يدي بضع قطع نقدية من فئة الدينار.

- «لكنني لم أفز».

- «نعم»، قال لي.

- «لكنك لا تُلامين على ما حدث اليوم»، أضاف.

في تلك الليلة دخل والدي إلى غرفة الجلوس، التي كنتُ نائمة فيها، وجلس على مقعد خاص بآلة بيانو عمودي قديم.

Twitter: @ketab_n

كنا قد ورثنا هذا البيانو من إحدى عمات بيتر - حيث لم يكن لديه أو لدى مارينا مكان يتسع له - لكننا لم نستطع دفع تكاليف دوزنته، وكانت نغمة الجواب الأولى خفيضة جدا لدرجة أن جميع المفاتيح كانت تطلق نفس النغمة المنهكة. سمعتُ والدي يضغط على دواسات القدم بشكل يتناغم مع الرجفة العصبية لساقه، لكنه لم يلمس المفاتيح. بعد ذلك بقليل نهض وجاء ليجلس على مسند ذراع الأريكة، حيث كنتُ مستلقية. وكنا نخطط لشراء فراش خلال فترة قريبة.

- «آنا؟ هل أنتِ مستيقظة؟».

حاولتُ أن أفتح عينيَّ، حيث شعرتُ بهما وهما ترفّان تحت جفنيَّ.

- «مستيقظة»، قلتُ بصعوبة.

- «سجائر فيلتر 160. إنها كرواتية. فقط لكي تعرفي ذلك في المرة القادمة».

- «سجائر فيلتر 160»، قلتُ، مخزِّنة ذلك الاسم في ذاكرتي.

قبّلني والدي على جبيني وتمنى لي ليلة سعيدة، لكنني بعد ذلك بلحظات شعرتُ بوجوده في الممر، حيث كان جسده يحجب ضوء المطبخ.

- «لو أنني كنتُ هناك»، قال بصوت هامس.

لكنني لم أكن متأكدة ما إذا كان يتحدث إلي، لذلك بقيتُ ساكتة، حيث لم يقل أي شيء بعد ذلك.

في الصباح، كان ميلوشيفيتش على شاشة التلفزيون يلقي خطابا، وعندما رأيتُه بدأتُ أضحك. كانت لديه أذنان كبيرتان، ووجهٌ أحمر منتفخ، وألغاد مترهلة مثل كلب حراسة مكتئب.

Twitter: @ketab_n

كمـا كان يتمتـع بنبرة صـوت أنفية على عكس والـدي الذي كان يتميـز بصوته المبحوح واللطيف. وكان الغضب بادِيا عليه، حيث أخذ يدق قبضته بالتناغم مع إيقاع خطابه. كان يقول شيئا عن تطهيـر الأرض، ويكـرِّر ذلك مرة تلو الأخرى. لـم تكن لدي أدنى فكـرة عمـا كان يتحـدث، لكنه كلمـا تحدث وضـرب بقبضته كان يـزداد احمـرارا. لذلك كنـتُ أضحك، أما والدتـي فراحت تحدق وتمعن النظر لترى ما المضحك في الأمر.

- «أطفئي التلفاز».

احمرَّتْ وجنتاي وشـعرتُ بسـخونتهما، معتقدة أنها غضبتْ منـي لأني ضحكـتُ على ما كان يُفترض أن يكـون خطابا مهمّا. لكنَّ وجهَها انفرجت أساريره بسرعة.

- «اذهبـي والعبي» قالت. «بالتأكيد سـيكون لوقا قد سـبقك إلى الساحة العامة»، أضافت.

أمضيـتُ الصيـف برفقـة أفضل صديق لـي؛ لوقـا، حيث كنا نجـوب سـاحة المدينـة علـى الدراجـات الهوائيـة، ونلتقـي رفاق الدراسـة لنلعـب معهم كـرة القدم دون أية ترتيبات مسـبقة. كان الكَلَف والاسـمرار الناجمان عن التعرض للشمس يغطيان بشرة كلّ منا، كما كانت بقع العشـب بادية بشـكل دائم على ملابسـنا، وبمـا أنـه لم يتبـقَّ أمامنا الآن سـوى بضعة أسـابيع حتـى تبدأ المدرسـة، فقد كنا نلتقي في وقت أبكر ونبقى خارج منازلنا حتى وقـت متأخـر جدا، حيث كنا مصممين علـى ألا ندع هذه الإجازة تذهب سـدى. التقيتُ به على الطريق الذي كنا نركب الدراجات الهوائيـة عليه بشـكل اعتيادي، وقدنا دراجتينـا جنبا إلى جنب، حيـث كان لوقا بـين الفينة والأخرى يوجه عجلته الأمامية نحو

Twitter: @ketab_n

عجلة دراجتي بشكل يجعلنا نوشك على التصادم. كانت تلك المزحة المفضلة لديه حيث إنه لا يتوقف عن الضحك طوال الطريق، لكنني كنتُ لا أزال أفكر بما فعله بيتروفيتش. فقد تعلّمنا في المدرسة أنه يجب عدم التركيز على الاختلافات الإثنية بين البشر، علما أنه كان من السهل جدا تحديد أصل المرء ونسبه من خلال اسم عائلته. وقد تم تدريبنا بدلا من ذلك على اجترار الشعارات القومية السلافية: «الأخوة والوحدة Bratstvo i Jedinstvo»، لكن الآن وعلى الرغم من كل ذلك بدا أن الاختلافات بيننا قد تكون ذات أهمية. كانت عائلة لوقا في الأصل من البوسنة، وهي ولاية مختلطة تمثل فئة ثالثة مُحيِّرة. كان الصرب يكتبون بالأبجدية السيريلية والكروات يستخدمون اللاتينية، أما في البوسنة فكانوا يستخدمون الاثنتين معا، في حين كانت الاختلافات في اللغة المحكية أكثر تعقيدا، حتى إنني تساءلتُ عما إذا كان هناك نوعٌ خاص من السجائر البوسنية، وما إذا كان والد لوقا يدخنها.

عندما وصلنا إلى ساحة المدينة كانت مزدحمة حيث ساورني شكٌ بأن هناك خطبا ما. في ضوء هذا الانقسام الجديد بين الصرب والكروات، كل شيء - بما في ذلك تمثال البان جيلاتشيتش وسيفه المسلول - بدا وكأنه ينبئ بالتوترات التي لم أتوقع حدوثها. خلال الحرب العالمية الثانية، كان سيف البان موجها نحو المجريين في لفتة دفاعية، لكن بعد ذلك قام الشيوعيون بإزالة التمثال ضمن حملتهم لتحييد الرموز القومية. وقد شاهدتُ أنا ولوقا كيف قام رجالٌ مزوَّدون بالحبال والآليات الثقيلة، في أعقاب الانتخابات الأخيرة، بإعادة تمثال

Twitter: @ketab_n

جيلاتشيتش إلى مكانه، لكنه في ذلك الوقت كان يتجه نحو الجنوب، أي نحو بلغراد.

لطالما كانت ساحة المدينة ملتقى شعبيا، لكن اليوم بدا الناس محمومين وهم يحتشدون حول قاعدة التمثال، حيث كانوا يتدافعون وسط تشابك الشاحنات والجرارات المركونة في قلب الساحة المرصوفة بالحصى، والتي لم يكن يُسمح للسيارات بأن تسير عليها في الأيام العادية. كانت الأمتعة وصناديق الشحن إلى جانب تشكيلة متنوعة من الأواني المنزلية قد أُنزلت عن ظهر الناقلات المسطحة ونُشرت في أرجاء الساحة.

فكَّرتُ بمخيم الغجر الذي مررنا به ذات مرة عندما كنتُ في السيارة برفقة أهلي، وكنا حينذاك ذاهبين لزيارة قبرَي جدي وجدتي في مدينة تشاكوفيتس، حيث كانت هناك قوافل من العربات والمقطورات التي تحوي بداخلها أدوات غامضة وأطفالا مسروقين.

- «سوف يسكبون الأسيد في عينيكِ»، قالت لي أمي محذِّرة عندما بدأتُ أتململ بين مقاعد الكنيسة، في حين كان والدي يضيء الشموع ويصلي لراحة والديه. «أولئك المتسولون كفيفو البصر يكسبون ثلاثة أضعاف ما يكسبه المتسولون المُبصرون»، أضافت.

حينذاك أمسكتُ بيدها والتزمتُ الهدوء لبقية اليوم.

ترجَّلنا، لوقا وأنا، عن دراجتينا ورحنا نقترب بحذر من جموع الناس وأمتعتهم. بيد أنه لم تكن هناك نيران يتحلقون حولها ولا عروض سيرك جانبية، كما لم تكن هناك أية موسيقى؛ فهؤلاء ليسوا المهاجرين الذين رأيناهم في أطراف القرى الشمالية.

Twitter: @ketab_n

كانت المستوطنة مصنوعة بالكامل تقريبا من الأسلاك، حيث الحبال والخيوط المجدولة وأربطة الأحذية والشرائط القماشية متفاوتة السماكة مشدودة إلى السيارات والجرارات وأكوام الأمتعة ضمن شبكة بالغة التعقيد. وكانت تلك الأسلاك تسند الشراشف والبطانيات وقطع الملابس الكبيرة التي كانت تُستخدم كخيام مؤقتة. حدَّقنا أنا ولوقا بالتناوب بعضنا إلى بعض ثم إلى الغرباء، حيث لم نكن نعرف الكلمات التي تمكِّننا من وصف ما نراه، علما أننا كنا نعي بأنه ليس أمرا جيدا.

وُضعت الشموع على طول محيط المخيم، حيث كانت تذوب إلى جانب علب كتب أحدهم عليها «تبرعات من أجل اللاجئين». معظم الذين مروا من هناك كانوا يضيفون شيئا إلى أحد العلب، وبعضهم كانوا يفرغون كل ما في جيوبهم.

- «من هؤلاء؟» همستُ.

- «لا أعرف»، قال لوقا. «هل يجب علينا إعطاؤهم شيئا؟» أضاف.

أخرجتُ الدنانير التي أعطاني إياها بيتر من جيبي وقدَّمتُها إلى لوقا، حيث كنتُ خائفة من الاقتراب كثيرا منهم. وكانت لدى لوقا بضع قطع نقدية أيضا، فأمسكتُ بدراجته ريثما يقوم هو بوضع النقود في العلبة. عندما انحنى شعرتُ بالذعر، حيث خشيتُ من أن تبتلعه مدينة الأسلاك تلك مثلما تفعل أشجار الكرمة عندما تدب فيها الحياة في أفلام الرعب. وعندما استدار ليعود دفعتُ مِقود دراجته باتجاهه ما جعله يتعثر باتجاه الخلف. وعندما ركبنا عائدين شعرتُ بانقباض شديد في معدتي تعلمتُ بعد مضي عدة سنوات أن أطلق عليه اسم خطيئة الناجي.

Twitter: @ketab_n

غالبـا ما كنتُ ألتقي برفاق الدراسـة كي نلعـب مباريات بكرة القدم في الجانب الشـرقي من الحديقة، الذي كان العشـب فيه أقـل كثافـة. كنـتُ الفتـاة الوحيـدة التي تلعـب كرة القـدم، لكن الفتيـات الأخريات كـنَّ ينزلـنَ أحيانا إلى الحقل لممارسـة لعبة القفز بالحبل ولتجاذب أطراف الحديث.

- «لمـاذا ترتديـن ملابس كملابس الأولاد؟» سـألتني ذات مرة إحـدى الفتيـات التـي كانـت تسـرِّح شـعرها على شـكل ضفيرة متدلية من مؤخرة رأسها.

- «من الأسـهل لي أن العب كرة القدم وأنا أرتدي البنطلون»، قلتُ لها.

بيـد أن السـبب الحقيقـي هو أن هذه الملابـس كانت من عند جيراننا، حيث لم نكن نستطيع شراء أي ملابس غيرها.

بدأنـا بجمـع القصـص، وكانـت هـذه القصص تبـدأ بتعقب خيوط صلات القرابة المركَّبة - مثل ابن عم والد أفضل أصدقائي أو مديـر عمـي في العمل - وكل من كان ينجح في تسـديد الكرة بـين علامتـي المرمى اللتـين كان يتم وضعهما بشـكل ارتجالي (حيث كانتا قابلتين للتغيير بشـكل دائم) كان يقوم بسـرد قصته أولا. تمخَّـض عـن ذلـك تنافسٌ غيـر معلن في تصوير مشـاهد الـدم، حيـث كان يتـم الاحتفاء بـكل من يكـون أكثـر إبداعا في وصـف الأدمغـة المتطايـرة لمعارفـه البعيديـن. وقد تحـدث أبناء عم سـتيبان عن مشـاهدتهم التـي انفجر فيها لغـمٌ بقدم أحد الأطفـال، حيث ظلـت بقايا الجلد عالقة بـين أخاديد الرصيف لمدة أسـبوع بعد تلك الحادثة. أما توميسـلاف فقد سمع عن ولد أصيب في عينه بطلقة أطلقها أحد القناصين في زاغورا، فتدفَّق

Twitter: @ketab_n

بؤبؤ عينه على شكل سائل شبيه ببيضة نيئة وذلك أمام أنظار الجميع.

وفي المنزل كانت والدتي تذرع المطبخ جيئة وذهابا وهي تتحدث على الهاتف مع صديقاتها في البلدات الأخرى، ثم تطل من النافذة لتنقل الأخبار إلى البناية المجاورة. كنتُ أقف على مقربة منها عندما كانت تتحدث عن تصاعد التوتر على ضفاف نهر الدانوب مع النساء الموجودات في الجانب الآخر لحبل الغسيل. ولكوننا أشبه بشبكة تجسس تغطي كافة أرجاء المدينة، كنا نتولى نشر أي معلومة تتناهى إلى أسماعنا، كما كنا ننقل أخبار الضحايا، الذين بدأت شيئا فشيئا تجمعنا بهم روابط لم تكن موجودة في السابق.

في اليوم الأول لنا في المدرسة، تفقّدتْ معلمتُنا الحاضرين ووجدتْ أن أحد الطلاب غائب.

- «هل لدى أي منكم أخبار عن زلاتكو؟» قالت.

- «ربما عاد إلى صربيا، موطنه الأصلي»، قال ماتي، وهو ولدٌ كنتُ دائما أرى أنه ثقيل الدم. قهقه بعض الطلاب فقامت المعلمة بإسكاتهم. رفع يده ستيبان، الذي كان يجلس بجانبي.

- «لقد انتقل»، قال ستيبان.

- «انتقل؟» قالت معلمتنا التي راحت تقلب بعض الأوراق في لوح مشبكي كان بحوزتها. ثم أضافت «هل أنت متأكد؟».

- «كان يسكن في نفس البناية التي أسكن فيها. منذ ليلتين رأيتُ أسرته تحمل حقائب كبيرة وتضعها في شاحنة. قال إنه يتعين عليهم المغادرة قبل بدء الغارات الجوية. كما طلب مني أن أبلّغ سلامه للجميع».

Twitter: @ketab_n

اندلعت في الصف ثرثرة عالية الوتيرة لدى سماع الطلاب هذا الخبر:

- «ما معنى غارة جوية؟».
- «من سيكون حارس مرمانا الآن؟».
- «الحمد لله تخلصنا منه».
- «اسكت يا ماتي»، قلتُ.
- «كفى!» قالت معلمتنا. ثم هدأنا.

شرحتْ لنا المعلمة أن الغارة الجوية هي عندما تقوم الطائرات بالتحليق فوق المدن وتحاول تدمير المباني باستخدام القنابل. ثم رسمت خرائط بالطباشير تشير إلى الملاجئ، وقامت بتعداد الأشياء الضرورية التي يجب على عائلاتنا أن تحضرها معها عندما ننزل تحت الأرض، وهي: مذياع وإبريق ماء ومصباح وبطاريات من أجل المصباح. لم أفهم لمن هي تلك الطائرات وأي المباني كانت تريد أن تقصف، ولا كيف أميِّز الطائرة العادية من الطائرة الشريرة، مع أنني كنتُ سعيدة لهذا الإيقاف المؤقت للدروس النظامية. لكن بعد ذلك بدأتْ تمسح السبورة مُحدثة سحابة غاضبة من الغبار الناجم عن المسَّاحة. أطلقتْ تنهيدة كما لو أن صبرها نفد من جراء الغارات الجوية، نافضة ذرات الطباشير عن طيات تنورتها. انتقلنا إلى عمليات القسمة الطويلة، ولم نُمنح وقتا لطرح الأسئلة.

حدث ذلك عندما كنتُ أقوم بتأدية بعض المهام التي طلبتْها مني والدتي. كان يُفترض بي إحضار الحليب، الذي كان يأتي في أكياس بلاستيكية زلقة تتذبذب في يد المرء عند أي محاولة منه كي يصب منها أو يمسك بها، وكنتُ قد ركَّبتُ صندوقا من

Twitter: @ketab_n

الكرتون على مقود دراجتي الهوائية لأتمكن من نقل تلك السلعة الحساسة. لكن المؤن أخذت بالتناقص في جميع المحلات القريبة من شقتنا - كل شيء في هذا الوقت كان آخذا في النفاد داخل المحلات - وقد طلبتُ من لوقا أن ينضم إليَّ في عملية البحث، فقمنا بتوسيع نطاق البحث وتوغّلنا عميقا داخل المدينة.

أول طائرة شاهدناها كانت تطير على نحو منخفض جدا لدرجة أن لوقا وأنا أقسمنا فيما بعد أمام كل من استمع إلينا إننا رأينا وجه الطيار. أحنيتُ رأسي ما جعل مقود الدراجة يلتوي تحتي، الأمر الذي أدى إلى سقوطي عن دراجتي. أما لوقا، الذي كان ينظر باتجاه السماء، فقد نسي أن يتوقف عن تحريك قدميه على الدواسات، فاصطدم بحطام دراجتي وسقط على وجهه، ما أدى إلى إصابته بجرح في ذقنه بسبب الحصى.

نهضنا على قدمينا بسرعة، وحاولنا تعديل وضع دراجتينا بعد أن طغى الأدرينالين على الشعور بالألم.

بعد ذلك انطلق صوت الإنذار، تلك الفرقعة الخشنة التي تصدر عن الآلات السمعية البالية. كان عويل صافرة الإنذار أشبه بصوت امرأة تبكي عبر مكبِّر للصوت. ركضنا في وسط الشارع وعبر الأزقة الضيقة.

- «أي الطرق هو الأقصر؟» صاح لوقا وسط الضوضاء.

استحضرتُ في ذهني شكل الخريطة المرسومة على اللوح الأسود في المدرسة، حيث النجوم والأسهم التي تشير إلى طرقات مختلفة.

- «ثمة طريقٌ تحت الروضة».

تحت زحليقة الأطفال الموجودة في ملعبنا الأول، كان هناك

Twitter: @ketab_n

سلَّمٌ إسمنتي يفضي إلى باب فولاذي ضخم وسميك كالمعجم. كان هناك رجلان يمسكان به لإبقائه مفتوحا بينما الناس يتدفقون من كافة الاتجاهات ليدخلوا إلى ذلك المكان المظلم. لم نكن أنا ولوقا نرغب بأن نترك دراجتينا وحدهما وسط ذلك الموت الوشيك، ولذلك تركناهما في أقرب مكان ممكن من المدخل.

كانت رائحة العفن والأجساد التي تفتقر إلى الاستحمام تملأ الملجأ. عندما تكيَّفت عيناي مع المكان رحتُ أتفحص أرجاء الغرفة، كانت هناك أَسِرَّة مكونة من طابقين ومقعد خشبي قرب الباب، وفي الزاوية البعيدة كان هناك مولِّد كهرباء يعمل بالدواسات على شكل دراجة. كنتُ أنا ورفاقي في المدرسة نتشاجر فيما بيننا لركوب تلك الدراجة خلال الغارات التي حدثت فيما بعد، حيث كنا نتدافع كي يحصل كلٌّ منا على دور لتحويل تلك الدواسات إلى كهرباء تشغِّل أضواء الملجأ. بالكاد لاحظنا وجوده في بداية الأمر. فقد انشغلنا في تأمل تلك المجموعة الغريبة من الناس الذين حُرموا من ممارسة أنشطتهم اليومية ثم حُشروا معا في مخبأ يعود إلى أيام الحرب الباردة. تأملتُ المجموعة التي كانت أقرب إليّ؛ رجال يرتدون بدلات عمل أو معاطف أو سترات فنيي ميكانيك كتلك التي يرتديها أبي، ونساء يرتدين الجوارب الطويلة والتنورات الضيقة. في حين كانت هناك أخريات يرتدين المآزر ويحملن أطفالهن على خواصرهن. تساءلتُ أين يمكن أن تكون أمي وأختي راهيلا؛ إذ لم يكن هناك ملجأً عام قريب من بنايتنا. بعد ذلك سمعتُ لوقا يناديني فأدركتُ أن تدفق القادمين الجدد هو الذي جعلنا نفترق عن بعضنا. تلمَّستُ طريقي نحوه، حيث تعرَّفتُ عليه من خلال ملامح شعره العصي على التسريح.

Twitter: @ketab_n

- «أنتَ تنزف»، قلتُ له.

مسح لوقا ذقنه بذراعه وحاول معاينة أثر الدم على كمِّه.

- «كنت أعتقد أن هذا سيحدث. سمعتُ أبي يتحدث عن الأمر الليلة الفائتة». كان والد لوقا يعمل في أكاديمية الشرطة، وكان مسؤولا عن تدريب المتطوعين الجدد. شعرتُ بالانزعاج لأن لوقا لم يذكر احتمال وقوع غارة في وقت أبكر. بدا مرتاحا هناك في الظلمة، حيث ذراعه المتدلية على درجة سلم أحد الأسرَّة المكونة من طابقين.

- «لماذا لم تخبرني؟».

- «لم أكن أريد أن أخيفك».

- «لستُ خائفة»، قلتُ له.

بالفعل لم أكن خائفة، إذ لم يكن الخوف قد تسلل إلي بعد.

انطلقت صفارات الإنذار مرة أخرى، مشيرة إلى زوال الخطر. فتح الرجال الباب على مصراعيه فصعدنا السلالم، والشك يعترينا إزاء ما هو قادم. فوق الأرض كان ضوء النهار لا يزال موجودا، حيث حجبت الشمسُ الرؤية لديّ مثلما فعلت الظلمة في الأسفل. كنتُ أرى بقعا، وعندما تبددتْ، بدا الملعب لي واضحا تماما مثلما كنتُ أتذكره. لم يحدث شيء.

عندما وصلتُ إلى المنزل دخلتُ من الباب الأمامي مسرعة، وأخبرتُ والدتي بأنه لم يعد يوجد حليب في كل مدينة زغرب. دفعتْ كرسيها إلى الوراء بعيدا عن طاولة المطبخ، حيث كانت تقوم بتصحيح كومة من واجبات الطلاب، ثم أمسكتْ راهيلا وضمَّتْها إلى صدرها وهي واقفة. بكتْ راهيلا.

- «هل أنتِ بخير؟» سألتني والدتي، ثم عانقتني بقوة.

Twitter: @ketab_n

- «أنـا بخيـر. ذهبنـا إلـى روضـة الأطفـال. أيـن ذهبـتِ أنتِ وراهيلا؟».

- «نزلنا إلى السرداب، بجانب العنبر».

كان سـرداب بنايتنا يتسـم بأمرين: القـذارة والعنابر. يوجد لكل عائلة عنبر خاص بها، وهو عبارة عن وحدة تخزين خشـبية مغلقة بقفل. وكان يطيب لي أن أحشـر وجهي في الفراغ الكائن بـين البـاب ومفصّلاتـه لأرى ما يوجد في الداخـل، حيث أحظى بإطلالـة خاصـة على الممتلـكات الأكثـر تواضعا لكل أسـرة. كنا نخـزّن البطاطا فـي عنبرنا، حيث كانت تحتفظ برونقها وسـط الظلمـة. لـم يبدُ السـرداب آمنا جـدا، حيث لم يكـن هناك باب معدني ضخم أو أسـرَّة من طابقين أو مولد كهرباء. لكن والدتي بدتْ حزينة عندما سألتها عنه فيما بعد.

- «إنه مكان جيد كسائر الأماكن الأخرى»، قالت لي.

في تلك الليلة وصل والدي إلى المنزل وبحوزته صندوق أحذية مليء بأشرطة تغليف بنّية اللون أخذها من مكتب «الترام» الذي كان يعمل به في بعض الأيام. قام بوضع الشـريط اللاصق على جميـع النوافـذ على شـكل أحرف X كبيـرة، أما أنا فكنتُ أسـير خلفه حيث أقوم بالضغط على الشـريط اللاصق لأزيل فقاعات الهواء من تحته. وضعنا طبقة مضاعفة من اللاصق على الأبواب الفرنسـية المؤدية إلى الشـرفة الصغيرة المقابلة لغرفة الجلوس. كانـت تلك الشـرفة الجزء المفضل لدي من شـقتنا. فعندما كان ينتابني أي شـعور بخيبة الأمل بعد عودتي من منزل لوقا، الذي لم تكن والدته مضطرة للعمل فضلا عن أنه كان ينام في سـرير حقيقي، فإنني كنت أخرج إلى تلك الشرفة وأستلقي على ظهري،

Twitter: @ketab_n

تاركـة قدمـيّ تتأرجحان فـوق الحافة، حيـث كان يُخيَّـل إليَّ أنه ما من أحد يعيش في منزل توجد فيه شرفةٌ عالية مثل شرفتي.

أما الآن فقد راودني شـعور بالقلق نظرا لقيام والدي بإغلاق الأبواب بذلك الشريط.

- «سيظل بمقدورنا الخروج إلى الشرفة، أليس كذلك؟».

- «بالطبع يا آنا. نحن نقوم فقط بتدعيم الزجاج».

كان الهدف من الشريط هو جعل النوافذ متماسكة في حال وقع انفجار.

- «وفـي كل الأحـوال»، قال أبي بنبرة تنم عن التعب، مضيفا: «ليست هناك فوائد كبيرة لمثل أشرطة التغليف هذه».

Twitter: @ketab_n

(2)

- «مـرة أخـرى أي لـون يمثلنا؟». وقفتُ خلـف والـدي واضعة ذقنـي علـى كتفـه بينما كان يقـرأ الصحيفـة، حيث أشـرتُ إلى خريطـة لكرواتيـا تنتشـر عليهـا نقـاطٌ حمـراء وزرقـاء ترمـز للجيشـين المتحاربين. سـبق له أن شرح لي هذا الأمر في السابق لكنني لم أستطع التمييز بينهما.

- «الأزرق»، قـال أبـي، ثـم أضاف «الحرس الوطنـي الكرواتي. الشرطة».

- «وماذا عن الأحمر؟».

- «الجيش الشعبي اليوغوسلافي الذي يُعرف بـ JNA».

لم أفهم لماذا كان الجيش الشعبي اليوغوسلافي يريد مهاجمة كرواتيـا التي كانت تعج باليوغوسـلافيين، ولكنني عندما سـألتُ والـدي تنهَّـد وأغلق الصحيفة. في غضـون ذلك لمحتُ الصفحة الأولى، التي كانت تحملُ صورة لرجال يلوِّحون بمناشير كهربائية وأعـلام مزيَّنـة بالجماجم. لقد قاموا بقطع شـجرة ووضعها في وسـط أحد الشـوارع، ما أدى إلـى منع المرور فـي كلا الاتجاهين. وكان العنوان الرئيسـي «ثورة جذوع الأشجار!» موجودا في أسفل الصفحة بالخطّ الأسود العريض.

Twitter: @ketab_n

- «من هؤلاء؟» سألتُ والدي.

كان أؤلئك الرجال ملتحين ويرتدون ملابس غير موحَّدة. في كل الاستعراضات العسكرية لم يسبق لي أن رأيتُ جنود الجيش الشعبي اليوغوسلافي يحملون أعلام القراصنة.

- «إنهم من التشيتنيك»، قال والدي وهو يطوي الصحيفة ليضعها على الرَّف فوق جهاز التلفزيون، بعيدا عن متناولي.

- «ماذا يفعلون بالأشجار؟ ولماذا يربّون اللحى إذا كانوا في الجيش؟».

كنتُ أعلم أن اللحى مهمة، لأنني شاهدتُ كل عمليات حلق اللحى التي حدثت. في كل أرجاء المدينة كان الرجال الذين يوجد لديهم لحى خفيفة عمرها أكثر من يومين يُنظر إليهم بعين الريبة من قبل نظرائهم الحليقين. منذ أسبوع قام والد لوقا بحلق لحيته التي دأب على تربيتها منذ ما قبل ولادتنا أنا ولوقا. ولكونه كان عاجزا عن التخلي عنها نهائيا، فقد أبقى شاربيه، لكن الأثر الذي نتج عن ذلك كان مُضحكا بشكل عام. فقد كانت تلك الشعيرات الكثيفة فوق شفته العليا تمثل طيفا من الوجه الذي عرفناه في السابق، كما أضفت عليه هيئة اليائس على الدوام.

- «إنهم أورثوذوكس. ففي كنيستهم يربي الرجال اللحى عندما يكونون في حالة حداد».

- «ما الذي يحزنهم؟».

- «إنهم ينتظرون ملك الصرب كي يعود إلى عرشه».

- «لكن لا يوجد لدينا ملك».

- «كفى يا آنا».

Twitter: @ketab_n

كنتُ أود معرفة المزيد؛ ما علاقة اللحية بالشعور بالحزن؟ ولماذا كان كلٌ من الجيش الشعبي اليوغوسلافي والتشيتنيك يقفان إلى جانب الصرب بينما نحن لم يكن معنا سوى قوات الشرطة؟ لكن والدتي كانت قد وضعت أمامي سكينا وصحنا من البطاطا غير المقشَّرة قبل أن أتمكن من فتح هذا الموضوع.

وسط تلك الفوضى كان لوقا يحلِّل، كان دائما معتادا على أن يطرح عليَّ أسئلة لا أستطيع الإجابة عليها، وهي عبارة عن أسئلة افتراضية كانت تشكِّل موضوع حديث دائم بيننا خلال الجولات التي كنا نقوم بها على الدراجة الهوائية. كنا نتحدث في الغالب عن الفضاء الخارجي، وكيف كان ممكنا أن تكون النجوم قد ماتت في الوقت الذي كنا نراها فيه متلألئة، وما الذي كان يجعل الطائرات والطيور تبقى محلِّقة في الجو بينما نحن نبقى على الأرض، وما إذا كان يتعين علينا، إذا كنا على سطح القمر، أن نشرب كل شيء باستخدام القشة. أما الآن فقد تحوَّلت اهتماماته الاستقصائية نحو الحرب بشكل حصري؛ ما الذي كان يعنيه ميلوشيفيتش عندما قال إن هناك حاجة لتطهير البلاد، وكيف كان يُفترض بالحرب أن تكون مفيدة في الوقت الذي تُحدث فيه التفجيرات مثل هذه الفوضى العارمة؟ ولماذا كان الماء ينفد على الدوام مع أن الأنابيب موجودة تحت الأرض، وإذا كانت عمليات القصف تؤدي إلى تكسر الأنابيب، فهل نكون ونحن في الملاجئ أكثر أمنا مما إذا كنا موجودين في منازلنا؟

كانت دائما تعجبني استفسارات لوقا، كما كان يعجبني أنه كان يثق برأيي. ولكنه كان عادة يلتزم الصمت عندما يكون

Twitter: @ketab_n

برفقة أصدقائه الآخرين من الأولاد في المدرسة. وبالنظر إلى أن البالغين درجوا على التملص من أسئلتي، فقد كان وجود شخص أتحدث إليه عن كل ما يجول في خاطري يمثل ارتياحا بالنسبة لي. لكن القمر كان بعيدا، وبما أنه كان الآن يناقش قضايا أقرب إلينا بكثير من القمر وجدتُ أن رأسي بدأ يتصدع من فكرة أن كل الوجوه والأجزاء المألوفة في المدينة كانت عبارة عن قطع من أحجية لم أستطع تركيبها مع بعضها.

- «ماذا لو متنا في غارة جوية؟» قال ذات ظهيرة.

- «حسنا، لم يقوموا فعليا بتفجير أي مبنى بعد»، قلتُ له.

- «ولكن ماذا لو فعلوا، ومات أحدنا؟».

بطريقة أو بأخرى، كان احتمال أن يموت هو فقط يرعبني لدرجة أنني لم أسمح لمخيلتي أن تسرح لتصل إلى درجة تصور مثل هذا المشهد. شعرتُ بالتعرق والتوتر، فحللتُ زمام السترة التي كنتُ أرتديها. كانت المرات التي غضبتُ منه فيها قليلة لدرجة أنني أوشكتُ ألا أميِّز هذا الشعور.

- «لن تموت»، قلتُ له. «لذلك بإمكانك نسيان هذا الموضوع»، أضفتُ.

ركبتُ دراجتي وانطلقتُ عبر منعطف حاد تاركة إياه هناك وحده في الساحة، حيث كان اللاجئون يفرشون أمتعتهم ويستعدون للقيام بالخطوة التالية.

دخلنا مرحلة الإنذارات الكاذبة، حيث كان هناك تنبيه من الغارات الجوية وتنبيه آخر يسبق الغارات الجوية. وكلما لمحتْ وحدات الاستطلاع لدى الشرطة طائرات صربية تقترب من المدينة، يظهر في أعلى شاشة التلفزيون شريط نصي تحذيري.

Twitter: @ketab_n

لم تكن تُطلق صافرات الإنذار، كما لم يكن هناك أشخاص يهرعون باتجاه الملاجئ. كان هناك فقط أولئك الذين يشاهدون الإنذار، حيث يطلون برؤوسهم نحو الممرات ويبدؤون بإطلاق صيحة: «أطفئوا الأنوار، أطفئوا الأنوار!». كان صدى الصوت يتردد بين أعمدة السلالم مرورا بحبال الغسيل وصولا إلى الأبنية المجاورة، وذلك بعد اجتياز الشوارع، حيث تتردد في الهواء أصداء الأصوات المحذِّرة: «أطفئوا الأنوار».

سحبنا الستائر المعدنية فوق النوافذ المغطاة بالشريط اللاصق وثبَّتنا أشرطة من القماش الأسود فوق حاجبات النور. لم أشعر بالخوف وأنا أجلس على الأرض وسط الظلمة؛ كان شعوري أشبه بذلك الشعور بالترقب الذي كان ينتابني عندما أشارك في جولة مليئة بالإثارة من لعبة الغمّيضة.

- «ثمة مشكلة لديها»، قالت والدتي ذات ليلة بينما كنا نجلس القرفصاء تحت حافة النافذة.

كانت راهيلا تبكي، وقد تبيَّن أن بكاءها كان استمرارا لنوبة البكاء التي بدأتها منذ بضعة أيام.

- «قد تكون خائفة من الظلمة»، قلتُ مع أنني كنتُ أعلم أن الأمر لم يكن كذلك.

- «سوف آخذها إلى الطبيب».

- «إنها بخير»، قال أبي بطريقة أنهت ذلك النقاش.

أحد الصربيين الذي كان يقطن في بنايتنا رفض إنزال حاجبات النور. فقام بتشغيل كل الأضواء في شقته، ومن خلال أحد أفخم مضخِّمات الصوت راح يشغِّل أشرطة الموسيقى الأوركسترالية الصاخبة، التي كانت تحظى بشعبية في أوج

Twitter: @ketab_n

الحقبة الشيوعية. خلال الليل كانت العائلات، واحدة تلو الأخرى، تستجديه كي يطفئ الأضواء. لقد توسلوا إليه بأن يتحلى بالمشاعر الإنسانية ليساعدهم على حماية أبنائهم. وعندما لم يجدِ ذلك نفعا لجؤوا إلى المنطق، حيث اعتبروا أنه في حال قُصف المبنى، فمن المؤكد أنه هو أيضا سيموت في التفجير. لكنه بدا مستعدا لكي يقدم تلك التضحية.

وفي أيام نهاية الأسبوع، عندما كان يذهب إلى موقف السيارات ليقوم بإصلاح سيارته اليوغو المتعطلة، كنا نختبئ في الجوار ونقوم بسرقة معداته عندما يكون غافلا عنها. وفي بعض فترات الصباح وقبل الذهاب إلى المدرسة، كنا نجتمع في الممر المقابل لشقته، حيث كنا نضغط على جرس الباب مرارا وتكرارا ثم نلوذ بالفرار عندما نسمع صوت خطواته وهو قادم باتجاه الباب.

حضر أبناء اللاجئين إلى المدرسة بعد عدة أسابيع من وصولهم إلى المدينة. وفي ظل عدم وجود سجل حول مهاراتهم الأكاديمية، قام المعلمون بتوزيعهم على الصفوف بأكبر قدر ممكن من المساواة. وقد حصل صفنا على ولدين بدا أنهما من حيث العمر قريبان منا بما يكفي كي نختلط معهما. كانا من منطقة فوكوفار، ويتحدثان بلكنة غريبة.

كانت فوكوفار مدينة صغيرة تبعد عنا بضع ساعات، ولم تكن تعني لنا الكثير إبان فترة السلم، أما الآن فإنها تُذكر دائما في الأخبار. في فوكوفار كان الناس يختفون، حيث كانوا يُجبرون تحت تهديد السلاح على السير باتجاه الشرق؛ كما كانوا يتحولون إلى أشلاء متناثرة وسط التفجيرات الليلية. لقد سار

Twitter: @ketab_n

الأولاد حتى وصلوا إلى زغرب ولم يكونوا يريدون التحدث عن الأمر. وحتى بعد أن استقروا في المدينة، كانت القذارة دائما بادية على مظهرهم، كما كانت الدوائر الكائنة تحت أعينهم داكنة أكثر بقليل مقارنة بنا، وكنا نعاملهم بفضول مصحوب بالجفاء.

كانوا يعيشون في مستودع كنا نطلق عليه اسم الصحراء الكبرى لأنه كان مهجورا؛ كان يتردد إلى هذا المكان الأولاد الأكبر سنا لكي يتحدثوا ويدخنوا ويتبادلوا القُبل في الظلام. وقد انتشرت بعض الشائعات التي تقول إن الناس كانوا ينامون على الأرض وإنه لم يكن هناك سوى حمّام واحد، أو ربما لم يكن هناك أي حمّام على الإطلاق، وبالتأكيد لم يكن هناك ورق خاص بالمرحاض. حاولنا، لوقا وأنا، التسلل إلى الداخل عدة مرات، لكن كان هناك جندي عند الباب يقوم بالتدقيق على وثائق اللاجئين.

بعد ذلك مباشرة بدؤوا بالتدقيق على هوياتنا عند واجهة المبنى الذي كنتُ أقيم فيه. كانت العائلات تتناوب على إرسال أحد أفرادها البالغين لتولي حراسة باب المبنى في نوبة تستمر لخمس ساعات، وذلك في محاولة منها لمنع أحد أفراد التشيتنيك من الدخول إلى المبنى وتفجير نفسه. في أحد الليالي وقع شجار؛ كان الرجال يصرخون بصوت عال لدرجة أنه كان بالإمكان سماعهم من خلال النافذة. إذ لم يكن الحارس يريد السماح للرجل الصربي بالعودة إلى منزله.

- «أنت حيوان! أنت تحاول أن تتسبب بمقتل أطفالنا!» صرخ البوّاب.

- «أنا لا أقوم بأي شيء من هذا القبيل».

Twitter: @ketab_n

- «إذن أطفئ الأنوار في شقتك عندما يكون هناك أمر بإطفاء الأنوار!».

- «سوف أطفئ أنوارك أنت، أيها المسلم القذر!» قال الرجل الصربي.

تلا ذلك المزيد من الصراخ والصياح. فتح والدي نافذة شقتنا وأطلَّ برأسه.

- «كلاكما حيوان!» قال لهما. «إننا نحاول الخلود إلى النوم هنا!» أضاف.

أيقظتْ الضوضاء راهيلا، التي استأنفتْ بكاءها. حدقتْ والدتي باتجاه والدي ثم دخلت إلى غرفة النوم كي تحضر شقيقتي من مهدها. ارتدى والدي حذاء العمل وهبط السلّم مسرعا لضبط ذلك الشجار ومنعه من الخروج عن السيطرة. فقد كان جميع رجال الشرطة يقومون بدور الجنود في مكان بعيد، ولم يبقَ أحدٌ هنا لكي يؤدي مهامهم.

- «هل سيتعين عليك الالتحاق بالجيش يوما ما؟» سألتُ والدي.

- «أنا لستُ شرطيا»، قال لي.

- «ووالد ستيبان ليس شرطيا، مع ذلك كان عليه أن يذهب إلى الجيش».

تنهَّد والدي وفرك جبينه.

- «دعينيْ أُعِدْكِ إلى فراشك».

وبحركة بارعة من ذراعه حملني ووضعني على الأريكة.

- «الحقيقة هي أنني محرَج. فأنا لا يُسمح لي بدخول الجيش بسبب عيني».

Twitter: @ketab_n

كان والـدي يعانـي مـن الحـوَل فـي إحـدى عينيـه، حيث لم يكـن يميز القريـب من البعيد. وحتى عندما كان يقود السـيارة، فإنه كان أحيانا يغمض العين المصابة وينظر شـزرا من الأخرى، معتمـدا علـى التخمـين فـي حسـاب المسـافة التـي تفصله عن السـيارات الأخرى، وأيضا على الحظ ليكون التوفيق حليفه في ذلك. لقد تعلَّم تسـيير أموره بهذه الطريقة، وكان يحب التباهي بأنه لم يسبق له أن تعرَّض لحادث. بيد أنه كان من الصعب إقناع الشرطة، التي تحوَّلت إلى جيش، بأن الاعتماد على الحظ يُعتبر طريقـة فعّالـة، ولا سـيما عندما كان يتعلق الأمـر بالتعامل مع القنابل اليدوية.

- «هـذا على الأقل في الوقت الحالي. ربما إذا تراجعت أعداد القـوات فقد أتمكن من القيام بدور عامل لاسـلكي أو ميكانيكي. إنما ليس بدور جندي حقيقي».

- «هذا ليس مُحرجا»، قلتُ له، ثم أضفتُ «الأمر ليس بيدك».

- «لكن كان من الأفضل لو كنتُ أستطيع حماية البلاد، أليس كذلك؟».

- «أنا سعيدة لكونك لا تستطيع الذهاب».

انحنى والدي ليقبِّل جبيني.

- «حسنا كنتُ سأفتقدك على ما أعتقد»، قال.

ومضت الأضواء ثم انطفأت.

- «حسـنا، حسـنا، إنهـا ذاهبـة للنـوم!» قـال وهـو يحدق في السقف، ما جعلني أضحك.

بعـد ذلك دخـل إلى المطبخ، حيث سـمعت أصـوات الارتطام التي أحدثها وهو يبحث عن أعواد الثقاب.

Twitter: @ketab_n

- «في الدُّرج العلوي قرب حوض المغسلة»، قلتُ بصوت عال.

بعد ذلك أطفأتُ المصباح تحسبا من عودة الكهرباء في منتصف الليل، وصمَّمتُ على النوم وسط الصمت المفاجئ الذي خيَّم على شقتنا.

من الآثار الجانبية للحرب الحديثة هي أننا حظينا بميزة غريبة تتمثل في مشاهدتنا لتدمير بلدنا على شاشات التلفزة. كانت هناك قناتان فقط، وفي ظل معارك الخنادق والدبابات التي كانت تجري في المقاطعات الشرقية بينما كانت القوات البرية للجيش الشعبي اليوغوسلافي على مسافة مئة كيلومتر من زغرب، وكلتاهما كانتا مكرستين للإعلانات الخاصة بالخدمات العامة أو للتقارير الإخبارية أو لبرامج الهجاء السياسي، التي بدأت تزدهر في الوقت الذي تراجع فيه نفوذ الشرطة السرية. أما القلق الذي نشأ من كوننا بعيدين عن التلفاز والإذاعة ومتابعة آخر أخبار أصدقائنا، أو من عدم معرفة ما يجري، فكان يترك في داخلنا ألما مماثلا للألم الذي يخلفه الجوع الحقيقي داخل بطوننا. لقد تحوَّلت الأخبار إلى خلفية نتناول على وقعها كل وجباتنا لدرجة أن أجهزة التلفاز بقيت في مطابخ المنازل الكرواتية لفترة طويلة بعد انتهاء الحرب.

كانت والدتي تعلِّم اللغة الإنجليزية في مدرسة ثانوية فنية، وقد وصل كلانا إلى المنزل في وقت واحد تقريبا، مع أن كل واحدة منا كانت آتية من مدرسة مختلفة، حيث كنتُ ملطخة بالأوساخ، في حين كانت هي منهكة من التعب وتحمل راهيلا، التي كانت تمضي أيام المدرسة برفقة المرأة العجوز التي تقطن في الجهة المقابلة من الممر. كنا نشغِّل التلفاز لنستمع إلى الأخبار، في حين تقوم والدتي

Twitter: @ketab_n

بتسليم راهيلا لي كي أتولى مسؤوليتها بينما تقوم هي بإعداد وجبة أخرى من الماء والجزر وقطع الدجاج باستخدام ملعقة خشبية. كنتُ أجلس إلى طاولة المطبخ واضعة راهيلا على حضني، وأحكي لكلتيهما عما تعلَّمتُه في ذلك اليوم. كان والداي صارمين فيما يتعلق بالدراسة - والدتي كذلك لأنها ذهبت إلى الجامعة أما والدي فكان صارما لأنه لم يذهب - حيث كانت والدتي تطرح عليّ أسئلة بخصوص جدول الضرب أو تهجئة الكلمات، كما كانت تخضعني لبعض الاختبارات البسيطة التي كانت أحيانا تكافئني بعدها بإعطائي قطعة من الخبز المحلى الذي كانت تخبئه في الخزانة الصغيرة الكائنة تحت حوض المغسلة.

في ظهيرة أحد الأيام لفت انتباهي تقرير خاص ومطوَّل جدا، فتوقفتُ عن استعراض الدروس التي أخذتها في المدرسة خلال ذلك اليوم ورفعتُ صوت التلفاز. فقد أعلنت المراسلة، وهي تضغط على سماعة الأذن لديها، عن وجود أخبار عاجلة وصور لم يُقتطع منها شيء من الجبهة الجنوبية في شيبنيك. تركتْ والدتي فرن الغاز وجاءت مسرعة لتقف خلفي وتشاهد.

قفز مصوِّرٌ يفتقر إلى التوازن فوق الحافة كي يحصل على رؤية أفضل لطائرة صربية وهي تسير بشكل لولبي باتجاه البحر، حيث اشتعلت النيران في محركها وراحت تمتزج مع غروب الشمس في أواخر سبتمبر. ثم إلى اليمين اشتعلت طائرة أخرى وهي في الجو. استدار المصوِّر لكي يُظهر لنا الجندي الكرواتي الذي يقف عند المدفع المضاد للطائرات وهو يشير بشكل غير مصدِّق إلى ما صنعته يداه قائلا: «أويا دفا! أويا سو بالا! كلتاهما! سقطتا كلتاهما!».

Twitter: @ketab_n

لقد أُعيدت اللقطة التي تحتوي على كلمات «أويا سو بالا» على مدار ذلك اليوم، وبشكل متواصل طوال فترة الحرب. لقد أصبحت «أويا سو بالا» صيحة استنفار، وكلما ظهرت على شاشة التلفاز، أو كلما صدح بها شخصٌ ما في الشارع أو من خلال الجدران موجها إياها إلى ذلك الرجل الصربي الساكن في الدور العلوي، كنا نتذكر أننا أقل عددا وعدة، ومع ذلك كنا ننتصر.

في المرة الأولى التي شاهدنا فيها تلك اللقطة، ربَّتتْ والدتي على كتفي لأن هؤلاء الرجال كانوا يحمون كرواتيا والقتال لم يكن يبدو بالغ الخطورة. ابتسمتْ والدتي، بينما تصاعد البخار من الحساء الموجود على النار، وحتى راهيلا لم تكن تبكي في تلك اللحظة، ثم سمحتُ لنفسي بالاستسلام تدريجيا لتلك الفكرة المتخيلة التي كنتُ أدرك أنها مجرد فكرة متخيلة مع أن ذهني لم يكن قد انتهى من نسجها؛ إنني هناك في تلك الشقة، كنتُ أعيش بأمان مع عائلتي.

Twitter: @ketab_n

(3)

- «مـن المسـتحيل أن يقبـل طبيبٌ برؤيتنا أيام السـبت»، قال والدي.

تجاهلتْه والدتي وواصلتْ ملء محفظتها بالخبز والتفاح.

- «سـبق أن اتصلـت بهـا الدكتـورة كوفيتش. هي تعلـم بأننا قادمون».

ظلـت راهيـلا تتقيـأ لمـدة أسـبوعين، حيـث أمضـت والدتـي الأسـبوع الثانـي منهما فـي أخذ إجـازات مرضية غيـر مدفوعة الأجر من المدرسة لتتجول ضمن تلك الشبكة المعقدة من مرافق الرعايـة الصحيـة الشـيوعية، حيث كانت تنتقل مـن طبيب إلى آخر، تتلقى إحالة من هنا وإحالة من هناك، وهذا الطبيب يعمل فقـط أيـام الأربعاء، وذاك أيـام الثلاثاء والخميس، من السـاعة الواحدة وحتى الرابعة. لقد قاموا بإجراء فحوصات للدم وبأخذ صور أشعة (طبيبٌ يأخذ صور الأشعة وآخر يقرؤها). كما جرَّبوا اسـتخدام زجاجة الإرضاع لإعطـاء راهيلا حليبا صناعيا خاصا علمـا أنـه كان غالي الثمن والحصول عليه كان شبه مسـتحيل. لكنهـا كانـت تزداد نحافة، وفـي هذا الوقت كان والداي يسـهران لمراقبتهـا طـوال الليـل. فقـد كانا يتناويـان على حملها بشـكل عمودي كي لا تختنق وهي تتقيأ.

Twitter: @ketab_n

- «لكن هذه سلوفينيا يا ديانا. كيف سندفع تكاليف ذلك؟».
- «ابنتنا مريضة. لا يهمني كيف سندفع تكاليف ذلك».
حملتُ راهيلا وذهبتُ بها إلى السيارة، حيث وضعتُها في مقعدها.

كانت سلوفينيا قد شهدتْ حربا استمرت لمدة عشرة أيام. لم يكن لدى السلوفينيين حدودٌ مشتركة مع صربيا كما لم يكن لديهم منفذ كامل إلى البحر؛ فضلا عن أنهم لم يكونوا ينتمون إلى إثنية مغضوب عليها. في هذا الوقت كانت سلوفينيا قد أصبحت دولة حرة؛ دولة منفصلة. اجتزنا الحقول المقفرة في شمال كرواتيا ثم أبطأ والدي عندما لوَّح له ضابط شرطة سلوفيني موجها إياه نحو كشك مؤقت للجمارك كان قد تم تشييده على وجه السرعة كعلامة على الحدود الجديدة. أنزل والدي زجاج نافذته وراحت والدتي تبحث في حقيبتها عن جوازات سفرنا. في الماضي كنا نذهب خلال فصل الشتاء لنمضي يومنا في تشاتيش، وهي حديقة مائية مغلقة تقع بعد الحدود مباشرة. كم هو غريب أن نحتاج إلى جواز سفر حتى نتمكن من السباحة. لعق الشرطي إبهامه وراح يقلّب وثائقنا.

- «ما الهدف من زيارتكم؟».
- «إننا في زيارة لأبناء عمومتنا»، قال والدي.
تساءلتُ لمَ لم يقل الحقيقة وحسب.
- «كم ستمكثون؟».
- «فقط لهذا اليوم. بضع ساعات».
- «حسنا»، قال الضابط بابتسامة مصطنعة.
تذكَّرتُ أختام الحبر مربعة الشكل التي دُمِغتْ بها جوازاتنا

Twitter: @ketab_n

عندما سافرنا ذات مرة بالسيارة إلى النمسا، لكن هذا الرجل لم يستخدم الختم، فقط خربش بالقلم على كل جواز من جوازاتنا ثم سمح لنا بالمرور.

بعد أن كان يملؤني الشعور بالترقب لمشاهدة دولة جديدة بالكامل، لم ألبث أن شعرتُ بخيبة الأمل بعد أن رأيت أن سلوفينيا كانت لا تزال مثلما كنتُ أتذكرها. كانت أشبه بالمناطق الريفية الكرواتية الموجودة خارج مدينة زغرب، حيث كانت منبسطة وخاوية وذات سهول عشبية تتكئ على خلفية من الجبال التي لا يبدو أنها تقترب منك عندما تسير باتجاهها.

- «أنتِ تعلمين أنني لا أكترث بالمال»، قال والدي كاسرا حاجز الصمت الذي ظلَّ مهيمنا بينهما منذ أن غادرنا المنزل.

- «أعلم ذلك».

- «أنا فقط أشعر بالقلق».

- «أعلم ذلك».

أمسك والدي بيد والدتي وقبَّل معصمها من جهة الداخل.

- «أعلم ذلك»، قالت.

مع اقترابنا من العاصمة، بدأت تبرز المظاهر السكانية المتمثلة في كثافة المنازل المنتشرة حول المدينة. لقد بدت ليوبليانا من حيث الجوهر وكأنها نسخة أصغر حجما وأقصر قامة من زغرب، باستثناء النهر الذي كان يجري وسط المدينة بدلا من الأطراف. وكان الفرق بين اللغتين الكرواتية والسلوفينية ضئيلا بشكل يثير السخط، فاللوحات المعلقة على واجهات المحلات وفي الشوارع كانت مليئة بكلمات بدت مألوفة لكنها لم تكن صحيحة تماما، ما جعل فهمها أمرا بعيد المنال.

Twitter: @ketab_n

- «هذه ليست عيادة طبيب»، قال والدي عندما طلبتُ منه والدتي الانعطاف للدخول في شارع ضيق لا يحمل اسما. كان يبالغ في التعبير عن مشاعره كعادته عندما يشعر بالإحباط.

- «ها هي»، قالت والدتي مشيرة إلى شقة في الدور الثاني توجد على بابها الأمامي علامة الصليب الأحمر. أوقف والدي السيارة أمام صنبور لإطفاء الحريق.

- «طاب يومكم»، قالت سيِّدة باللغة الإنجليزية وهي ترشدنا نحو الداخل.

- «أنا الدكتورة كارسون»، أضافت.

لقد درستُ اللغة الإنجليزية منذ الصف الأول، لكنني اعتبرتُها لغة غامضة، لغة بدت لي كما لو أن القواعد الخاصة بها قد وُضعت بشكل اعتباطي. مع ذلك صمَّمتُ على التركيز كي أستوعب أكبر قدر ممكن من الكلام. صافحت الدكتورة كارسون والديّ بقوة. كان باب شقتها يؤدي مباشرة إلى حجرة الجلوس، حيث أرشدتنا إلى أريكة كبيرة جدا بالنسبة للغرفة، عليها وسائد مزدانة بالتصاميم الوردية وقد استحال وبرها إلى حبيبات. وكانت هناك صورٌ بالأبيض والأسود لأطفال مرضى يعانقهم أطباء أميركيون يبتسمون ابتسامات عريضة، وقد علِّقت تلك الصور التي كانت بحجم ملصقات إعلانية على كافة الجدران. وكانت أحرف كلمة «ميدي ميشن MediMission» مكتوبة بشكل واضح على الملصقات تحت الصور، متبوعة بتشكيلة من الشعارات الرافعة للمعنويات عن الأطفال والمعجزات والمستقبل.

كانت الدكتورة كارسون نحيفة وشقراء وتملك أسنانا مشابهة لأسنان أولئك الموجودين في الملصقات، وصمَّمتُ على أن أكرهها

Twitter: @ketab_n

بسبب ذلك، كان وجهها ينضح بوقاحة تذكّرني بالطريقة التي كان يتحدث بها المعلمون مع الطلاب الذين كانوا يعتبرونهم أغبياء. لكنني كنتُ أعلم أنها تمثل الفرصة الفُضلى لراهيلا في التحسُّن؛ ومع أن زي الدكتورة كارسون كان يتكوَّن من جينز أزرق وقفازات مطاطية وسمّاعة طبيب، فإن المعدات التي تمتلكها كانت أفضل من المعدّات التي تحتويها جميع عيادات الأطباء في كرواتيا.

قامت بسحب الدم في المطبخ الخاص بها.

- «إنه معقم»، دأبت على قول ذلك مرارا وتكرارا، كما لو أنه كانت لدينا خيارات أخرى.

لم أكن أرغب برؤية ذراع راهيلا الصغير وهو مثبَّتٌ على طاولة المطبخ الخاص بتلك السيدة، علما أن راهيلا لم تكن تبكي في تلك اللحظة، بل إنها توقفت عن البكاء منذ وصولنا. لقد بدتْ متعبة. أشحتُ ببصري، ونظرتُ إلى صورة فتاة آسيوية كان وجهها نصف محترق، وقد بدا مشوَّها كلحاء شجرة متغضِّن. كان أحد الأطباء يسندها على ركبته ويضع عليها ضمادة.

أجرت الدكتورة كارسون المزيد من الفحوصات. كانت تتحدث مع والديّ بلغات مكسَّرة، حيث كانت أمي تترجم لأبي جملا متقطعة تفتقر إلى الترابط. لم تكن كليتا راهيلا تؤديان وظائفهما بشكل جيد، هذا ما أظهرته صور الأشعة. وتبيَّن أنها ربما لا تمتلك سوى كلية واحدة، مع أن الصور لم تكن حاسمة في ذلك بالرغم من استخدام أجهزة أحدث.

- «ثمة أجهزة أفضل لمثل هذه الفحوصات موجودة في مدن أخرى»، قالت الدكتورة كارسنون. «لكن في الوقت الحالي نستطيع أن نجرِّب الأدوية حتى تستقر الحالة»، أضافت.

Twitter: @ketab_n

أمطرتها والدتي بوابل من الأسئلة، وتحولتا إلى اللغة الإنجليزية. أما أبي وأنا فتراجعنا إلى الوراء ورحنا نتململ. دخلت الدكتورة كارسون إلى مطبخها ثم عادت ومعها كومة من الأوراق وزجاجة صغيرة مليئة بالكبسولات الزرقاء والحمراء.

- «مرَّتين في اليوم. سنبقى على اتصال».

عند نقطة التفتيش على الحدود أنزل والدي زجاج نافذة السيارة وأعطى الجوازات إلى الضابط القادم باتجاهنا، والذي كانت عيناه تتنقلان بفضول متزايد بين وجوهنا وصور هوياتنا.

- «هل أنتَ متأكد من أنك تريد العودة إلى هناك؟» قال وهو يشير برأسه نحو الحدود بينما كان يتحدث بنبرة تجمع بين الاستعلاء والقلق الحقيقي.

انتزع والدي أوراقنا من يد الضابط ورفع زجاج النافذة بسرعة بالغة لدرجة أنني اعتقدتُ أنه سوف يغلقها على يد الضابط. فتح فمه ليقول شيئا من خلال الزجاج، لكن يبدو أنه غيَّر رأيه وانطلق عبر الحدود نحو كرواتيا.

- «أي نوع من الأسئلة ذلك؟» تساءل بعد برهة من الزمن بنبرة جافة، ثم أضاف «بالطبع نريد أن نعود. بالطبع نريد أن نعود إلى وطننا».

- «هل أنتِ مستيقظة؟» قال أبي وهو يمد رأسه نحو غرفة الجلوس في تلك الليلة. «يوجد لدي قصة من أجلك»، أضاف.

نهضتُ وجلستُ على الأريكة ملقية ظهري على مسند الذراع. كان أبي يحمل كتابي المفضل (حكايات من الزمن الغابر). كانت حكايات الجن الموجودة بين دفتيه قديمة ومشهورة جدا، والنسخة

Twitter: @ketab_n

الموجـودة لدينــا كانت مهترئة لدرجة أنه تعيَّن علينا إعادة تثبيت الصفحات الوسطى داخل الكتاب.

- «أي قصة؟».

- «في أحد الأيام»، قرأ أبي، ثم تابع «دخل شــاب بالخطأ إلى غابــة ســتريبور. لم يكــن يعلم أن الغابــة مســحورة وأن كل أنواع المخلوقــات الســحرية تعيــش هناك. بعض الســحر الــذي كانت تخضــع لــه الغابــة كان خيِّرا في حــين كان بعضه الآخر شــريرا، والمكان كله كان يبقى مســحورا إلى أن يدخله الشــخص المناســب ما يؤدي إلى زوال مفعول الســحر، والشــخص المناســب هو الذي يفضِّــل حياتــه الخاصة، حتــى بكل مــا فيها من أتــراح، على كل صنوف الرفاهية والسعادة الموجودة في هذا العالم».

أطبــق والــدي الكتــاب وتظاهــرتُ بأنني صبــورة، لكوني كنت أعلــم بأنه ســيتابع الحكايــة وأنه لم يكــن بحاجة إلــى الكلمات الموجودة أمامه.

- «كان الشــاب متجهــا إلــى المنــزل الــذي توجد فيــه والدته، وذلــك بعــد الانتهاء من تقطيع الخشــب، عندمــا ..»، قفز والدي إلــى الأعلى وتظاهر بأنه يتعثر، «اجتاز العتبة المؤدية إلى مملكة ســتريبور. في الداخــل بدا أن كل شــيء كان يتوهج ببقع صغيرة من الذهب، كما لو أنه كان مغلفا بطبقة من اليراعات».

حاولــتُ أن أفكِّــر بمــكان فــي زغــرب يتميز بأن كل شــيء فيه نظيــفٌ ومتلألــئٌ، لكن المدينة لم تكن تبدو فــي أبهى صورها في الفترة الأخيرة.

- «والمرأة التي ظهرت أمامه في فرجة الغابة لم تكن مســتثناة. فقد كانت أجمل امرأة رآها في حياته».

Twitter: @ketab_n

- «لم تكن كذلك»، قلتُ، ثم أضفتُ «كانت متصنِّعة!».

- «هـذا صحيـح. بالفعـل كانـت تلك المـرأة عبارة عـن أفعى متنكرة. لكن الشـاب لم يكن يعلم ذلك. لقد أعموه بجمالها عن سابق تصور وتصميم».

- «علما أن والدته كانت تعلم ذلك».

- «عندمـا أحضرهـا الشـاب إلى المنـزل، رأت والدتـه أن لهذه المرأة لسـانا متشـعِّبا كلسـان الأفعى!»، أخرج أبي لسـانه مطلقا فحيحـا كفحيح الزواحـف. ثم أضاف: «حاولتْ والدة الشـاب أن تحـذره، لكنه تجاهلها. وأصرَّ على أنه كان سـعيدا بها. بعد ذلك مباشرة تزوَّج من تلك المرأة الأفعى. عاملت الكنَّة الجديدة والدة الشاب معاملة سيئة. وعلى الرغم من أنها كانت مسنَّة، فقد كانت الكنَّـة تتعبها فـي العمل، حيـث تجعلها تطبخ وتنظـف وتعتني بالحديقـة. وفـي الليـل كانـت والـدة الرجل تجلس فـي غرفتها وتبكي، متمنية لو أنها تجد مخرجا لها من هذا المأزق..».

- «ثـم؟» قلـتُ مقاطعـة إياه في هذا الجـزء المفضل لدي من القصة: «الجنيات!».

- «سـمعَت الجنياتُ صراخ سيدة تطلب النجدة بشكل يائس، فطارت في منتصف الليل إلى القرية عبر سفح الجبل ثم دخلت إلى المنزل عبر نافذة المطبخ».

- «كيف كانت تبدو؟».

- «كانت مُحاطة بسحابة من النور الأصفر، وكان لكل واحدة منها مجموعتان من الأجنحة الرقيقة التي كانت ترفرف بسرعة كبيرة لدرجة أن المرء بالكاد يستطيع رؤيتها! كانت أشبه بالطائر الطنان».

Twitter: @ketab_n

سبق لي أن رأيت طائرا طنانا عبر شاشة التلفزيون. لقد بدا لي ثقيلا لدرجة أنه لا يستطيع التحليق وسط الهواء مثلما يفعل في الحقيقة.

- «أمسكت الجنّيات بالسيدة العجوز من أكمام ردائها وحملنها إلى خارج القرية ثم إلى أسفل الجبل مرورا بين أشجار السنديان البيضاء الطويلة، حيث كان ستريبور، سيد الغابة، بانتظارهم. في هذا الوقت كان ستريبور يعيش في قلعة ذهبية داخل تجويف أكبر شجرة سنديان موجودة وأكثرها قوة..».

- «كيف ركّبَ القلعة داخل الشجرة؟».

- «إنه السحر يا آنا. عندما أوصلت الجنّيات تلك الأم إلى شجرته، خرج من مكانه وقال: أنا ستريبور، سيد الغابة! من يذهب إلى هناك؟».

كان والدي يجأر بصوت جهوري في محاولة منه لتقليد صوت ستريبور.

- «أنا برونهيلدا، وقد تزوّج ابني من امرأة أفعى شريرة!» قال مغيِّرا طبقة صوته إلى الصرير.

- «برونهيلدا؟» قلتُ، ثم ضحكتُ على هذا الاسم السخيف، الذي دأب والدي على تغييره كلما أعاد سرد هذه الحكاية.

- «آه، أجل يا برونهيلدا، أنا أعرف وضعكِ وأستطيع مساعدتك. كما تعلمين أنا قويٌّ جدا ولدي العديد من السلطات» قال والدي مبرزا صدره إلى الأمام وواضعا يديه على خصره. ثم أضاف: «باستخدام قواي الخارقة، أستطيع إعادتكِ إلى شبابك. سوف أُرجعك خمسين سنة إلى الوراء لكي تعودي شابة وجميلة من جديد. تحمست السيدة لفكرة استعادة الشباب مرة أخرى

Twitter: @ketab_n

والخروج من براثن كنّتها الشـريرة. فوافقت. وهكذا قام ستريبور بتحريك كل السحر الموجود في الغابة».

توقـف والـدي برهة للقيام بحركات إيمائيـة توحي بأنه يقوم بعمليـة التحريـك. ثم أضاف: «بعـد ذلك ظهـرت أمامهم بوابة عملاقة. قال سـتريبور للسيدة إنها عندما تمر من خلالها فإنها ستعود في الزمن إلى الماضي. كانت المرأة قد وضعتْ قدما واحدة فـوق العتبـة عندما خطرت لها فكرة: انتظر! ما الذي سـيحدث لابني؟ سـخر ستريبور من هذا السؤال الذي اعتبره سؤالا غبيا، ثـم قـال: بالطبـع لن يكون موجـودا في حياتـك الجديدة أو في شـبابك. تراجعـت المرأة إزاء ذلك قائلة: أفضِّـل أن أرى ابني على أن عيش بسـعادة من دونه. وهكذا كان». هنا قام والدي بطقطقة أصابعـه: «اختفـى سـتريبور واختفى معه سـحر الغابة. تحوَّلت الكنّة الشريرة إلى أفعى مرة أخرى. السيدة التي فضّلت أحزانها على كل ضروب السعادة في العالم دخلت الغابة وفكّت السحر».

غطاني والدي بالبطانية إلى أن أصبحتْ محيطة بذقني.

- «هـل تفهمـين الآن يا آنا بأن الأشـياء الصعبة تسـتحق أن يشقى الإنسان من أجلها؟».

- «أعتقد ذلك»، قلتُ، ثم فجأة شعرتُ بالتعب مرة أخرى.

- «حسنا»، قال والدي وهو يقبِّل جبيني، ثم أضاف: «تصبحين على خير».

أعـاد حكايات الجـن إلى مكانها على الرف ثم أطفأ المصباح، أما أنا فاختفيتُ بين تجاعيد الأريكة.

Twitter: @ketab_n

(4)

قُصف القصر الرئاسي بعد ذلك بيومين. في الملجأ كنتُ أنتظر إلى جانب رفاقي في المدرسة إشارة زوال الخطر كي نتحرر من براثن العفن والظلمة. كان يوجد في هذا الملجأ أسرَّة طابقية مكونة من ثلاثة أدوار، وبينما كنا ننتظر دورنا لركوب درّاجة مولد الكهرباء ابتكرنا لعبة تتمثل في التسلق إلى الطابق العلوي لأحد الأسرَّة ثم القفز منه، حيث يفوز الشخص الذي يكون الصوت الناجم عن ارتطام حذائه بالأرض الإسمنتية هو الأقوى. أما معلمتنا، التي تسارع عادة إلى منع مثل هذه الأنشطة الرياضية، فقد سمحتْ لنا بالاستمرار بهذه اللعبة بعد أن وجَّهت لنا تحذيرا صارما حول احتمال أن يؤدي ذلك إلى كسر عظام أحدنا. ثمة شيء كان يستغرق وقتا أطول من العادة. نظرتُ بشكل جانبي إلى الجزّار، الذي نصَّبَ نفسه حارسا على الباب، حيث كان جسده المترهل ملفوفا بمئزر ملطَّخ بالدم. وكان يبرز من جيبه الأمامي جهاز مسح يدوي خاص بالشرطة. كان يتهامس مع محاسب المحل الملاصق لمحله. بعد ذلك، وبشكل شبه مسعور، استدار في الاتجاه المعاكس وراح يتحسس مزاليج الباب، حيث كانت يداه الغليظتان تتحركان على نحو أسرع بكثير مما رأيتهما تتحركان عندما يقف خلف طاولة تقطيع اللحم.

Twitter: @ketab_n

- «هل سمعتِ الإشارة؟» سأل لوقا.

لم أكن قد سمعتُها، لكن الباب كان مفتوحا، حيث لم يستطع الأطفال بأرجلهم الهزيلة مجاراة اندفاع الحشود نحو السلالم. وعلاوة على ذلك، لم نكن نريد تفويت الإثارة. وهكذا فقد تدافعنا أنا وزملائي في الصف أثناء صعودنا السلم باتجاه ضوء النهار.

في البداية كانت هناك روائح؛ فقد اختلطت الرائحة الترابية للخشب المحترق بالرائحة الكيميائية النتنة للبلاستيك المنصهر، كما كانت هناك رائحة كريهة لشيء فاسد وغير مألوف. كانت تلك رائحة اللحم، كما سيتبين لاحقا.

ثم كان هناك الدخان؛ ثلاثة أعمدة متصاعدة فوق الجزء المرتفع من المدينة، كانت أعمدة عريضة وكثيفة وذات لون أحمر قاتم.

لم يكن هناك شعور بالقلق أو الإثارة هذه المرة، بل خوفٌ حقيقي. شعرتُ بالدوخة، كما لو أن شخصا لفَّ حبلا حول خاصرتي وأخرج كل الهواء الذي أتنفسه. في مكان ما خلفنا كانت معلمتنا تعطينا الأوامر بصوت عال كي تحضنا على الذهاب إلى منازلنا. مع ذلك، جميع الذين خرجوا من الملجأ مشوا مشية رجل واحد نحو مكان الانفجار. أمسكتُ بيد لوقا؛ كانت هناك فتاة بجانبي تمسك بقطعة من قميصي، كما انضم باقي أفراد الصف إلينا حتى أصبحنا نشكِّل سلسلة بشرية غير منظَّمة. كان انفصالنا عن بعضنا هذه المرة مخيفا أكثر من التوجه نحو مدينة تحترق.

وصلنا إلى قاعدة الدَّرج الحجري المؤدي إلى الجزء المرتفع من المدينة، نحو قصر بانسكي دفوري. كانت الشرطة قد أغلقت

Twitter: @ketab_n

السلالم، لذلك رحنا نشق طريقا ملتويا بين حشود الناس الأكبر منا سنا حتى تمكنّا من ارتقاء حافة إسمنتية بغية الحصول على إطلالة أفضل. كان والدي يعمل في مكتب المواصلات في ذلك الجزء المرتفع من المدينة خلال بعض الأيام، بيد أنني في هذا الوقت لم أستطع تذكر أي أيام بالتحديد. لم يكن المكتب قريبا من الانفجار بما يكفي لكي يكون قد تعرَّض للأذى، أليس كذلك؟ وسط هذه الضبابية كان من المستحيل تحديد ما حدث بالضبط، وقد تفحَّصتُ وجوه جميع الرجال عريضي الأكتاف الذين كانوا ضمن مجال رؤيتي، لكنني لم أجده.

كان الناس حولنا يتناقلون شذرات من تقارير متضاربة.

- «هل سمعتم؟ لقد تعرَّض الرئيس للقصف وهو جالسٌ إلى مكتبه».

- «بالله عليك، لقد وضعوه في غرفة محصَّنة تحت الأرض منذ الأسبوع الماضي».

- «هل سمعتم؟ كانت زوجته موجودة داخل المكتب أيضا؟».

جاءنا صوتٌ من الخلف: «أيها الأطفال هل أنتم هنا وحدكم؟».

عقدتنا الدهشة أنا ورفاقي في الصف عندما التفتنا لنجد شخصا يتحدث إلينا بشكل مباشر، كان شعورنا بالصدمة مشابها لذلك الشعور الذي ينتاب الطلاب عندما يُضبطون وهم يتبادلون الإجابات في امتحان الرياضيات. التفتُّ إلى الوراء لأرى مراسلا صحافيا يحمل ميكروفونا ضخما ويداعبُ سلكا موصولا بأذنه. كان يرتدي صدارا رماديا ينبعث منه بريق النايلون والمعدن.

Twitter: @ketab_n

- «لسنا هنا وحدنا»، قلتُ له، ثم أضفتُ «فقط كان والدي..».

- «ما شأنكَ أنتَ؟» قاطعني لوقا موجِّها الكلام له، حيث نفخ صدره ليحاكي الصدار الضخم الذي يرتديه ذلك الرجل. تلعثَم الصحافي، الذي كان المصوِّر المرافق له قد جاء ليلتقط صورة مع الأطفال.

- «يجب عليكم أن تكونوا في منازلكم»، قال لنا، وقد كشف الخوف الذي شعر به عن لكنته الفرنسية. هذا الانكشاف لهويته الأجنبية أدى إلى تبديد أي سلطة متبقية لديه.

- «يجب أن تعود إلى وطنك أيها الغريب»، قلتُ له وقد تملَّكتني الجرأة.

قهقه رفاقي، وفرحتُ للقبول الذي لقيتُه من قبل البنات، ولو بشكل مؤقت. شعرتُ بأني شجاعة، بل حتى قوية.

- «أيها الغريب، أيها الغريب»، ردَّد رفاقي، ثم قذفه أحدهم بلبِّ تفاحة ارتدَّ عن كتفه المبطَّن.

- «آه، ما الذي يهمني إن قُتلتم جميعا في الانفجار، أيها الحشرات الأنجاس!» قال.

طلب من المصوِّر المرافق له أن ينتقل عدة أقدام إلى الأعلى حتى لا نظهر في الصورة، ثم بدأ بإعادة تصوير تقريره.

دوَّى انفجار آخر قرب القصر تردَّد صداه أسفل الهضبة عبر المبنى الخرساني. ظهر تصدُّع طفيف بعرضِ جديلة الشعر في الحافة التي كنا نقف عليها. فجأة لم تعد فكرة الوجود في المنزل سيئة على الإطلاق. فانطلقنا، حيث رحتُ أجري برفقة لوقا في شارع إيليكا قبل أن نفترق ويمضي كلٌّ منا في طريق منفصل.

- «حظا موفقا!» قلتُ له بصوت عال عندما افترقنا.

Twitter: @ketab_n

بـدا لـي فيما بعـد أنه كان من الغباء أن أقـول له ذلك، حيث لم أسـمعه إن ردَّ عليَّ أم لا. فقد قامت سلسـلة أخرى من سيارات الإسـعاف بالالتفاف عند المنعطف، وأجهـزة الإنذار فيها تصدح بصوت عال أثناء مرورها.

وصلتُ إلى المنزل وأنا أشـعر بنشـاط وحمـاس بالغين، حيث فتحـتُ الباب بقـوة جعلته يرتطـم بالجدار المقابل، مـا أدى إلى زيـادة الانبعـاج الـذي كان فيـه والـذي نجم أساسـا عـن حالات مشابهة من الحماس الزائد.

- «أين كنتِ؟» صرختْ أمي من غرفة نومها، وقد بدت غاضبة.

- «في الملجأ. ألم تسمعي ما حلَّ بقصر بانسكي دفوري؟».

كنتُ أتوقع منها أن تحضنني بقوة مثلما فعلتْ بعد أول غارة جوية، لكنها بدلا من ذلك تفحصتني بنظراتها.

- «أنتِ مثيرة للاشمئزاز. يا إلهي، لماذا لا تلعبين مع الفتيات يا آنا؟» قالت.

بعـد ذلـك عـادت إلـى غرفتهـا. تبعتُهـا بضـع خطـوات ثـمَّ توقفـتُ متكئـة على باب الغرفـة. مع أن رد فعلها بـدا لي غريبا، فإنـي وجدتُ أنـه لا يعدو كونه طعما ليقودني إلى الانخراط في جدال بات مبتذلا بالنسـبة لي؛ كانت تريدني أن أدردش وأمارس لعبـة القفـز بالحبـل وأن أخبز المعجنـات؛ أما أنا فكنـتُ أريد أن أركب دراجتي الهوائية وأسـبح في نهر السـافا وألعب كرة القدم. كنتُ أحب الشـعور بالطين الجاف وهو يتشـقق على ذراعي ورُكَب بنطلـون الجينـز الذي كنت أرتديـه وهي ملطخة بلون العشـب، كنتُ أشـعر بأهميتي عندما كانت ملابسـي تحمل آثار أنشـطتي اليوميـة. كل مقتنياتـي تقريبـا، بما في ذلك دراجتـي الهوائية،

Twitter: @ketab_n

كانت عبارة عن مهملات زائدة عن حاجة ولد يقطن في الدور الذي فوقنا. وإذا كانت والدتي تشعر بخيبة الأمل نتيجة ميولي الصبيانية، فإنها ربما وجدت عزاء في حقيقة أن كل ما يعيل حياتي اليومية تقريبا هو مجاني.

كان مسار الملابس التي تنتقل من بيت إلى بيت يشكل شبكة معقدة تربط الجيران والغرباء في كافة أرجاء المدينة. لطالما تساءلتُ عن الجهة التي كانت أول من يقوم بشراء تلك الأشياء، وتخيَّلتُ أنه ثمة أسرة ملكية موجودة في رأس السلسلة تتولى شراء الملابس ثم توزعها على مختلف الشبكات العائلية. في الشوارع كنا نلمح أحيانا قمصانا لطالما ألفنا شكلها ضمن دوائر أصدقائنا، علما أننا كنا ملتزمين باتفاق غير معلن بعدم التطرق إلى ذلك الأمر. كنا نمضي الفترات الصباحية من أيام نهاية الأسبوع في إزالة البقع عن آخر الملابس القديمة التي وصلتنا، متخلصين بذلك من ذكريات بعضنا بعضا.

- «كانت الفتيات هناك»، قلتُ بصوت هامس.

بيد أن والدتي لم تردّ هذه المرة، واستمرت تتحرك في أرجاء الغرفة حيث كانت تبدو مشغولة. فقامتْ بنقل كومة من أوراق الطلاب من منضدة السرير الجانبية الخاصة بها إلى مكتبها، ثم جمعتْ أقلام الرصاص وجعلتها تقف في حالة تأهب ضمن كوب قهوة مجاور. كان ذلك مؤشرا أكيدا على أن هناك خطبا ما. كنتُ قد شاهدتُ راهيلا مستلقية على سرير والدتي، لكنني نظرتُ إليها عن كثب هذه المرة. كانت مسنودة بكومة من الوسائد، وكانت الصدرية المربوطة بعنقها ملطخة بلون أحمر طفيف.

- «أمي.. هل هذا دم؟».

Twitter: @ketab_n

كانت راهيلا تسعل، واللعاب الموجود عند شفتها كان يشوبه لونٌ وردي ينذر بأمر خطير.

- «إنه الدواء الجديد. الدكتورة كارسون قالت إن هذا قد يحدث».

- «وهل هذا يعني أنه يعطي نتيجة؟» قلتُ لها.

أغلقت والدتي درج منضدة الزينة الخاصة بها بقوة.

عندما وصل أبي إلى المنزل، نشب خلاف بينه وبين والدتي. وراحا يتشاجران بشأن فواتير الأطباء والمعابر الحدودية وبانسكي دفوري والملاجئ وأميركا. كما تشاجرا بشأن راهيلا، ثم بشأني أنا.

حملتُ راهيلا ورحتُ أتجول في أرجاء غرفة الجلوس. كان صوت الصراخ يصل إلي من خلال الجدار المشترك بيننا.

- «لقد سئمتُ الانتظار. سئمتُ منك لكثرة ما طلبتَ مني أن أنتظر»، قالت والدتي.

- «ماذا تريدينني أن أقول؟ ليس لدينا خيارٌ آخر سوى الانتظار لنرى ما إذا كان الدواء سيحقق نتيجة».

- «إنه لا يحقق أي نتيجة. علينا أن نذهب».

- «لن نتمكن من الحصول على تأشيرات إذا كنا نُعتبر في حكم الهاربين».

- «توجد لدينا وظائف ثابتة. وتوجد لدينا شقة».

- «المدينة تحترق يا ديانا. ونحن في حكم الهاربين».

كان أحدهما يضرب الأشياء الموجودة على المكتب بقوة.

- «مع ذلك تقدَّمتُ بطلب للحصول على تأشيرات لنا جميعا»، قال والدي بعد برهة.

Twitter: @ketab_n

لم تكن لدي فكرة واضحة عن قوانين جوازات السفر والتأشيرات، وماذا يترتب على محاولة التقدم للحصول عليها، لكنني كنتُ أذكى من أن أتدخل في الشجار الدائر. وبدلا من ذلك لففتُ راهيلا ببطانية أخرى، ودفعتُ الأبواب التي كانت لا تزال مدعَّمة بطبقة مزدوجة من الشريط اللاصق على شكل حرف X، ثم خرجتُ إلى الشرفة. كانت الإطلالة من ارتفاع تسعة أدوار تغطي معظم أرجاء المدينة. ثمة سلسلة ناطحات سحاب تقع إلى أقصى اليمين تشكل عينة تمثيلية من فن العمارة الأحدث والأكثر قبحا في زغرب. كانت تُسمى أبراج براتشا دوماني، علما أنه ما من أحد كان يعرف أي شخص من الإخوة دوماني أو يعلم أي شيء عن سبب وجود مبان سكنية تحمل اسمهم. كان عدد الناس الذين يقطنون ذلك المجمع كبيرا لدرجة أن هناك نكتة انتشرت في شتى أرجاء المدينة تقول إنك إذا كنتَ لا تستطيع اقتفاء أثر أحد معارفك، فإن إرسال رسالة ضمن الاتجاه العام لتلك الأبراج كان كافيا.

إلى اليسار كان البرجان التوءمان لكاتدرائية زغرب يتفوقان من حيث الارتفاع على المباني المحيطة بهما. لا أتذكر أنه مرَّ يومٌ لم تكن فيه تلك الكاتدرائية مغطاة ولو جزئيا على الأقل بالسقالات والقماش المشمَّع، مع أن ذلك لم يزدها إلا فخامة، حيث تشكل جراحها تجليا ملموسا لأحزان المدينة واعترافاتها. في الليالي التي سبقت اندلاع الحرب، كان هناك ضوءان كشّافان يضيئان البرجين الحجريين على شكل دفقات ثنائية من النور الذهبي الدافئ. أما الآن، وبعد أن تم إطفاؤهما تماشيا مع

Twitter: @ketab_n

عمليـة الإطفـاء العـام للأضواء، فقـد كان مـن الصعب تحديد الحد الفاصل بين البرجين والسماء أثناء الليل.

كان الجـو لا يـزال يعبـق بقـدر من الدخـان، لكن السـحابة الكائنـة فـوق الجـزء المرتفـع مـن المدينة كانـت تتراجـع ببطء. اسـتلقيتُ على ظهـري، وأقحمتُ سـاقيّ بين القضبـان المعدنية للدرابزين، ثم ضممتُ راهيلا إلى صدري، كانت مستيقظة لكنها في حالة أكثر هدوءا الآن. كان خروجي إلى الشرفة يُشعرني دوما بالتحسن عندما أكون مضطربة، وقد تساءلتُ ما إذا كانت تشعر بذلك هي الأخرى أيضا.

بعـد فتـرة قصيـرة نادتني أمي كـي أعود إلـى الداخل، حيث وبَّختني لأنني أخرجتُ راهيلا وسط البـرد. حاولتُ أن أتذكّر كيف كانت أمي قبل أن تولد أختي، لأرى ما إذا كانت تنزعج مني بشكل دائـم، لكننـي وجدتُ مـن الصعوبة بمـكان تذكُّر أنه سـبق لنا أن عشنا حياة لم تكن تتمحور حول طفل يبكي.

- «يجب أن تتحسني»، قلتُ لأختي بهمس.

كنتُ أريد أن يحدث ذلك من أجلي أنا بقدر ما كنتُ أريده من أجلها، وشعرتُ بالذنب عندما أدركتُ ذلك.

سـلَّمتُ راهيـلا إلـى والدتـي، التي قامـت بإغلاقِ بـاب غرفة النوم. وبعد بضع دقائق دخل والدي وجلس إلى البيانو، ثم شرع بعزف الفواصل الموسـيقية القليلة الأولى من إحدى مقطوعات سبرينغستين التي كانت تحظى بشعبية قبل الحرب، لكنه توقَّف بعـد أن أخطـأ فـي عزف إحـدى النغمـات. كان يأخـذ كومة من الصحائـف الموسـيقية الضاربة إلـى الصُّفرة مـن داخل منضدة البيانو ويسـمح لـي بأن أختار أغنية. لم يكـن عزفه مثاليا، لكن

Twitter: @ketab_n

كان بالإمكان دائما معرفة اسم الأغنية التي يعزفها، علما أنه لم يسبق له أن أخذ درسا في الموسيقى.

ذات مرة سمعتُه يقول إن الموسيقى مثل الحلوى، إذ إنه من الممكن العيش من دونها، لكن الحياة تفقد بذلك جزءا من رونقها. وفي بعض الليالي التي كان يُفترض بي أن أعمل واجباتي المدرسية، كنا، أبي وأنا، نحضر مشغِّل أشرطة الكاسيت من الرف ونضعه وسط أرض غرفة الجلوس. وعندما كانت تذاع إحدى الأغاني التي نحبها على الراديو، كنا نتوقف عن كل الأعمال التي نقوم بها في تلك اللحظة، ثم نهرع عائدين إلى غرفة الجلوس لنلقي بأنفسنا عند مشغِّل الكاسيت ونخبط أذرعنا على الأرض مثلما يفعل حراس مرمى كرة القدم. ثم يقوم أحدنا بالضغط على زر التسجيل أثناء نزولنا على الأرض وهي اللحظة التي كان يختلط فيها الشعور بالألم بسبب السحجات الناجمة عن الاحتكاك بالسجادة بالشعور بالحيوية والنشاط البالغين. بعد ذلك، وقبل أن يُطلب مني الخلود إلى النوم، كنا ندوِّن أسماء الأغاني الجديدة على الملصق الموجود على الكاسيت ثم نعيد جهاز الستيريو إلى مكانه على الرف، حيث نحفظ الشريط بعناية ضمن ملف مجموعة الأغاني التي قُطعت من كل أغنية فيها أول عشر ثوان. وأحيانا عندما كان يتعطل أحد الأشرطة، كنا نسحب محتوياته الشفافة ذات الألوان القزحية وننشرها في شتى أرجاء الغرفة، ونحن نركض ونضحك، بينما ترتطم أرجلنا بقوائم الأثاث المنزلي. أما والدتي، التي كان ينفد صبرها عادة إزاء معظم أعمال اللهو التي كنا نقوم بها، فإنها لم تكن تتدخل أبدا لإيقاف تلك العمليات التشريحية المتهورة لأشرطة الكاسيت.

Twitter: @ketab_n

لكـن اليوم عندما شـغَّل والـدي الراديو لم يكن هناك سـوى السكون.

- «لقـد قصفـوا قمـة جبل سـلايمة أيضـا»، قال والـدي، ثم أضاف «حاولوا تدمير برج الاتصالات».

قـام بـإدارة مفتـاح التوليـف فـي كافـة الاتجاهـات قبـل أن يطفئه. سمعتُ صوت تنفسه وهو ينتظم ضمن دورة إيقاعية، ثم بـدأ يدنـدن أغنية جديدة كانت تلقى انتشـارا في هضاب زاغورا، إنها نشيد الجنود الكروات في الشرق، والتي يقول مطلعها: «لن تصلوا إلى تشافوغلاف، ليس ونحن على قيد الحياة».

- «»لن تصلوا إلى تشافوغلاف، ليس ونحن على قيد الحياة»، بدأتُ أردد معه.

- «اهدئي»، قالت لي والدتي التي وصلني صوتها عبر الجدار.

- «ليس ونحن على قيد الحياة»، ردَّ والدي بصوت عال موجها كلامـه نحـو رف الكتب، فضحكـتُ. كانت والدتي فـي هذا الوقت موجـودة في المطبخ، حيث كان صـوتُ اصطدام الأطباق ببعضها مدويا، في حين تلاشت ابتسامة والدي عن محياه.

- «حان وقت النوم يا آنا»، قال لي.

- «أريد أن تغني الجزء المتبقي أولا»، قلتُ له وأنا أمد الشرشف والبطانيـة علـى الأريكـة. نظر من فـوق كتفه ليرى مـا إذا كانت والدتـي موجـودة، ثم أطفأ المصباح وغنى لي ذلك الجزء همسـا في الظلام.

في الصباح بنت الشرطة أسوارا من أكياس الرمل. وقفتُ على الشـرفة قبل الذهاب إلى المدرسة وراقبتُهم وهم يغلقون الشوارع المؤديـة إلـى المدينة. قاموا بتكوين سلسـلة بشـرية ليتمكنوا من

Twitter: @ketab_n

رفـع الأكياس وترتيبها ضمن أكوام متصالبة ومنظّمة، حيث كان هنـاك بعض الرجال الذين يقفون على السـلالم ويتولون ترتيب الأجزاء العلوية.

كان يُفتـرض أن تـؤدي أكيـاس الرمـل دور المتاريـس التـي نستطيع أن نقف خلفها ونطلق النار منها في حال جاء الصرب لاعتقالنا. لكن بدلا من أن يمنحنا المتراس شـعورا بالأمان، فإنه أضفى نفحة من السذاجة. فقد بدا الأمر كما لو أننا كنا نتصور أن طوفـان الدبابـات يشـبه طوفـان الميـاه وأنه بالإمـكان إيقافه بوسـاطة كومة من الأكياس. بدا كما لو أنه لم يسـبق لنا أن رأينا ذلـك المقطـع المصـوَّر للدبابـة التي تقـوم بتحطيم سـيارة فيكو حمراء في شوارع أوسيجيك، أو مقطع الشاحنة التابعة للجيش التي تقوم بسـحق حافلة للمسـافرين وإسقاطها في خندق على جانـب الطريق. لم يخطر في بال أحد أن إغلاق الطرق القادمة أشبه بإغلاق ممرات الهروب.

لكـن الخوف الـذي كان موجودا لدينا بالأمـس بات مبتذلا، وقـد قررنا، أصدقائي وأنا، أن نلتقي عند أول متراس بعد العودة من المدرسـة؛ كان تسلقه مغريا، فقد كان عاليا وجذابا مثل غابة الألعاب الرياضية. وبحلول نهاية الأسبوع كانت أكياس الرمل قد تحوّلـت إلى جزء لا يتجزأ مـن مجموعة ألعابنا. وهكذا أضحت الحرب بسـرعة لعبتنـا المفضلة وتخلينا نهائيـا عن الذهاب إلى الحديقـة. كنـا نجتمع قـرب أكيـاس الرمل لأن الخطـوط كانت مرسـومة بشـكل مسـبق. وفي حال تمكنّا من إقناع عدد كاف من الناس كي يقوموا بدور الصرب فإننا سـنلعب على شكل فريقين، التشـيتنيك مقابل الكروات، وهذا كان معناه أنه لا يوجد لديك

Twitter: @ketab_n

سوى حياة واحدة، وعندما تموت فإنه كان يتعين عليك أن تبقى ميتا. وكانت اللعبة تنتهي عندما يتمكن أحد الفريقين من قتل جميع أفراد الفريق الآخر. وأحيانا أخرى كنا نمارس لعبة الحرب الفردية التي يقاتل فيها كل شخص وحده، حيث يكون لديك في هذه اللعبة ثلاث أرواح، ويتعين على كل شخص أن يقتل الأشخاص الآخرين بشكل عشوائي.

في كلتا اللعبتين، كانت الفكرة تتمثل في قتل الأشخاص عبر إطلاق النار عليهم من مسدس خيالي؛ وقد كان استخدام قطعة خشب أو زجاجة بيرة فارغة كافيا لتأدية هذا الغرض. وكان من المهم أن يحدث التقاء بين نظراتك ونظرات الشخص الذي تقوم بقتله، وذلك لتجنب التناقضات. وضمن كل لعبة كان هناك تحديان ثانويان؛ الأول يتمثل في تحديد من يستطيع إحداث المؤثرات الصوتية للرشاش الآلي على نحو أكثر واقعية، واللاعبون الأفضل هم الذين كانوا يستطيعون التمييز بين صوت التومبسون والكلاشنكوف والزيروجوفكا. كان لوقا هو الذي يفوز عادة في هذا التحدي. أما التحدي الثاني فكان يتمثل في تحديد من هو الأفضل في تمثيل الموت. ولو كانت الأمور تُحسب عن طريق النقاط، لتمَّ منح اللاعبين الذين يقومون بالسقوط البطيء نقاطا إضافية. كما كان يُعتبر تمثيل اختلاج ما بعد الموت أو الهذيان الوهمي ميزة إضافية، شريطة ألا يكون مبالغا فيه. وأولئك الذين كانوا يمثلون الموت فيقومون بثني أطرافهم على شكل زوايا غير طبيعية ويتمكنون من الحفاظ على وضعياتهم تلك لأطول فترة ممكنة هم الذين كانوا يفوزون.

حتى في حال أثبتت أكياس الرمل فاعليتها في صد الهجوم

Twitter: @ketab_n

الخارجي، فإنها لم تكن لتستطيع حمايتنا من أولئك الموجودين داخل المنطقة المحاصرة. فقد انتشرت أخبار عن أن مدنيين صربيا مقيمين في زغرب أخذوا على عاتقهم المشاركة في هذه الحرب، وذلك عبر إعداد المتفجرات داخل مطابخهم. فقد كانوا يفخخون الأدوات المنزلية ويضعونها على جوانب الطرقات. وكانت السيارات الدمى من نوع ماتشبوكس وأقلام الحبر الجاف هي الأدوات المفضلة لديهم. وقد أقسم ماتي إنهم كانوا على وشك أن يتمكنوا من قتله باستخدام علبة بيرة اشتعلت فيها النيران عندما ركلها، حيث أحرقت العلبة أطراف بنطلونه وأطلقت أصوات فرقعات بدلا من أن تنفجر، على حدٍّ قوله، حيث لم نكن متأكدين مما إذا كان يُفترض بنا أن نصدقه أم لا. لكن بدا أن معلمتنا كانت تأخذ تلك القصص بجدية، حيث كانت تُذكِّرنا في ظهيرة كل يوم أننا يجب ألا نلتقط الأشياء من الشارع مهما كان شكلها برّاقا. وقد شكّل ذلك تحديا بالنسبة لأناس محتاجين ويعانون من قلة المؤونة.

عثر زميلنا توميسلاف على شقيقه الأكبر جثة هامدة ومحشورة بين شقوق الرصيف في أحد شوارع الحارة المقابلة لمنزلهم، وكان دمه قد بدأ بالتجمد. لم يخبرنا أحدٌ بشكل مباشر عما حدث، لكن من خلال المحادثات التي جرت على مرمى أسماعنا، عرفنا الحقيقة.

رأيتُ توميسلاف في الملجأ خلال غارة شُنَّت بعد ذلك بيومين. عندما وصل إلى هناك، كنتُ وبقية زملائي نتدافع كي يحصل كل واحد منا على دوره في تحريك دراجة مولد الكهرباء. توقفنا عن التدافع وحدقنا إليه. أخافتني حدة نظراته أكثر مما كان

سيخيفني فيما لو كان يبكي. أما الولد الذي كان راكبا على دراجة المولد فتوقف دون أي نقاش. مرَّ توميسلاف من أمامنا وامتطى الدراجة.

راقبتُه للحظة وهو يحرك الدواسات بغضب، محوِّلا ألمه إلى طاقة، وهو أمرٌ مثبت وعلمي. بعد ذلك فضضنا الطابور وانتقلنا إلى زاوية أخرى من الملجأ لمنحه بعض الخصوصية، وقد بدا ذلك القرار صائبا وفقا لقانون السلوك الخاص بزمن الحرب والذي كنا نبتكره ونحن نعيش تفاصيل حياتنا اليومية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(5)

تنحى الصيف جانبا مفسحا المجال أمام الخريف، وذلك بنفس الطريقة الفظة والقبيحة التي تتبعها زغرب دائما في تغيير فصولها. لم تكد الأوراق تكتسب لونها البني حتى بدأت بالتساقط، في حين بدت السماء كما لو أنها غُطِّيت بقطعة قماش متسخة. في بعض الأيام كنا نشعر بقساوة البرد إلى درجة يُخيَّل إلينا أنها ستُثلج، لكن بدلا من ذلك كانت الغيوم تبقى مكفهرة مطلقة ما يكفي من الرذاذ كي تحرمنا من اللعب في الخارج. كنت أنا وأصدقائي نلازم منازلنا في حين كان الكبار يتجولون وهم متجهِّمون ويحملون مظلات سوداء.

في أعقاب قصف القصر، أعلنت كرواتيا استقلالها رسميا، وهو ما أدى إلى إطلاق موجة من التعديلات التي أثارت الشكوك حول أتفه تفاصيل حياتنا السابقة. كان مغنو البوب في كل يوغوسلافيا يسجِّلون نسختين من أغانيهم الناجحة في كلتا اللهجتين؛ فقد تعيَّن عليهم استبدال بعض الكلمات مثل (قهوة coffee) بكلمتي kava وkafa من أجل الجمهورين الكرواتي والصربي. حتى عادات المرء في إلقاء التحية أصبحت عرضة للتحليل؛ فطبع قبلة على كل خد على سبيل إلقاء التحية كان

Twitter: @ketab_n

مقبولا، أما التقبيل ثلاث مرات فكان يُعتبر أمرا مبالغا فيه، وهو من العادات المتبعة في الكنيسـة الأرثوذكسـية، ولذلك كان يُعتبر خيانة.

تناولنا، لوقا وأنا، موضوع انهيار لغتنا بمزيد من الأسئلة:

- «هـل تعتقديـن أنـه يتعـين علينا الآن اسـتصدار شـهادات ميـلاد جديـدة نظرا لأن يوغوسـلافيا لم تعد يوغوسـلافيا على الإطلاق؟» قال لي.

- «ربما لا. كانت لا تزال يوغوسلافيا عندما وُلدنا».

- «وماذا عن البطاقات الصحية وجوازات السفر؟».

- «جـوازات السـفر؟» فكَّرتُ بالأمر مليا. «أظن أننا سـنحتاج إلى جوازات جديدة عندما نكسب الحرب»، أضفتُ.

- «وماذا عن تذاكر ركوب الترام؟».

- «الترام؟ من يكترث لذلك؟ نحن لا نشـتري هذه التذاكر». قلتُ له ثم نظرتُ إليه فارتسمت على وجهه ابتسامةُ بلهاء.

- «فهمتُك».

بعد برهة قلتُ له: «عندما نتزوج، هل سـتبيِّن شـهادات الميلاد ما إذا كان أطفالنا كروات أم بوسنيين؟».

توقف لوقا فجأة وقال، «ماذا؟».

- «عندما نتزوج...».

- «ما الذي يجعلك تعتقدين أننا سنتزوج؟».

في الحقيقة لم يسبق لي أن فكرتُ بهذا الأمر؛ فقد افترضتُ ذلك جدلا وحسب.

- «لأننا أصدقاء مقربون من بعضنا»، قلتُ.

- «لا أتصور أن هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور».

Twitter: @ketab_n

- «لمَ لا؟».

- «يجب أن تكوني مغرمة وما شابه ذلك، كما تعلمين».

فكرتُ بالأمر ثم قلتُ له: «حسنا أنا أحبك. أنا أعرفك منذ الأزل».

- «لا تعلمين ما إذا كنتِ مغرمة حتى تصبحي مراهقة». قال لوقا، مضيفا «أعني أنه يتعين علينا أن ننتظر ونرى حتى نجرِّب هذا الأمر».

- «بالتأكيد».

- «لكنك لا تستطيعين الإفصاح عن مثل هذه الأمور في المدرسة. فهم حاليا يسخرون مني بما فيه الكفاية».

لم أكن أدرك في السابق أن الأولاد كانوا يضايقون لوقا مثلما كانت الفتيات يضايقنني.

- «لن أفعل»، قلتُ له وأنا أشعر بالارتباك.

تمنيتُ لو أنني لم أذكر هذا الموضوع، وخطر في بالي أن أخترع مبررا كي أذهب إلى المنزل. بيد أن لوقا امتطى دراجته الهوائية مرة أخرى ثم انطلق، فلحقتُ به. مررنا بالقرب من حاجز، حيث كان بعض الأولاد من زملائي في الصف يتسلقون أكياس الرمل. لَوَّح لوقا لهم بيده.

- «لنتحدث عن موضوع آخر»، قال. «هل رأيتِ العملة؟» أضاف.

كانت الحكومة قد بدأت بإصدار العملة الجديدة، التي تحمل اسم الدينار أيضا، لكن مع وضع صورة كاتدرائية زغرب على ظهر كل ورقة نقدية بغض النظر عن فئتها. في البداية كان الأمر مثيرا أن نمسك بعملة تحمل اسم «جمهورية كرواتيا» مكتوبا

Twitter: @ketab_n

بأحـرف باهتة مثلها مثل أي دولة رسـمية، وكان مُبهجا أن تكون الصـورة التي تحملها تلك العملة لمكان كنت أسـتطيع رؤيته من الجهة الخلفية لشـقتنا. لكن لم يكن أحدٌ يعلم كم كان يسـاوي الدينـار، حيث كانت قيمته تتقلب بشـكل جنونـي بين يوم وآخر، فضـلا عن أن بعض المحلات، التي يملكها أشـخاص صربيون، أو حتى رجال أعمال بخلاء، لم تكن تقبله خشـية أن تتغير العملة مـرة أخـرى خـلال الحرب. أمـا الصفقـات الكبرى فكانـت تُنفّذ بالمارك الألماني.

أرسلتني والدتي إلى الجزّار حيث أعطتني رزمة من الدنانير الجديدة وطلبت مني أن أشـتري لها كيسـا مـن العظام، ولطالما راقبتُهـا وهي تعد الحسـاء بنكهة اللحم. كانـت حصص الطعام التـي توزِّعهـا تتناقـص تدريجيـا، كما أنهـا كانـت أحيانا تمتنع عـن تنـاول الأكل نهائيـا، متذرِّعـة بأنهـا مصابة بصـداع أو أنها مشـغولة بأوراق الطلاب كي تتمكن من مغـادرة الطاولة. لم أكن أشـعر بالشـبع نهائيا بعد تناول العشـاء، لكنني كنتُ أكثر براعة فـي قـراءة تعابير وجه والديّ مما كانا يظنـان، لذلك كنتُ ألتزم الصمت.

لم يتوقف بيتر ومارينا عن زيارتنا نهاية كل أسبوع، حيث كانت والدتـي ومارينا تتشـاركان في جمع المؤونة بشـكل يكفي لإطعام جميع الموجودين. لم يتبقَّ مال لشراء النبيذ أو السجائر، لذلك كنا نشـرب الماء في حين كان بيتر يمضغ العلكة، وعندما لم يعد هناك علكٌ، صار يمضغ أظافره.

فـي أحد أيام الأحد وصلت مارينا والشـحوب باد على وجهها. سلَّمتني والدتي راهيلا، ثم دخلت الاثنتان إلى غرفة النوم وبدأتا

Twitter: @ketab_n

تتهامسان خلف الباب. رحتُ أذرع الشقة جيئة وذهابا جاعلة وجه راهيلا متجها نحو الخارج لعل انتباهها يتشتت عن حقيقة أنها مريضة وربما جائعة. كنتُ أهمس في أذنها النِّكات التي كنا نتداولها في أرض الملعب، مثل: ما هو الشيء الذي حجمه صغير ولونه أحمر ويتحرك إلى الأعلى والأسفل؟ حبة طماطم في مصعد. على ماذا تحصل عندما تجعل اثنتي عشر امرأة صربية يجلسن على شكل دائرة؟ على طقم كامل من الأسنان. أحيانا كنتُ أظن أنني أرى ابتسامة راهيلا عندما أقول العبارة الحاسمة من النكتة. كانت راهيلا تزداد نحافة، لكن بكاءها كان يتراجع، وهو ما فسَّرتُه على أن الدواء بدأ يعطي نتيجة، وذلك على الرغم من صوت الأزيز الخفيف الذي كان يصدر منها عندما كانت تتنفس.

وأخيرا خرجت والدتي ومارينا من غرفة النوم وأعلن بيتر أنه سيلتحق بقاعدة التدريب في غضون أسبوع.

- «هل تشعر بالتوتر؟» قال والدي.

- «لا، فقط أفتقر إلى اللياقة البدنية!» قال بيتر مربِّتا على بطنه، ثم نظر إليّ مبتسما ابتسامة عريضة، على أمل أن يجعلني أضحك، لكن حتى أنا كنتُ أستطيع أن أرى بأنه قد خسر وزنا وأن ابتسامته لم تكن متوافقة مع نظراته.

- «إلى أين سيرسلونك؟».

- «سأكون قريبا. بعد التدريب سوف أكون جزءا من خلية الدفاع عن زغرب. حتى إنني قد آتي إلى المنزل خلال نهاية الأسبوع».

- «تستطيعين البقاء معنا يا مارينا إن أردتِ ذلك»، قالت والدتي.

Twitter: @ketab_n

- «لا تكوني سخيفة، سأكون بخير».

- «حتى إنها لن تلاحظ أنني قد ذهبت»، قال بيتر. نظر الأربعة بعضهم إلى بعض، أما أنا فشعرتُ بذلك الإحباط الشائع جدا لدى الأطفال، مثلما يحدث لك عندما يضحك جميع الموجودين على نكتة لا تفهمها أنت، علما أن الصمت كان مخيما على الشقة باستثناء صوت ارتطام الملاعق بالصحون وتنهيدات بيتر الثقيلة عندما كان يبتلع الطعام.

بقيتُ مستيقظة لأطول فترة ممكنة في تلك الليلة، حيث كنتُ أستمع إلى والديّ الجالسين في المطبخ.

- «يجب أن أخرج إلى هناك. كل من يستطيع الوقوف على قدميه يجب أن يدافع عن هذه المدينة»، قال والدي.

- «هناك الكثير من الجنود. ونظرا لحالة عينيك، من الأفضل أن تبقى هنا».

- «سيكون من الأفضل لو أنني أستطيع حماية عائلتي».

- «سيكون كل شيء على ما يُرام»، قالت والدتي.

في العادة كان هو من يقوم بطمأنتها، وقد جعلني سماعي لهما وقد تبادلا الأدوار أشعر بالذنب لكوني أتنصت عليهما.

- «إلى جانب ذلك، أنا سعيدة بوجودك هنا معي، أقصد معنا»، أضافت والدتي.

- «وأنا أيضا»، قال لها بعد برهة.

كانت صافرة الإنذار الخاصة بالغارات الجوية بمثابة ساعة المنبِّه بالنسبة لنا، حيث واظبنا خلال الأشهر الأولى تلك على الامتثال لها. فكان سماع صوت الصافرة في الواحدة صباحا يعني النهوض الجماعي من الأسِرَّة وارتداء

Twitter: @ketab_n

الأحذية على عجل، ثم تدفق الجيران المترنّحون من النعاس إلى الممرات المُضاءة بمصابيح فلورية (أو في الظلام الدامس إذا كان التيار مقطوعا). في تلك الليلة بدا كما لو أنني لم أنم سوى ثوان قليلة عندما حملني والدي عن الأريكة مع بطانيتي، في حين كانت والدتي تحمل راهيلا وتسير خلفنا مباشرة. كنتُ أنتفض من النعاس عندما ضمّني إلى صدره ونزل بي على السلم حتى وصلنا إلى السرداب، كانت قلوبنا تنبض على نحو سريع وغير منتظم مثلما يحدث عادة لمن يتم إخراجهم من أسرّتهم على نحو مفاجئ. تسلّل هواء السرداب البارد إلى داخل لباس النوم الذي كنتُ أرتديه، فجلستُ متكئة على عنبرنا ولففتُ البطانية بقوة حولي بانتظار أن يأتيني النوم.

في اللحظة التي تسلل فيها الدفء إلي وكنت على وشك الخلود إلى النوم انطلقت صافرة الإنذار معلنة انتهاء الهجوم. فركتُ عيني عندما حملني والدي وصعد بي السلم ثم أعادني إلى الأريكة. لكن حالما خرج من الغرفة بدأت صافرة الإنذار بالعويل. بكت راهيلا مرة أخرى. سحبتُ البطانية وغطيتُ بها رأسي، وظهر والدي عند مدخل الباب حاملا كومة من البطانيات والوسائد.

- « تعالي إلى هنا يا آنا».

- «لا أريد الذهاب مرة أخرى»، قلتُ له، ومع ذلك نهضتُ من سريري.

وضع كومة البطانيات والوسائد في وسط المطبخ وأخذني إلى غرفة المؤونة، حيث قام بتنظيف الأرض في الداخل ثم بذل

Twitter: @ketab_n

كل ما بوسعه كي يجد طريقة ليفرش بطانيتي في تلك المساحة الضيقة. نظرتُ إلى والدي، فقرأتُ على محياه اعتذارا صامتا، ثم دخلتُ وجلستُ ضامة ركبتيّ إلى صدري. هيّأتْ والدتي مكانا بجانبي ووضعت فيه وسادة من أجل راهيلا، ثم استلقتْ هي ووالدي أمام باب غرفة المؤونة. عندما نمتُ كانت هناك مكنسة تضغط على مؤخرة رأسي، في حين كان والدي يمسك بيدي ويشد عليها كلما صدح صوت صافرة الإنذار خلال ساعات الصباح الأولى.

Twitter: @ketab_n

(6)

عندما استيقظتُ كانت الشقة فارغة. لم تكن راهيلا موجودة على الوسادة، فزحفتُ على ركبتيّ المتيبستين إلى خارج غرفة المؤونة ثم نهضتُ واقفة على قدميّ. كان صوت التلفاز يهدر باتجاه كراسي المطبخ الخاوية، في حين كان باب شقتنا مفتوحا بطريقة تنم عن الإهمال الذي لم أعهده في أيّ من والديّ، فشعرتُ بالذعر، واندفعتُ خارجة إلى الممر. كانت أبواب جيراننا مفتوحة قليلا أيضا، وأجهزة التلفاز تعمل في حين كانت الغرف خاوية.

- «أبي! أين أنت؟» صرختُ في الممر، آملة على الأقل أن أستفز أحد الجيران على الخروج كي يؤنبني على إثارة الفوضى. لم يظهر أحد. بدأتُ أعتقد أنني الوحيدة التي بقيت في تلك البناية عندما تمتم أحدهم من الشقة المقابلة ناطقا اسمي.

- «بست! يا ابنة يوريتش»، همس ذلك الصوت.

كان ذلك صوت الجليسة السابقة لراهيلا. كان بابها مفتوحا قليلا فدخلتُ منه. كانت منحنية فوق طاولة المطبخ وسلك الهاتف ملفوفا حولها، وتتكلم بهمس. عندما نظرتُ باتجاهها غطت سمّاعة الهاتف بيدها التي كانت شديدة الشحوب وعروقها بارزة لدرجة أنها بدت لي خضراء اللون.

Twitter: @ketab_n

- «جميعهم في الأسفل هناك»، قالت لي. نقرت بسبابتها على النافذة، فانطلقتُ باتجاه السلالم.

في الخارج بدا لي أن جميع سكان البناية كانوا محتشدين على شكل حلقات صغيرة ويتحادثون في فناء المبنى. طغى على المشهد منظر المناديل والعناق والماسكرا الذائبة. لمحتُ والديّ، وكانت راهيلا تتحرك داخل طيات بطانية بين ذراعي والدتي، فشعرتُ بالارتياح ثم ما لبثتُ أن شعرتُ بموجة من الغضب تجاههما لأنهما نسيا أمري.

- «أبي!» قلتُ له واضعة يدي حول ساقه.

وضع والدي يده على كتفي لكنه بقي منشغلا في النقاش مع أحد حراس الباب الرئيسي.

تسللتُ من قبضة والدي واندفعتُ شاقة طريقي إلى وسط الدائرة التي كوَّنها والداي والجيران. جرَّبتُ لفت انتباه والدتي هذه المرة، حيث شددتُ جيب مئزرها. كان وجودها في الخارج وهي ترتدي المئزر مؤشرا على حجم الأحداث التي جرتْ في ذلك الصباح؛ فهي ما كانت لترتديه أمام الناس حتى ولو على جثتها.

- «أمي!» قلتُ لها، وأنا أقف على رؤوس أصابعي. «لماذا تركتموني وحدي في الشقة؟» أضفتُ.

مرة أخرى لم ألقَ آذانا صاغية من أيّ من والديّ، لكنني علمتُ بالأخبار من خلال التمتمات الجماعية التي كانت تطوف أرجاء المكان، حيث كانت في بعض الأحيان تأتي متزامنة بشكل ولَّد فيما بينها انسجاما بدا للوهلة الأولى وكأنه متعمَّد.

- «لقد سقطت فوكوفار».

Twitter: @ketab_n

كان وقـع مثـل هـذه الهمسـة الكبيـرة مثيـرا للرعـب، وذلك انسجاما مع الرسالة التي تحملها. لقد سقطت فوكوفار.

كانت فوكوفار تحت الحصار منذ عدة أشهر. وكان الناس الذين سـكنوا مدينة الأسـلاك ويعيشـون الآن في الصحـراء، وأولادهم الذيـن انضمـوا إلى صفوفنـا ونحن فـي منتصف الدراسـة، قد خرجـوا منهـا بشـكل مبكِّر. كنا نعـرف قصص عائلاتهـم الذين اقتيدوا إلى معسكرات للمهجَّرين، ولم نسمع أخبارهم بعد ذلك، سـمعنا عـن أولئك الناس الذيـن قرروا البقاء، الرجال والنسـاء الذيـن يحملـون أسـلحة مـن صنـع أيديهـم ويوجهونهـا علـى الجيش الشعبي اليوغوسلافي من نوافذ غرف نومهم. لكنني لم أفهـم مـاذا كان يعني أن فوكوفار «قد سـقطت»، وحاولتُ التوصل إلى صورة مماثلة. في البداية فكَّرتُ بالزلزال، علما أنه لم يسبق لـي أن عايشـتُ تجربة الزلازل. ثـم تصوَّرتُ جروف تيسـكا، التي كنـا نمضـي فيها إجـازات الصيـف، وتخيلتُ أن سـفح الجبل قد تفتَّت وسـقط في البحر الأدرياتيكي. لكن فوكوفار لم تكن قرية صغيـرة، كما لـم تكن قريبة من البحـر. فقـد أدى الصاروخ الذي أصـاب قصر بانسـكي دفوري إلى انهيار قسـم مـن الجزء المرتفع من المدينة، لكن ذلك لم يكن يشكل سوى جزء صغير من زغرب. علمتُ حينها أن سقوط مدينة لابد أنه يعني شيئا أسوأ من ذلك بكثير.

بعـد برهـة بات واضحا أن تجمعات النـاس لم تكن ثابتة، بل كانت تتحرك في تدافع دائري حول شـيء لم أستطع رؤيته لأني لـم أكن أتمتع بالطول الكافي. وفـي نهاية المطاف خرجتْ دوامة البشـر تلك من فناء المبنى إلى الشـارع الرئيسي، حينذاك لمحتُ

Twitter: @ketab_n

الشيء الذي كان يشكل محور اهتمامهم؛ مجموعة من الرجال والأولاد الذين كانوا يرتجفون وقد استبد بهم الشعور بالخوف لدرجة أنه حتى أنا كنتُ أستطيع القول إنهم لاجئون. لقد بدوا يائسين أكثر من أولئك الذين شاهدناهم في جولتنا الأولى، فقد كان الذعر واضحا في عيونهم والضّوى باد على أجسادهم. كانوا يمسكون بقصاصات ورقية تحمل عناوين أنسبائهم أو أبناء عمومتهم أو أصدقاء عائلاتهم أو أي أحد يوجد لديه استعداد لإيوائهم، ووضعوها أمام أعين والديّ والجيران، حيث تبادلوا معهم كل المعلومات حول الاتجاهات الرئيسية التي يمكن أن توصلهم إلى منازل أقربائهم.

أمسك أحد رجال هذه الجماعة بزند والدي، ثم وضع عنوانه أمام أنف والدي ويده ترتعش. كان وجهه كئيبا، حيث استقرت أسفل عظام وجنتيه أغوارٌ خاوية.

- «إنهم يقتلونهم».
- «من؟» قال والدي، متأملا الورقة بحثا عن أدلة.
- «الجميع».
- « هل تود تناول بعض الحساء»، قالت له والدتي.

في داخل المنزل، على شاشة التلفاز، رأيتُ ما الذي يعنيه سقوط مدينة ما. كان التصوير أجنبيا. جميع الكروات في فوكوفار كانوا إما يحاربون وإما يتعرضون للاعتقال، وقد تمكنت شبكة الأخبار الكرواتية من التقاط برنامج ألماني، حيث كان المراسل يروي الأحداث باستخدام خليط من الأحرف الساكنة غير المألوفة. وكان البثُّ مباشرا في حين لم يكن الصوت المركّب على التقرير مرفقا بالترجمة. كما كانت الواجهات الإسمنتية

Twitter: @ketab_n

للمنازل مشوَّهة بسبب الرصاص وقذائف الهاون. أما دبابات الجيش الشعبي اليوغوسلافي فكانت تنطلق بسرعة في شوارع المدينة تتبعها قوافل شاحنات حفظ السلام البيضاء التابعة للأمم المتحدة. على جانب الطريق، في مكان ربما كان ذات يوم معشوشبا لكنه أصبح الآن مليئا بآثار الأقدام والطين، كانت هناك أرتال من البشر المنبطحين على الأرض ووجوههم متجهة إلى الأسفل، حيث كانت أنوفهم محشورة في التراب وأيديهم خلف رؤوسهم. كان هناك جندي ملتح يحمل رشاش AK-47 ويمشي بين تلك الأرتال. قام بإطلاق النار. في مكان ما، ثمة شخص كان يصرخ. ترتجف الكاميرا متجهة نحو الأعلى ثم تتجول بعيدا لتلتقط بدلا من ذلك صورة لبرج كنيسة وهو ينهار. دوّى الهدير الممل للانفجار البعيد عبر مكبرات الصوت الخاصة بالتلفزيون. وفي الخلفية كان المزيد من الرجال الملتحين الذين يرفعون رايات الجماجم السوداء ويجوبون ذلك الشارع الخالي مُردِّدين: «سيكون هناك لحوم؛ سيكون هناك لحوم. سوف نذبح جميع الكروات».

- «من فضلك أطفئ التلفاز»، قال الرجل.
- «دقيقة واحدة»، تمتم والدي.

في تلك اللحظة دخل لوقا فجأة إلى شقتنا، حيث استقرتْ مسكة الباب عند الانبعاج الذي كنتُ قد أحدثتُه.

- «آنا! لقد سقطت فوكوفار!».
- «أعلم ذلك»، قلتُ له.

أومأتُ له باتجاه التلفاز والرجل الجالس على الطاولة والذي كان يدير ظهره إلى الشاشة ويلتهم الحساء بنهم وسرعة

Twitter: @ketab_n

كبيرين، علما أن هذا الحساء كان حصة والدي على الغداء. أقحم يديه في جيوب بنطلونه الجينز ثم وقفنا نحن الأربعة حول التلفاز، وكل واحد منا يتأمل انفعالات الآخر حول المذبحة المعروضة على الشاشة.

- «هل تعلم والدتك أنك خرجت من المنزل؟» قالت له والدتي.

- «نعم»، قال لوقا على نحو سريع إلى حدّ ما. ثم أمسك بذراعي وسحبني باتجاه الباب.

- «ربما يتعين عليكما كليكما أن تبقيا هنا، سوف أعد لكم وجبة خفيفة».

- «أمي!» قلتُ لها مُسدلة كتفيّ احتجاجا.

كنتُ أعلم بأن لوقا قد جاء لأنه يعتبر تدنيس فوكوفار سببا وجيها للتغيب عن المدرسة، لكن فرصنا في مغادرة المنزل ستكون أفضل فيما لو تصرفنا وكأن شيئا لم يكن.

- «علينا أن نذهب إلى المدرسة»، قلتُ لها، ثم أضفتُ «سوف نتأخر».

لكن والدتي رفضت أن تصغي إلى شكواي وتجاهلتني، ثم راحت تخلط الحليب من أجل راهيلا. تسللتُ أنا ولوقا إلى غرفة الجلوس.

بعد أن التهم اللاجئ الحساء، وبما أنه كان يتوق للهروب من أمام التلفاز، فقد لحق بنا وجلس على الطرف الآخر للأريكة. كانت تغطي وجهه لحية خفيفة إلى جانب الطين، حيث كان قميصه ملطخا بالتراب الذي استقر أيضا تحت أظفاره. كان يجعلني أتوتر، وتمنيتُ لو أن والديّ يظهران اهتماما أكبر بضيفهما، بيد أنهما كانا مشغولين في محاولة جعل راهيلا

Twitter: @ketab_n

تأكل شيئا؛ وهي محاولة أصبحت في جوهرها عبارة عن إطعام قسري، دون أن يلاحظ أيٌّ منهما هذا التقصير.

- «لقد أخذ زوجتي. كان صراخها يصل إلى مسامعي عبر الجدار»، قال اللاجئ.

كنتُ أنا ولوقا ننظر إليه، ونخشى أن نتحرك من أماكننا.

- «كان يرتدي قلادة تتدلى منها آذان؛ آذانٌ فُصلت من رؤوس أصحابها»، أضاف.

وضع الرجل رأسه بين يديه وراح يضغط بأصابعه على أذنيه، كما لو أنه كان يريد أن يتأكد من أنهما ما زالتا موصولتين برأسه. اشتقتُ للذهاب إلى المدرسة. وبعد انتظار بدا طويلا بعض الشيء، أطلَّ والدي برأسه من مقربة منا.

- «ستعودين بعد انتهاء الدوام مباشرة؟» قال رافعا حاجبيه.

- «نعم»، قلتُ له معبِّرة عن استعدادي للقبول بتسوية مع أني لم أكن معتادة على حظر التجول.

- «اذهبي إذن».

انطلقنا من الأريكة تحت غطاء طقطقة الأواني ومشاهد انهيار المباني، حيث غمزنا أبي ونحن خارجَان من الباب.

عندما عدتُ إلى البيت من المدرسة كان اللاجئ قد غادر. لم يقل والداي أي شيء عن المكان الذي ذهب إليه، وأنا بدوري لم أسأل عن ذلك. عند غروب الشمس سرتُ برفقة أبي إلى زرينيفاك كي أنظر إلى عمود الطقس عند طرف الحديقة. كان أبي يرتدي سترة الميكانيكي الخاصة به، أما أنا فكنتُ ألبسُ معطفا ووشاحا، لكن الطقس كان معتدلا في نوفمبر، ولذلك لم يمضِ وقتٌ طويل حتى رحنا نفتح أزرار ملابسنا. أشار والدي إلى ميزان

Twitter: @ketab_n

الحـرارة وقرأ لــي مقياس الضغط الجوي ثـم حملني كي أتمكن من تلمس الغلاف الزجاجي الذي كان يحتوي على الإحصائيات الخاصة بمعدلات درجات الحرارة الموسمية ومقاييس الرياح.

- «ربما ستصبحين خبيرة أرصاد جوية عندما تكبرين»، قال والدي. «لكن يتعين عليكِ أن تجتهدي في الدراسة»، أضاف.

- «أجل يا أبي»، قلتُ له، لكن تفكيري كان في مكان آخر.

تسلقتُ حافة نافورة مجاورة، ثم أمسكتُ بيد والدي كي أتوازن وأنا أمشي حول حوض يحتوي على مياه راكدة.

- «ما الذي سيحدث لراهيلا؟» سألتُه.

- «إذا لم تتحسن حالتها فقد يتعين عليها أن تراجع طبيبا في مكان بعيد. لكنها ستكون بخير».

- «ما الذي سيحدث في عيد الميلاد؟».

كانت لا تزال تفصلنا عن هذه المناسبة مدة أكثر من شهر، لكن الشتاء كان دائما الفصل المفضل بالنسبة لي. فالساحة العامة في هذا الوقت تكون مزدانة بالأضواء الساحرة كما أنها تعج بالبائعين المتجولين الذين يبيعون الكستناء المشوية ضمن أكواز ورقية، في حين تكون طبقات الثلج متراكمة على شرفتنا كما في الشوارع الموجودة في الأسفل، إنها الأيام التي تغلق فيها المدارس أبوابها. كنتُ قد بلغتُ من العمر حدا يجعلني غير قادرة على الاعتقاد بحقيقة بابا نويل، لكنني كنتُ لا أزال أتوق إلى ترك حذائي على حافة النافذة لأستيقظ فيما بعد وأجد الهدايا موضوعة في داخله. لكن هذه السنة لم أكن متأكدة تماما من أن هذا سيحدث؛ ما من شيء كان يبدو في مأمن تام إزاء الغارات الجوية ومخزوننا الغذائي الآخذ في التناقص.

Twitter: @ketab_n

- ماذا تقصدين؟».

- «هل سنظل نحتفل به؟».

- «توجد لديكِ مخاوف كثيرة هذه الليلة»، قال والدي، ثم أمسك بطرف وشاحي ومرَّره برفق فوق وجهي، مدغدغا خدي.

- «هل جعلتِ ربطة الوشاح مشدودة أكثر مما ينبغي؟ بالطبع سنحتفل به!».

كان التحدث معه يجعلني أشعر بالتفاؤل بغض النظر عن موضوع المحادثة. كانت أمي تقول إننا، والدي وأنا، نمتلك طرق تفكير متشابهة. لم أفهم ما الذي تقصده إلا بعد أن استرجعت شريط ذكرياتنا فيما بعد؛ عندما كنا نحدق في السماء (وهو أمرٌ كنا نقوم به بشكل متكرر)، حيث كنا نستطيع الالتفات بشكل غير شعوري في نفس الاتجاه واستخلاص نفس شكل الوجه من الغيوم. وفي الحديقة كنتُ أضحك عندما كان أبي يحملني من حافة النافورة، حيث كنتُ نحيفة جدا بسبب قيادتي الدراجة الهوائية وقلة الطعام، ثم يضعني على كتفيه ليعود بي إلى المنزل.

كانت الكهرباء تخبو وتقوى على دفعات، يتزامن ذلك أحيانا مع وجود غارات جوية، لكن ذلك في أغلب الأحيان لم يكن مرتبطا بأي شيء على الإطلاق، بل هي مجرد نزوة عابرة لسلك كهربائي معطوب. وعندما كان يحدث ذلك خلال النهار، فإننا لم نكن نلاحظه في بداية الأمر. لكن مع بدء العتمة بالتسلل إلى داخل البيوت، فإنه عندما كان أحدنا يمد يده ليضيء مصباحا وسط أفول شمس ما بعد الظهر، كان يُمنى بخيبة الأمل. في نهاية المطاف اعتدنا على الوجود المتقطع للكهرباء،

Twitter: @ketab_n

حتى إننا بعد فترة لم نعد نجشّم أنفسنا عناء إضاءة الشموع التي جمعناها، بل روّضنا أنفسنا بدلا من ذلك على القيام بكل أنشطتنا وسط الظلام.

بعد ذلك انقطعت المياه. كنا قد مررنا بفترات انقطاع في السابق، لكننا بتنا نشهد الآن انقطاعات متكررة ولفترات أطول. وكان فتح الحنفية يؤدي إلى خروج رواسب نحاسية منها، إضافة إلى هسهسة غاضبة ناجمة عن ضغط الهواء.

في صباح أحد الأيام، وقبل الذهاب إلى المدرسة، أيقظتني والدتي مبكرا وأرسلتني إلى الباحة، حيث أعطتني عبوتين بلاستيكيتين كي أحضر بهما الماء من المضخة من أجل إعداد الحساء وللاستحمام. كان مسؤولو المدينة والكبار في السن يطلقون عليها اسم «مضخة البلدية»، كما لو أنها صُمِّمتْ من أجل هذا الغرض، لكنها كانت في الحقيقة عبارة عن صنبور لإطفاء الحريق مجهّز بمفتاح ربط وبعض الأنابيب من قبل أحد سكان البناية.

قمتُ بتعليق العبوتين من مسكتيهما في الفسحة الخرسانية الكائنة في الأسفل. كان الهواء باردا، لكن تلك البرودة كانت تفقد حدتها مع طلوع الشمس. لقد تحوّل المشهد إلى شيء مهجور؛ فجميع أكشاك الصحف والسجائر أُغلقتْ بوساطة ألواح خشبية، أما الرجل المسن فقد رحل مع قطع الشوكولا التي كان يبيعها، في حين كانت الطاولة القابلة للطي التي يستخدمها متروكة تتكئ على أحد جدران الزقاق. على الأقل هذه المضخة أحيت المكان مرة أخرى، ولو لبضع دقائق متواصلة في كل مرة. عندما وصلتُ إلى الزاوية وجدتُ أن معظم سكان البناية كانوا خارجين وفي حوزتهم مجموعة غير متناسقة من

Twitter: @ketab_n

العبوات، فبدأتُ أركض؛ إذ إن الماء غالبا ما كان ينفد من المضخة، ففي اليوم السابق كنتُ قد وصلتُ متأخرة ولذلك لم أحصل إلا على نصف عبوة من الماء. كانت عند المضخة فتاتان أعرفهما من المدرسة وقد لوَّحتا لي بيديهما كي أتجه نحو المقدمة.

- «لا تتجاوزي دورك في الطابور يا آنسة يوريتش!» صاحتْ في وجهي سيدة عجوز.

رددتُ عليها متذرِّعة بأن راهيلا مريضة ثم تابعتُ طريقي إلى الأمام للقاء الفتاتين. وعندما وصلتُ إلى هناك حدث تدفقٌ مفاجئ للماء وأصابني في صدري، حيث تسرَّب البلل إلى كامل أنحاء جسدي؛ إنها فييرا - الفتاة ذات الضفيرة المتدلية دائما من مؤخرة رأسها - حيث ضغطت بيدها على المحبس، فانبجس الماء من بين أصابعها مثل أشعة الشمس المحبوسة.

- «يا للبرودة!» صرختُ بعد أن كنتُ قد بدأت بالضحك.

قامت بتوجيه الماء نحو وجهي، حيث رحتُ أتلقاه في فمي وأضخه رذاذا نحو الأعلى مثل نافورة الملائكة الكائنة في زرينييفاك. أمسكتُ بالأنبوب وأدرتُه باتجاهها، موجهة إياه نحو ساقيها من الخلف. ثم دخلنا في نوبة ضحك هستيرية لدرجة أننا لم نكن نصدر أصواتا. نفد صبر السيدة العجوز، التي قدمت باتجاهنا وهي تتمايل، ملوِّحة بالعبوات البلاستيكية الفارغة التي أصابتني إحداها في رأسي.

- «اخرجي من هنا قبل أن أستدعي والدتك!» قالت السيدة.

«بل جميع أمهاتكن!» أضافت.

شعرتُ بالخجل، وملأتُ إحدى العبوتين اللتين في حوزتي على وجه السرعة ثم انطلقتُ باتجاه المنزل.

Twitter: @ketab_n

وعندما وصلتُ إلى المنزل وضعتْ والدتي يدها على خصرها، ثم بدأت بتفكيك خصلات الشعر المبللة التي كانت ملتصقة بوجهي.

- «هل كنتِ تقومين بإهدار الماء يا آنا؟».

- «هذا لم يكن خطئي. بعض الفتيات اللاتي أعرفهن من المدرسة قمن برش الماء عليّ»، قلتُ لها.

خيَّم الصمتُ بيننا، ثم تمتمتُ بكلمة آسفة كي أكسره.

- «لنأمل أن الجميع سيجدون ما يكفي من الماء كي يشربوا»، قالت لي.

بعد برهة ابتسمتْ قليلا وعادتْ مرة أخرى لتوضيب خصلات شعري.

- «على الأقل لم أعد بحاجة لكي أسخن لكِ بعض الماء. فها أنت قد استحممتِ»، أضافت.

ابتسمتُ أنا أيضا حينذاك وراقبتُها كيف سخَّنت الماء على الموقد ثم استحمتْ باستخدام ليفة وسط المطبخ. كان شعر والدتي يتمتع بلون كستنائي محروق، وعندما كانت تتحرك فإنه كان يزداد تألقا.

في تلك الليلة وصلتُ إلى المنزل قادمة من المدرسة لأجد والدي ووالدتي يقفان وجها لوجه ويحدقان في بعضهما. ثمة خطبٌ ما. كان أبي قد وصل إلى المنزل على نحو أبكر من المعتاد؛ وكانت قبضتاه مضمومتين. عندما فُتح الباب واصطدم بالجدار جفلا. استدارتْ والدتي كي تجفف دموعها. وبدأ والدي يضرب الأطباق والملاعق على الطاولة بقوة شديدة. أما والدتي فشغلت نفسها بوضع ملابس صغيرة -

Twitter: @ketab_n

كانت ذات يوم لي وأصبحت الآن ملك راهيلا - داخل حقيبة موجودة على الأرض.

- «راهيلا»، قلتُ.

بدا لي أن حركة والديّ تباطأت قليلا عند ذكر اسمها.

- «أين هي؟» أضفتُ.

- «إنها نائمة»، قالت والدتي.

لقد قاما بنقل مهدها إلى العتبة الفاصلة بين المطبخ وغرفة نومهما، فألقيتُ نظرة عليها. كان هناك الكثير من الدماء على البطانيات وعلى مقدمة قميصها. كان تنفسها ضعيفا.

- «ما الذي يجري؟».

- «الدواء غير مجد، ويجب أن ترحل».

- «إلى المستشفى؟».

- «ما من شيء يستطيعون فعله من أجلها هنا. هناك برنامج للنقل إلى خارج سارابيفو. سوف نأخذها غدا».

- «النقل إلى أين؟» قلتُ.

- «إلى أميركا».

نظرتُ حولي؛ لم تكن هناك حقائب أخرى، ولم تكن تلك الحقيبة تحتوي على ملابس للكبار.

- «وحدها؟».

- «إنه برنامج طبي. سيعتنون بها بشكل جيد»، قال والدي.

- «وحالما يتم الانتهاء من علاجها، فإنها ستعود إلى أرض الوطن مباشرة»، أضاف.

- «أريد أن أرافقكم إلى سارابيفو»، قلتُ.

- «لا»، قالت والدتي.

Twitter: @ketab_n

- «سنرى»، قال والدي.

ظل التيار الكهربائي يعمل لمدة ساعة أو اثنتين، فأجرى والدي سلسلة اتصالات، حيث كان يضع يده فوق السماعة على شكلِ كوب ليتمكن من توجيه صوته نظرا لرداءة الاتصالات. في البداية ظننتُ أنه يحاول التواصل مع منظمة ميدي ميشن، لكني لاحظتُ فيما بعد أنه كان يرسم خطوطا بدتْ أشبه بخريطة، ثم قام بطي الورقة ووضعها في جيبه الخلفي.

بعد العشاء وقعت غارة جوية عنيفة جدا أدتْ إلى ارتجاج نوافذ شقتنا، فاندفعتْ والدتي نحوي وأمسكتْ بي، حينذاك علمتُ أني أستطيع استمالتها كي تسمح لي بالذهاب.

- «هل أنهيتِ واجباتك؟» سألتني عندما عدنا من السرداب.

- «لستُ مضطرة لذلك لأنني لستُ ذاهبة إلى المدرسة يوم غد»، قلتُ لها محاولة إقناعها.

تنهَّدت والدتي.

- «أنا أيضا أريد أن أودِّعها»، أضفتُ.

- «من الأفضل لكِ أن تنامي إذن. سنستيقظ مبكرا».

استلقيتُ على الأريكة، وأنا أستمع لتحركات والديّ الخفيفة في أرجاء الشقة.

- «يجب ألا تذهب معنا»، قالت والدتي.

- «الطريق ليس آمنا»، أضافت.

- «ولا يوجد أمن هنا أيضا يا ديانا. ماذا لو حدث لها مكروه بينما نحن لسنا هنا؟ من الأفضل أن نبقى معا»، قال والدي.

بعد ذلك سمعتُ صوت ورقة مطوية تُفتح، فتذكَّرت الخطوط التي رسمها والدي.

Twitter: @ketab_n

- «ثـم انظـري هنـا. اتصلتُ بميرو وأعطاني آخـر المعلومات. سـيتعين علينـا أن نسـلك الطريق الطويـل. سـيكون خاليا من المخاطر. لكننا سنكون بخير»، أضاف.

حدقتُ في السقف متخيلة كيف ستكون الرحلة بين الجبال بواسطة الخريطة التي قدمها والد لوقا، وكيف سيقوم غريبٌ من منظمة ميدي ميشن بحمل راهيلا في المطار ونقلها إلى الطائرة ومرافقتهـا إلى أميركا. لم تكـن معلوماتي عن أميركا تتعدى ما سـبق لـي أن شـاهدتُه علـى التلفزيـون، والذي كان فـي معظمه عبـارة عن أفلام رعـاة بقر كان التلفزيـون الحكومي يبثها خلال سهرات يوم السبت. بدتْ لي الولايات المتحدة بلادا عجيبة مليئة بالممثلين الذين كانوا يعيشون على ماكدونالدز، وقد تساءلتُ عما إذا كانت راهيلا سـتعيش مع شـخص غني ومشـهور. في الأخبار كان هنـاك دائما رجـال يرتدون بدلات رسـمية ويوجهون نداءات للولايـات المتحدة كـي تتولى حمايتنا، لكن حتـى الآن لم يظهر أحـد. ربما كانوا بعيدين جدا عنا. نمتُ على نحو متقطع، حيث كان نومـي مـن النوع الذي لا يفقـد فيه النائم الاتصـال نهائيا مع عالم اليقظة، وبعد بضع سـاعات فقط، سمعتُ قرقعة حذاء والدتي بجانب أريكتي.

- «حان وقت الذهاب»، قالت والدتي.

شـعرتُ بثقل في يديَّ وذراعيَّ، كما واجهتُ صعوبة في ارتداء ملابسي، التي رحتُ أفتش عنها وسط ظلمة الصباح.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(7)

«أرجوك يا إيفان لا تسرع في القيادة. لسنا مضطرين لأن نعطيهم سببا كي يأمرونا بالتوقف» قالت والدتي وهي تضغط بيدها الطليقة على ركبة والدي.

في اليد الأخرى كانت تحضن راهيلا، التي أصبحت أضعف من أن تقوى حتى على البكاء. لم يكن الفجر قد بزغ على صفحة الأفق. كان الطقس باردا؛ وكانت النافذة الخلفية للسيارة عالقة على نحو نصف مفتوح، فأعطاني والدي سترته كي أستخدمها كبطانية. وكلما انعطف بالسيارة على نحو حاد، كانت حقيبة راهيلا تصطدم بساقي، بينما كانت والدتي تتوسله كي يخفف سرعته. وعند مرحلة معينة خلدتُ إلى النوم.

عندما استيقظتُ كانت الشمس ترسل أشعتها قوية من خلال الزجاج الأمامي المقلَّم، حيث كنا قد عبرنا الحدود نحو البوسنة. لافتات الطريق مكتوبة بالأبجديتين اللاتينية والسيريلية على حدّ سواء، وكان الطريق يلتف حول قواعد جبال الألب الدينارية على شكل لفيفة أفعوانية. كنا نسمي ذلك الطريق بالطريق السريع، مع أنه لم يكن كذلك في الحقيقة، فهو لم يكن مزودا بمصابيح شوارع، فضلا عن أنه في الأماكن الواقعة بين الوجهات الأبرز لم يكن يتكون من أكثر من حارتين.

Twitter: @ketab_n

البوسنة، مثل سائر المناطق البعيدة عن زغرب في كرواتيا، خالية من أي شيء؛ فقد كانت عبارة عن مساحات شاسعة من التربة الصخرية ما جعل حتى الأعشاب تبدو وكأنها تفضِّل لو أنها نبتت في مكان آخر. بين الحين والآخر كانت تظهر بعض التجمعات السكنية الإسمنتية لكنها بدت وكأنها تتلاشى على صفحة السماء شديدة السطوع أثناء مرورنا بجانبها مسرعين. في نهاية المطاف بدأت اللافتات تعرض لنا مسافات معقولة عن سارييفو: 75 و50 و25 كيلومترا.

«الله أكبر»، كان هذا صوت الأذان الذي سمعناه أثناء مرورنا بالقرب من أحد الجوامع الكائنة على أطراف العاصمة. لم يكن لدينا جوامع في زغرب، أو على الأقل لم يكن هناك جوامع موجودة بشكل علني، فأنزلتُ نافذة السيارة إلى الأسفل كي أسمح للإيقاعات السحرية لصوت المؤذن بأن تتسرب إلى داخلي. خلدتْ راهيلا إلى النوم خلال تلك المسافة المتبقية من الطريق، فمددتُ عنقي حول مسند الرأس لأراقب حركة صدرها أثناء الشهيق والزفير.

كانت سارايفو متوترة، فالترقب والقلق كانا شبه باديين عليها. الحرب لم تكن قد وصلت إلى البوسنة بعد، ولكن تلك الحالة من الضبابية التي تعيشها مدينةٌ تنتظر الحرب كانت مألوفة بالنسبة لي، مع أنها كانت أقرب إلى حلم أتذكره منها إلى مكان عشت فيه على أرض الواقع. مررنا في وسط المدينة، حيث كانت انحناءات قباب الجوامع والزوايا الحادة لناطحات السحاب اليوغوسلافية تشكِّل خط أفق متعرج. مع ذلك بدا أن هناك تشابها بين سارايفو وسكانها من جهة وسكان مدينة

Twitter: @ketab_n

زغرب من جهة أخرى، علما أن أهل ساراييفو كانوا أكثر مرحا إلى حدّ ما. لم تكن سوق ماركالي قد أصبحتْ مشؤومة بعد؛ وكان مبنى البرلمان ينتصب على شكل صندوق غليظ ومتين، علما أن الدماء التي ستُسفك هنا، وليس دماءنا نحن، هي التي ستلفت انتباه المجتمع الدولي في نهاية المطاف. عندما نظرتُ من النافذة الخلفية إلى أطفال بعمري يلعبون البايسبول في الشارع، تذكرتُ ألعاب الحرب لدينا والمشاجرات التي كانت تدور حول من سيركب دراجة المولد الكهربائي ثم تساءلتُ ما إذا كانت الأشياء، التي بتُّ أعتبرها عادية، هي في الحقيقة ليست طبيعية إلى هذا الحد.

كانت والدتي تتعقب بإصبعها الاتجاهات المرسومة على الورقة، في حين كان والدي يتنقل بين الشوارع الضيقة وفقا لتعليماتها.

- «هذا هو!» قالت فجأة، فأوقفَ والدي السيارة على الرصيف كي يفسح المجال للمارة في ذلك الشارع الضيق.

تعرَّفتُ على شعار ميدي ميشن بلونيه الأحمر والرمادي الصارخين، والذي كان مثبَّتا على مبنى خرساني يقع عند زاوية. أمسكتْ والدتي براهيلا وعبرت الشارع مسرعة دون أن تتأكد حتى من خلوه من السيارات.

- «أقفلي السيارة»، قال لي والدي وهو يرمي لي المفاتيح، ثم أحنى رأسه ليمر من باب صغير الحجم.

أعطت غرفة الانتظار انطباعا بأنها كانت ذات يوم غرفة من نوع مختلف حيث أعيد ترتيب ديكورها على وجه السرعة لكي تبدو كعيادة طبيب. كانت السجادة متَّسخة، أما الكسوة

Twitter: @ketab_n

البلاستيكية للكراسي فكانت قاسية ومتشققة. كانت تفوح منها رائحة المعقِّم والفاكهة المتعفنة. مع ذلك كانت تبدو رسمية أكثر من تلك العيادة التي زرناها في سلوفينيا والتي كانت في الأساس عبارة عن غرفة جلوس، فضلا عن أن هذا الجانب الرسمي كان يبعث على الارتياح. لكن راهيلا كانت ترتجف من الحمى في تلك اللحظة، فأخذتها إحدى الممرضات من والدتي وأدخلتها إلى غرفة للفحص. بعد ذلك مباشرة ظهرت من الجزء الخلفي الدكتورة كارسون بأسنانها التي لا يُطاق بياضها ومعطفها الذي لا يقل بياضا وأرشدتنا نحو الداخل.

- «أنا سعيدة بلقائكم للمرة الثانية»، قالت لنا. لم يرد عليها أحد.

عندما وصلنا إلى غرفتها، كانت راهيلا مقيَّدة إلى طاولة فحص خاصة بالأطفال الرضع، وكان هناك أنبوب بلاستيكي موصول بأنفها وآخر بقدمها. كان صدرها وفمها يتحركان كما لو أنها كانت تبكي، لكنه لم يكن يصدر عنها سوى الصدى الأضعف لما بدا أنه صرخة مدوية. مزَّقتُ قطعة من زاوية الورقة التي تغطي طاولة الفحص ثم رحتُ أعصرها حتى تحولت إلى شكل كروي.

- «حسنا، دعونا نقلبها على الجانب الآخر»، قالت الممرضة.

- «ما الذي يجري؟» قالت والدتي.

أدارت الممرضةُ راهيلا ووضعتها على بطنها، ثم أعادت ربط الأحزمة لتقييد ذراعيها وساقيها.

- «يجب أن نجري لها عملية بزل قطني للتأكد مما إذا كانت مصابة بعدوى بكتيرية»، قالت الدكتورة كارسون بلغة كرواتية

Twitter: @ketab_n

جامدة مع أنه طرأ عليها تحسن كبير.

لبست قفازيها المطاطيين، وكانت هناك إبرة طويلة تلمع على صينيّة موجودة بجوارها.

- «بزل قطني؟» قالت والدتي. «هل ستضعين تلك في عمودها الفقري؟» أضافت.

اندفعت باتجاه راهيلا، لكن والدي أمسكها من معصمها وأسندها بقوة على الجدار، هامسا لها ببعض الأشياء التي لم أستطع سماعها.

بدأت والدتي تصرخ. كانت مشاهدة الإبرة أسهل إلى حدّ ما. فتحتُ الورقة المثنية ثم مزقتها إربا، وتركتُ فُتاتها يتساقط على الأرض.

أجبر والدي والدتي على الجلوس في الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة. أعاد الأطباء وضع راهيلا على ظهرها وحقنوها بمضاد للألم، ثم أعطوها مصاصة مطاطية. بدتْ مرتاحة لأول مرة منذ أشهر.

- «حسنا إذن»، قالت الدكتورة كارسون، واضعة إحدى يديها على كتف والدتي.

للحظة ما تهيأ لي أني رأيتُ على وجه الدكتورة مسحة حزن، لكنها ما لبثت أن تلاشت على الفور.

- «هذه هي الاستمارات الخاصة بنقل راهيلا إلى مستشفى الأطفال في فيلادلفيا. يوجد لديهم بعض أفضل الاختصاصيين في العالم في الفشل الكلوي عند الأطفال. سننقلها على متن الطائرة حالما تستقر حالتها»، قالت الدكتورة كارسون وهي تشير إلى المجموعة الثانية من بين مجموعتين من الأوراق الموجودة

Twitter: @ketab_n

على المكتب. «وهذه استمارات موافقة الأسرة الحاضنة»، أضافت.

نظر والدي إلى الأعلى ونظرت والدتي إلى الأسفل.

- «عائلة حاضنة؟» قال والدي.

- «ما الذي تتحدث عنه يا ديانا؟» أضاف.

خشخشت الدكتورة ببعض القطع النقدية الموجودة في جيب معطفها الأبيض.

- «أبلغتني زوجتك بأنه تم رفض تأشيراتكم، أليس كذلك؟» قالت الدكتورة ثم توقفت لتعطيه المجال كي يؤكد صحة تلك المعلومة. لم يفعل.

- «سيتم إدخال راهيلا إلى المستشفى فور وصولها، حيث ستوضع ضمن وحدة عناية مشدَّدة»، قالت الدكتورة كارسون، التي كانت وتيرة كلامها تزداد سرعة في هذه اللحظة، مستخدمة النبرة الأكثر احترافية من بين سلسلة النبرات التي سمعناها تتكلم بها حتى الآن.

- «على أية حال، بعد الانتهاء من الرعاية الانتقالية العاجلة، هناك قسم خاص بعلاج مرضى العيادات الخارجية من أجل إجراء عمليات غسيل الكلى والفحوصات بشكل أسبوعي».

- «مرضى العيادات الخارجية؟» قال والدي.

- «سوف تبقى راهيلا مع عائلة حاضنة متطوِّعة خلال المرحلة الانتقالية العاجلة إلى أن يكتمل برنامجها في المستشفى. اطمئنْ؛ تخضع جميع العائلات الحاضنة لاختبار من قبل ميدي ميشن للتأكد من تلبيتها شروط السلامة..».

- «كنتُ أعتقد أنكم ستعالجونها! تعالجونها وترسلونها إلى وطنها!» قال والدي.

Twitter: @ketab_n

الوريـد الكائـن فـي رقبة والـدي، والذي كان يشـير عادة إلى أننـي ارتكبتُ خطأ ما وأنني سـأحصل علـى نصيبي من الضرب بالحزام، انتفخ على نحو خطير وبدأ ينبض بالتناغم مع ضربات قلبه. ابتعدتُ عنه بشـكل غريزي، لكن كل هذا الغضب والشـعور بالإحبـاط تم اختصاره في دمعة واحدة انهالت فوق خده. كانت تلك المرة الوحيدة التي رأيتُه فيها يبكي.

- «حتى إنني لا أستطيع رعاية أبنائي»، قال لها.

حاولـت الدكتـورة كارسـون أن تبتسـم له ابتسـامة مُطمئنة، لكنها فشلت في ذلك.

- «أنـتَ تهتـم بهـا، إنهـا الطريقـة الوحيـدة التـي يمكـن أن تتحسن بها حالة راهيلا»، قالت له.

- «اغربي عن وجهي»، قال والدي.

- «سـوف أنتظر في الخارج لكـي تتمكنوا من توديعها»، قالت الدكتورة.

نظرتُ إلى أختي مليا. كانت هادئة هذه المرة، نظراتها جامدة وبدت إما مستغرقة في التفكير وإما بعيدة في مكان آخر، كما لو أنها قد عبرت المحيط فعلا. تمنيتُ لو أنني كنتُ أعرف المزيد عنها والقليل عن أنماط مرضها. كانت صغيرة جدا ومنشـغلة جدا في صـراع البقـاء على قيد الحيـاة لدرجة أننا لم نحـظَ بفرصة كي نكون مثل أي شقيقات أخريات، لكنّ يديها كانتا متوافقتين تماما مـع يـديَّ. دعوتُ بأن تكـون عائلتها الحاضنة فـي أميركا لطيفة معها، وأن تحكي لها قصصا وتأخذها إلى الحديقة وتغني لها.

- «إلى اللقاء في وقت قريب يا صغيرتي»، قالت والدتي مرارا وتكرارا.

Twitter: @ketab_n

أمـا والـدي فوضـع يده علـى رأس راهيلا، ومـرَّرَ أصابعه بين خصلات شعرها السوداء التي كانت قد بدأت تتجعد وتلتف.

- «عندما تعودين سوف أُعلمك كل شيء»، همستُ لها.

- «سأعلمك كيفية المشي والتحدث واستخدام الألوان وركوب الدراجة. وسوف يكون كل شيء على ما يُرام»، أضفتُ.

فـي الخـارج كانـت والدتي تنتحب بشـدة لدرجـة أنها داخت واضطـرت للجلوس علـى الرصيف. جلس والـدي بجانبها وراح يفرك ظهرها.

- «أنـا آسـفة لأني لم أخبرك بالأمر مـن قبل»، قالت والدتي. «لـم أكـن أريـدك أن تقلق. هـذا أفضل شـيء يمكننا القيـام به» أضافتْ.

وعندما اسـتقر تنفسـها ركبنا السـيارة وانطلقنـا إلى خارج المدينة.

عنـد نقطـة مراقبـة الحـدود تولّـى حـارس موفـور الصحة التدقيـق على أوراقنا بفتور، حيث بدأ الشـك يدخل إليه عندما رأى صورة راهيلا. لم يكن للأطفال جوازات سفر مستقلة، فقط صفحات داخل جوازات أمهاتهم.

- «وماذا عن ابنتك؟» سأل.

- «إنهـا برفقـة جدتها»، قال والدي. كانـت جدتاي متوفيتين منذ عقد من الزمن، ومع أنني كنتُ أعلم أنها مجرد كذبة تهدف إلى تبسيط الأمور، فإنه لم تعجبني مضامينها. أعاد الحارس لنا جوازاتنـا مـن خلال النافذة، فقام والدي بلـف الحلقة المطاطية حولها بإحكام ثم مدَّ يده فوق حضن والدتي ليتمكن من وضعها في حجرة القفازات. لوَّح لنا الحارس بيده كي نجتاز المعبر.

Twitter: @ketab_n

انطلقنا بالسيارة وسط صمت لا يُطاق. كنتُ أتمنى الخروج من تلك الحالة عبر الاستماع للموسيقى حتى لو كانت محطات البث مشوشة، أو ربما الإصغاء للبرامج الحوارية عبر الراديو. عندما فكّرتُ براهيلا وهي في طريقها إلى أميركا انتابتني عاطفة مفاجئة، وهي الشعور بالارتياح. وعندما أدركتُ ذلك الشعور، أحسستُ بالعار. ما مشكلتي؟ كان يُفترض بي أن أكون حزينة. أجبرتُ عينيَّ على أن تغمضا علّها تُخرج دمعة، وبالفعل حصلتُ على دمعة أو اثنتين قبل أن أشعر بألم شديد في جبيني ناجم عن شدة الإطباق بين الجفنين.

- «أمي، أريد بعض الماء»، قلتُ والسبب في ذلك يعود في جزء منه إلى الصداع الذي كنتُ أشعر به وفي جزئه الآخر إلى الرغبة في الاستئثار بانتباه والديّ، الذي أصبح أمرا بعيد المنال بعد ولادة راهيلا.

تنهدتْ والدتي واستدارت كي تنظر إلي، كان وجهها منقبضا من الألم لدرجة أنني أردتُ أن أقول لها: لا تكترثي لي، أنا بخير. لكن والدي، الذي بدا كما لو أنه كان ينتظر مبررا لكي يتوقف، فقد اتجه نحو محطة وقود مهجورة. كانت هناك قطعة كبيرة من الخشب المضغوط منحوتة على شكل سهم ومثبّتة على المضخات المهملة. وقد كُتبت عليها عبارة «موقف شاحنات» بقلم تخطيط لا يُمحى حبره وبخط رديء ينم عن قلة ممارسة الكتابة.

مررنا بمرآب لإصلاح السيارات، كانت أبوابه منزوعة وتعلو جدرانه الرسوم والكتابات، ثم دخلنا موقفا للسيارات تابعا لبناية كُتبت عليها كلمة «مطعم» بخطّ أفضل بقليل من الخط المستخدم في كتابة اللافتة السابقة. كان البناءُ ريفيا؛ فالخشب

Twitter: @ketab_n

ملطخ باللون الأسود، لكنه ظل محافظا على مواصفاته الشجرية، كالانحناء غير المثالي للجذوع، ووجود العقد والدوّارات الحلزونية على الألواح الخشبية غير المصقولة.

في الداخل كانت هناك غرفة واحدة مسقوفة بعوارض خشبية عالية ومجهزة بطاولات خاصة بالنزهات. ذهبنا باتجاه طاولة مصممة على طريقة طاولات الكافتيريا وأخذنا بعض الصينيات برتقالية اللون ولفائف من الآنية القصديرية المطلية بالفضة. لم تكن هناك قائمة طعام، فقط بعض القدور التي يتصاعد منها البخار والتي كانت جاهزة للتقديم. ظهرت سيدة من الناحية الخلفية ونظرت إلينا بحذر.

- «كيف وصلتم إلى هنا من هذا الطريق؟» سألتْ.

- «ماذا تقصدين؟» قال والدي، ثم أضاف «أليس مطعمكم مفتوحا؟».

- «هذا المكان يكون دائما مكتظا عند العشاء. لا بد أن الشوارع مغلقة».

- «أتينا من زغرب إلى ساراييفو، والآن نحن في طريق العودة. كانت مفتوحة».

- «لا بد أنها مغلقة» قالت لنا، ثم أومأت باتجاه الصينيات التي في حوزتنا.

ناولناها الصينيات، فوضعت فيها أطباقا من حساء الفاصولياء الكثيف وقطع الخبز. وإلى جانب صندوق الحساب، كانت هناك أكواب زجاجية سميكة من اللبن الرائب، وكانت تلك الأكواب متعرِّقة ما خلَّف بقعا من البلل على مجموعة المناديل الموجودة بجوارها.

Twitter: @ketab_n

- «وثلاثة من هذا»، قال والدي، مشيرا نحو شراب اللبن.
- «لا أريد أيا منه، طعمه لاذع»، قلتُ له.
- «إنـه مفيدٌ لك»، قال لـي، واضعا الكـوب المخصص لي في صينيته.

فـي المنزل كانت والدتي دائما تطبـخ، وكانت هذه المرة الأولى التي أتذكر أننا نذهب فيها إلى مطعم. أكلتُ بنهم، حيث غمستُ حبـات الفاصولياء بالخبز الذي فـي حوزتي، حتى إنني التهمتُ اللـبن ذا الطعـم الـلاذع فـي النهاية. أمـا والدتي فإنهـا لم تأكل شيئا.

- «هل تعتقد أن الطرقات مغلقة حقا؟» سألته والدتي عندما عدنا إلى السيارة.
- «كنـا هناك فقط منذ بضع سـاعات»، قـال والدي، مع أنني لمحتُه ينظر إلى ساعته، ثم أضاف، «ستكون الأمور بخير».

سـرنا بالسـيارة مسافة ساعة، ثم سـاعتين، واجتزنا اللافتات التي تحمل اسم كنين وإيرفنيك. مرت شاحنة صغيرة في الحارة المقابلة وأومأت لنا بالأضواء الأمامية.

- «خفف السرعة، لا بد أن هناك شرطة»، قالت والدتي.

توقَّفَ والدي، ثم ظهرت سيارة أخرى، كانت تسير بسرعة أكبر مطلقة بوقها على نحو متواصل أثناء مرورها بجانبنا.

- «ربما يجدر بنا أن نعود»، قالت والدتي.
- «ليس هناك متسع في الطريق لأقوم بالانعطاف والعودة»، قـال والدي وهو ينظر حوله. لكن عندما اسـتدرنا عند المنعطف ظهر لنا الحاجز.
- «اللعنة، اللعنة!».

Twitter: @ketab_n

رفعتُ نفسي وأسندتُ رأسي على الجزء العلوي من مقعد السائق كي تمكن من الرؤية بشكل أفضل. مجموعة من الرجال الملتحين كانوا يقفون في الشارع يتحدثون ويضحكون، ويرتدون زيا غير متطابق ويحملون أحزمة ذخيرة توضع على الأكتاف ويضعون على أذرعهم لوحات تحمل صورة السيف والجمجمة. قطعوا شجرة كبيرة أدت إلى منع المرور في الجهة الخاصة بنا من الطريق. أما الجهة الأخرى فكانت مغلقة بأكياس الرمل.

- «ألا نستطيع المرور؟» قالت والدتي. «قل لهم إننا فقط نريد الوصول إلى منزلنا»، أضافتْ.

كان هناك رجلان يقفان على مسافة من المجموعة، ويشيران نحونا على نحو غير واضح.

- «اللعنة».

- «حسنا، توقف وحسب».

- «ما الذي يحدث يا أمي؟» قلتُ.

- «لا شيء حبيبتي، فقط يتعين علينا أن نتوقف لدقيقة».

- «أمي..».

- «فقط اجلسي يا آنا».

فتح والدي النافذة عندما تقدم أحد الجنود مترنِّحا نحو السيارة. كان البريق المنبعث من عينيه يعادل أشعة الشمس المنعكسة من زجاجة الفودكا التي كان يحملها. وفي يده الأخرى كان يحمل رشاش AK-47. وكان هناك ختم سوفييتي يغطي أخمص الرشاش، حيث بدت المرات التي رسمها الحبر قبل أن يجف أشبه بالمسارات التي ترسمها الدموع.

- «هل هناك مشكلة؟» سأل والدي.

Twitter: @ketab_n

- «أريد هوياتكم»، قال الجندي بتثاقل.

ابيضَّ وجها والديّ بينما راحت والدتي تبحث في مقصورة القفازات عن جوازات سفرنا. كان التفريط في هوياتنا سيزوِّد الجندي بأقوى سلاح ضدنا، وهو معرفة أسمائنا، وبخاصة الاسم الأخير الذي يحمل ثقل النسب والعرق.

- «يوجد معنا طفلة»، قال والدي، ثم أضاف «نحن ذاهبون إلى منزلنا وحسب».

- «يوريتش؟» قرأ الجندي الاسم بصوت عال.

التزم والداي الصمت. عدَّل الجندي وضع بندقيته ونظر بعيدا.

- «إنهم كرواتيون»، صاح وكأنه يستشعر الخطر، «كرواتيون، كرواتيون!».

وعلى الرغم من سكره الشديد، فإنه نجح في إضفاء نبرة واضحة من الشعور بالاشمئزاز. اقترب جندي آخر وضغط بالبندقية على الجزء الطري من رقبة والدي.

- «اخرجوا جميعا»، قال، ثم التفت إلى بقية الرجال وقال لهم: «أحضروا الآخرين».

- «أمي! إلى أين نحن..؟».

- «لا أعلم يا آنا. التزمي الهدوء وحسب. ربما يريدون تفتيشنا».

تمايلت السيارة على مخمِّدات الصدمات المتآكلة فيها أثناء ترجلنا منها. تشكَّل طابورٌ من السيارات على جانب الطريق. وعلى مسافة منا كانت هناك مجموعةٌ من السجناء المدنيين الذين يقفون على بقعة من العشب المسفوع بأشعة الشمس،

Twitter: @ketab_n

حيث كان القلق باديا عليهم وهم يحرِّكون أجسادهم جماعيا كي يريحوا أنفسهم من عناء الوقوف. حدقتُ بهم وحاولتُ أن أستدرج واحدا منهم كي يبادلني النظرات، لكن دون جدوى. ولم أستيقظ من نوبة التحديق تلك إلا عندما حشرَ أحدهم بندقيته في ظهري محدثا صدمة مؤلمة في عمودي الفقري.

- «أبي!» ناديتُ لوالدي عندما قام الجندي بوضع لفة سميكة من الأسلاك الشائكة حول معصميّ.

أطلق الجندي ضحكة مصحوبة بدفقة من أنفاسه التي تخرج منها رائحة الكحول. بدأتْ أمواج اللبن الرائب تضرب على جدران معدتي.

- «تبا لكم! تبا لكم جميعا!» كان والدي يصيح، وهو يصارع الأصفاد الموضوعة في يديه.

قام الجندي الواقف خلفه بضربه بسبطانة رشاشه على ركبته من الخلف، فالتفَّت ساق والدي بطريقة ما كان ينبغي لها أن تلتف بها. بدأ الدم يسيل على الجزء الخلفي من بنطلونه. هنا التزمَ الهدوء.

ذهبتُ إليه وأسندتُ رأسي على خاصرته، ومددتُ يدي بشكل لا شعوري نحو يده، لكن الأسلاك الملفوفة حول معصميّ انغرزت في اللحم.

- «سنكون بخير»، قال لي، بصوت هادئ هذه المرة.

- «فقط لا تبتعدي عنا»، أضاف.

إلى جانبه، كانت والدتي ترتجف قليلا، مع أنها كانت ترتدي معطفها. كنتُ قد تركتُ سترتي في السيارة، لكنني إلى حد ما لم أكن أشعر بالبرد.

Twitter: @ketab_n

إدراكي بأن والديّ كانا يشعران أيضا بالألم والخوف أخافني أكثر مما أخافني أيٌّ من أولئك الغرباء. بدأت الأفكار الناجمة عن الشعور بالذعر تتدفق إليّ كتدفق مياه النهر؛ سيأخذون سيارتنا، وسنتعرض للضرب، وسيرسلوننا إلى معسكرات الاعتقال. ساقونا حتى انضممنا إلى مجموعة السجناء الآخرين؛ كانوا سلسلة من الرجال الذين يرتدون زي الرسّامين بينما ترتسم على وجوههم ملامح خالية من أي أحاسيس، وكان هناك مراهقان يحاولان ملامسة بعضهما بعضا ثم يحجمان عندما تنغرس الأسلاك في جلدهما، كما كانت هناك سيدة يسيل الدم على فخذها ورجل مسن بلحية خفيفة بيضاء يجرجر قدميه اللتين يرتدي فيهما حذاء طبيا أسود. وكان هناك آخرون.

- «هيا! دعونا نذهب!» صاح قائد الجنود، الذي راح يسير مترنحا نحو الغابة المحاذية للشارع.

ركزتُ اهتمامي على عدم تحريكِ معصميّ تحت الأسلاك، وراقبتُ قدميّ وهما تغوصان في الدغل مع كل خطوة. أنا ابنة مدينة خرسانية، ولم يسبق لي أن ذهبتُ إلى غابة. كانت الغابة باردة وتنبعث منها رائحة الرطوبة الشديدة مثل سرداب بناياتنا الشاهقة. بدا لي أن الدغل المتسلِّق يتشبث بأعلى حذائي. تذكَّرتُ ستريبور ومملكته وتمنيتُ الحصول على إيماءة سحرية من داخل شجرة سنديان مجوَّفة كي تؤمِّن لنا طريق هروب إعجازي. وبعد أن توغلنا عميقا داخل الغابة، ابتلعت الظلال ضوء شمس الظهيرة.

- «أبي»، قلتُ بصوت هامس، ثم أضفتُ «لماذا يوجد ظلام شديد هنا؟».

Twitter: @ketab_n

لكن المجموعة توقفتْ ولم يُجبْ. وصلنا إلى فرجة كانت فيها أرض الغابة مرصوصة بقوة تحت أعقاب الأحذية العسكرية لدرجة أن النباتات اختفت من المكان، الذي لم يكن يحتوي إلا على التراب وجوز البلوط المتعفِّن. كانت توجد أمامنا بقايا نار منطفئة وحفرة كبيرة في الأرض.

في مكان ما خلفي كان أحدهم يصيح. فقد حاول أحد الرسامين الهرب باتجاه الطريق، لكن حركته كانت غير متوازنة نظرا لأن يديه كانتا مقيدتين خلف ظهره. فأمسك به أحد الجنود على الفور، وبعد أن وجَّه له ضربة بالبندقية على ساقيه، جثا الرجل على ركبتيه. بعد ذلك سحبه الجندي من شعره، محركا رأسه من جهة إلى أخرى بدرجة ميلان غير طبيعية قبل أن يتركه يهوي مرة أخرى على الأرض. استلقى الرجل وسط القذارة، وقام الجندي بتنظيف يده من كتلة شعر علقت بها قبل أن يوجه عقب بندقيته ويسدد ضربة سريعة على مؤخرة رأس الرجل. وكانت النتيجة تدفقا غزيرا للدم وحدوث انبعاج في المكان الذي كان يوجد فيه عظم.

- «أمنْ أحد آخر غيره؟» قال الجندي، الذي كان لون أسنانه بنّيا.

أوقفَنا الجنودُ في صفّ منفرد، حيث كانوا يدفعون هذا ويلكمون ذاك. وفي حال عجز أحدنا عن التحرك بالسرعة المطلوبة، كانوا يضربونه بالهراوة. وقد جعلوا الصف مقوسا لكي يتطابق بشكل تام مع فوهة الحفرة.

في المرة الأولى، لم يكن الصوت الذي خرج من الرشّاش يشبه صوت إطلاق الرصاص، بل كان أشبه بصوتِ ضحكة ما.

Twitter: @ketab_n

كان هناك شهيقٌ موحَّدٌ مع انهيار أولى الضحايا وسقوطه أسفل الهوة. خلال الثواني القليلة - بل حتى الدقيقة - التالية لم يحدث شيء. ثم خرجت طلقة أخرى، فهوى الرجل الذي كان بجانبه، وهذا كان أيضا من بين الرسامين.

مشاهدة مقتل هذين الرجلين علَّم من كان لا يزال منا على قيد الحياة أمرين؛ الأول أنهم سيقومون بهذا الأمر على نحو بطيء، والثاني أنهم سينفِّذونه بالترتيب من اليسار إلى اليمين. لم تكن هذه هي الطريقة الأكفأ في إعدام الناس، لكنها أيضا لم تكن الطريقة الأقل كفاءة. لقد كان ذلك بمثابة تدريب على إصابة الأهداف بالنسبة للمتطوعين الجدد. كانت العملية بطيئة بما يكفي لجعل السجناء يتلوون من الذعر. لم تكن فوضوية، ربما كانت دموية. لكنهم بمجرد سقوطهم في الحفرة، فإنهم يصبحون شبه مدفونين سلفا.

نظر والدي إليّ، ثم إلى والدتي التي كانت على يساره. كان فمه ملتويا عندما أشاح بوجهه متوقفا عن التحديق في عينيها، ثم تحدَّث إلي بهمس حاد.

- «آنا، آنا! اسمعيني (صوت طلقة) سوف نلعب لعبة، حسنا؟ سوف نخدع الحراس (صوت طلقة) إنهم ثملون، سيكون الأمر سهلا إن ركَّزتِ انتباهك، كل ما عليك فعله هو أن تبقي قريبة مني، قريبة جدا (صوت طلقة) وعندما أسقطُ في الحفرة، تسقطين في الوقت ذاته. فقط أغمضي عينيك واجعلي جسدك مستقيما (صوت طلقة) لكن ذلك لن يكون مجديا ما لم نسقط معا في الوقت ذاته، حسنا؟ (صوت طلقة) أتفهمين؟ إياكِ! إياكِ أن تنظري إلي».

Twitter: @ketab_n

لم أفهم ما الذي يجري حقا، وكيف يمكننا أن نخدع الحراس كي لا يطلقوا النار علينا. لكن والدي بدا متأكدا أننا إذا سقطنا معا في الوقت ذاته، فإننا سنكون بخير، وقد كان دائما على حق.

- «هل ستسقط أمي معنا أيضا؟» سألتُه على وقع صوت طلقة.

- «لا، هي..». تهدَّج صوتُ والدي. «هي ستسقط أولا»، أضاف.

نظرتُ إلى والدتي، وراقبتُ والدي وهو ينظر إليها، كما لو أن شيئا في سواد عينيه قد انطفأ.

- «آنا!» كانت صوت والدي الهامس هذه المرة أكثر شراسة، لقد كان مسعورا.

- «استمعي! حالما نسقط يتحتم علينا البقاء في حالة سكون تام إلى أن تهدأ الأمور فوقنا. بعد ذلك نخرج معا. حسنا؟ فقط تذكري..».

صوتُ طلقة أخرى. ترنَّحتْ والدتي على حافة تلك الفجوة الطينية. ظهرت بقعةٌ قرمزية عند زاوية شفتها، ثم تدفقت إلى أسفل ذقنها. بدت وكأنها تحلق هناك، كما لو أنها قفزتْ عمدا، حيث كان ارتطامها بالأرض هادئا وغير مصحوب بصوت الخبطة التي رافقت من سقطوا قبلها.

ألفيتُ نفسي أصرخ عندما أدركتُ ما الذي حدث. صوتُ طلقة أخرى، كان لها صدى هذه المرة. انتظرتُ، وراقبتُ والدي، ثم حبستُ أنفاسي وسقطتُ.

كانت الحفرة مظلمة ورطبة وتصدر منها رائحة تشبه رائحة البول والتعرق. أدرتُ وجهي إلى الجهة الجانبية لكي أستطيع أن أتنفس. شيءٌ ثقيلٌ نزل على ساقيّ. لكني شعرتُ بأني بعيدة

Twitter: @ketab_n

عن جسدي وعاجزة عن الحركة. ركَّزتُ انتباهي فقط على زاوية قميصي الذي تشرَّبَ دماء الناس الآخرين بعد أن كان يتمتع بلون أبيض في السابق. كنتُ أعتقد أن جميع اللغات عبارة عن شيفرات، وأنك عندما تتعلم أبجدية لغة أخرى فإنك تستطيع تحويل كلماتها الأجنبية إلى لغتك الأم، إلى شيء قابل للإدراك. لكن الدم شكَّل ما يشبه خريطة للاستيعاب وفجأة فهمتُ تلك الاختلافات. فهمتُ كيف أنَّ عائلة قد ينتهي بها الأمر في باطن الأرض وكيف يُسمح لعائلة أخرى بالمضي في حال سبيلها، وأن الفارق بين الصرب والكروات أكبر بكثير من طرق كتابة الأحرف. فهمتُ عمليات القصف، والجلوس خلال فترات بعض الظهر على أرض شقتنا بينما القماش الأسود يغطي النوافذ، كما فهمتُ الليالي التي أمضيتُها في الغرف الخرسانية. فهمتُ أن والدي لن ينهض. لذلك انتظرتُ وأنا أشعر بخفة ودوار في رأسي وثقل في جفنيّ، ثم صحوتُ على الرائحة النتنة للخوف الذي انتهت صلاحيته وعلى بدايات التحلل.

- «لا تشغل نفسك بالأمر. سوف نحضر جرافة من أوبروفاك»، قال قائد الجنود.

كانت البرودة قد أخذت تدب في الجثث الملقاة حولي، حيث بدأت تكتسب ملمسا كملمس المعجون الذي يتسم به الجسد الميت. كانت ضربات قلبي تدوّي في أذنيَّ، والذعر يتدفق في عنقي. لكن الجنود أطاعوا الأوامر، حيث بقيتُ منصتة إلى أن اختفى وقع خطواتهم وأصداء وقعها، وبقيتُ بلا حركة إلى أن أقنعتُ نفسي بأني سمعتُهم يشغِّلون سيارات الجيب الخاصة بهم.

Twitter: @ketab_n

- «أبي»، قلتُ.

كنتُ أعلم مسبقا، لكنني اقتربتُ منه أكثر، حتى ارتطم كتفي بكتفه.

- «استيقظْ»، أضفتُ.

كانت عيناه مغلقتين بإحكام شديد، كما لو أنه كان يعدُّ الأرقام في إحدى جولات لعبة الغميضة. لكن كانت هناك دماء على رقبته وشفتيه وفي داخل أذنيه.

- «استيقظْ»، قلتُ له.

كان من المستحيل بالنسبة لي أن آخذ نفسا عميقا. حاولتُ أن أتحرك، لكن ساقيَّ كانتا عالقتين تحت ساق الشخص الذي سقط بجانبي، وهو ولد مراهق كان الجزء الخلفي من رأسه مفقودا. كان جسده ثقيل الوزن وهو ما زاد الطين بلَّة. كنتُ متأكدة من أنني سأختنق، فبدأتُ أركل بعنف، مُحاولة أن أخلِّص نفسي منه. كانت يداي لا تزالان مكبَّلتين، فبذلتُ جهدا حتى أتمكن من الجلوس. بعد ذلك استعنتُ بالجثث التي استخدمتُها كسلَّم حتى تمكنتُ من الخروج من الحفرة.

خلَّصتُ معصميَّ من السلك، حيث أخرجتُ إحدى يديّ عبر ضغطها بقوة وسرعة، ثم حللتُ القيد الفولاذي وحررتُ اليد الأخرى. كانت هناك قطعٌ من جلدي عالقة بأشواك السلك، والدم يقطر على شكل مدرجات حتى يصل إلى رؤوس أصابعي. لم نكن قد ابتعدنا كثيرا داخل أعماق الغابة، فاتبعتُ آثار الأحذية العسكرية حتى خرجتُ منها ووصلتُ إلى الطريق. ترك الجنود خلفهم الشجرة المقطوعة، لكنهم أخذوا معهم أكياس الرمل. أضرموا النار في سياراتنا. وقد رأيتُ ما اعتقدتُ أنه

Twitter: @ketab_n

الهيكل المتفحم لسيارتنا، حيث كان موجها كسهم عملاق، وقرَّرتُ أن أتابع في نفس الاتجاه الذي كنا نسير فيه، أي باتجاه المنزل.

بدا لي أنه من المهم أن أواصل المشي، لكنّ ساقيّ كانتا متيبِّستين من الصدمة في حين كان الطريق إلى الأمام مبهما سواء ما ظهر منه أو ما خفي. تحرَّكتُ ببطء شديد. حلَّ الفجر مكان الليل مع أني لم ألاحظ هذا التحول إلا بعد حدوثه، كما لو أنني كنتُ مجرد مُسرنمة أوقظها ضوء الشمس. كانت الظلال في حالة انحسار عندما وصلتُ إلى أطراف إحدى القرى وسط توهج صباح جديد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

II
المُسرنِمة
(1)

لـم يكن الفجر قد فارق زرقته عندما اسـتيقظتُ. كان الوقتُ لا يـزال مبكـرا ولم يكن هناك أي احتمـال في أن أعود إلى النوم مجـددا. وبمـا أننـي لم أكـن أريد إيقـاظ برايـان، فإنـي أجبرتُ نفسي على السكون لدقيقة أو دقيقتين، وحاولتُ أن أجعل حركة صدري الناجمة عن الشهيق والزفير مُطابقة لحركة صدره، لكن الوعي سرَّع ضربات قلبي فوجدتُ صعوبة في أن أمنع نفسي من التململ. تسـلَّلتُ من فوق سـريره، فأطلق تنهيدة عميقة وقوية لكنه لم يستيقظ.

عدتُ إلى مسـكني لأغيِّر ملابسـي، وحاولتُ أن أُملِّس خصلة شـعري المتمـرِّدة الموجـودة علـى اليمين والتـي كانت تبـرز بعناد استثنائي كلما كان من المقرر أن يحدث أمر مهم. في الخارج كان البرد يسـبِّبُ حرقة في حلقي ولكني مع ذلك تابعتُ السير لعلّي أقتـل الوقـت. كانـت الطرقات موحلـة، حيث كان لا يـزال عليها بقايا مما خلفته جرافات الثلوج في أواخر الليل، ولذلك شعرتُ بهـا زلقة تحت قدمـيّ المنتعِلتين حذاء رياضيـا بينما كنتُ أعبر

Twitter: @ketab_n

الجادات السكنية وأتجه إلى خارج مركز المدينة. كان هناك عددٌ من أصحاب الأعمال الذين يرفعون أبواب الحماية الخارجية لمحلاتهم، لكن بشكل عام كانت المدينة مُقفرة وهادئة، كانت خاوية كما هي مانهاتن عادة. سرتُ مسافات طويلة دون أن ألتقي بأي أحد.

لم يكن بهو مقر الأمم المتحدة مثلما توقعت. ومع أنني كنتُ أواظب على الحضور بالجامعة في نيويورك منذ قرابة ثلاث سنوات، فإنني تمكنتُ من تجنُّب المرور بذلك المجمع الكائن على ضفاف النهر الشرقي. أما الآن، وبعد أن أصبحتُ في داخله ووقفتُ أنتظر في طابور جهاز كشف المعادن، فقد شعرتُ بخليط غريب من الترقب وخيبة الأمل. خلال السنوات الماضية كنتُ قد فقدتُ الثقة بالأمم المتحدة، فتدخلاتهم في بلدي وفي شتى أنحاء العالم كان يمكن وصفها بالفاترة في أحسن الأحوال، لكنني كنتُ ما أزال أعتقد بأن هذا المبنى سيكون مهيبا إذا ما تمت المبالغة في زخرفته. وقد كان كذلك في بعض أجزائه؛ فالسقوف المشيدة على ارتفاع أربعة أدوار جعلتني أشعر بصغر حجمي؛ أما الشرفات الزجاجية والخرسانية فكانت تلتف حول الردهة بشكل يوحي بوجود نزعة تقدمية. لكن من نواح أخرى لم يكن الجزء الداخلي متميزا، فالأرض الرخامية المقسَّمة إلى مربَّعات كانت مغطاة بقطع طولية من السجاد الصناعي المتسخ. أما كاميرات المراقبة فكانت بارزة بشكل جعلني على يقين بأنها كانت مزيفة، وبأن المعدات عالية الكفاءة كانت موضوعة في أماكن أقل بروزا.

المرأة التي طلبتْ مني المجيء إلى هنا اتصلتْ بي خلال عطلة عيد الميلاد. كان من السهل تعقب عنواني؛ فأنا لم أبتعد عن

Twitter: @ketab_n

الناس أو الأماكن التي كنتُ متجهة إليها عندما تقابلنا في المرة الأولى. وقد أخبرتْني أنها بعد انتهاء مهمتها ضمن قوات حفظ السلام في يوغوسلافيا عادت إلى نيويورك وشقّت طريقها وسط البيروقراطية المهيمنة حتى وصلت إلى منصب ضابط ارتباط. وهي الآن تعمل على مشروع جديد، حيث تقوم بتشكيل لجنة للتركيز خصيصا على حقوق الإنسان. وقالت لي إنها تحتاج إلي. أخبرتُها بأنني طالبة في الجامعة الكائنة في المدينة، فقالت لي: «هذا رائع»، وهو ما أشعرني بالإهانة مع أنني كنتُ أعلم بأنها على حق. بعد ذلك قلتُ لها شيئا ينم عن شعوري بالفرح مثل «أيام الجمعة ستكون مناسبة تماما، حينها لن أضطر للغياب عن الدروس!»، وهو الأمر الذي أشعرها بالسرور بينما جعلني أشعر بالندم قبل أن أغلق سماعة التلفون.

بكّرتُ في القدوم، وجلستُ على مقعد أنتظر. حدقتُ في الرجال الذين يرتدون بدلات رسمية، متسائلة عما إذا كان أيٌّ منهم موجودا في غرفة القرار أو على الأرض خلال الحرب التي عشتُها. كانت تلك المرأة - السيدة ستانفيلد - في منتهى اللطف، وشعرتُ بالذنب بسبب الازدراء الذي ساورني وأنا أعاين الردهة بحثا عن وجهها. وأخيرا لمحتُها من طرف عيني؛ كانت ترتدي بدلة وحذاء عالي الكعب، في حين كان شعرها مُسرَّحا على شكل كعكة. في المرة الأخيرة التي شاهدتُها فيها كانت ترتدي حذاء عسكريا وسترة زرقاء واقية من الرصاص، بينما كانت خصلةٌ من شعرها المتموج تتدلى تحت خوذتها. أما وجهها فكان لا يزال هو نفسه. وقد خطر في بالي أن مظهري ربما تعرَّض لتغيير أكبر، فقد ازداد طولي قرابة قدم ونصف

Twitter: @ketab_n

منذ ذلك الوقت، لذلك وقفتُ وتحركتُ باتجاهها. وحتى قبل أن أحاول لفت انتباهها، نادتني.

- «آنا يوريتش؟» لم أسمع أحدا يناديني باسمي الأخير منذ زمن طويل.

- «السيدة ستانفيلد».

مددتُ يدي باتجاهها قبل الأوان كي أصافحها فبقيتْ ممدودة قليلا.

- «من فضلكِ، نادني شارون».

- « كيف عرفتِني؟».

- «من عينيكِ».

للحظة بدتْ غير متأكدة ما إذا كان يتعين عليها أن تقول المزيد، لكنها أضافت: «ثم الحذاء، لا نرى هذا النوع كثيرا هنا».

استرقتُ النظر إلى حذائي الرياضي، الذي كان من نوع كونفيرس، والذي كنتُ قد ارتديتُه على وجه السرعة بعد أن انتابتني في اللحظة الأخيرة حالةٌ من التحدي المصحوب بالتردد.

تبعتُ شارون إلى خارج الردهة الرئيسية ثم دخلنا أحد الممرات. استأذنتني لكي تذهب إلى الحمّام، ورُحْتُ أتجول في أرجاء الصالة. مددتُ رأسي إلى داخل غرف المؤتمرات المفتوحة المُحاطة من الداخل بالستائر الثقيلة والمزينة باللوحات، التي تبدو للوهلة الأولى بأنها دينية، ولكن عند إمعان النظر فيها يتبين أنها خالية من أي مدلول ديني حقيقي، إذ كانت صور النسور وكوكب الأرض المحاط بالهالات هي التي تحتل مكان الصلبان.

Twitter: @ketab_n

بعد السير لمسافة في مدخل الصالة لاحظتُ وجود مجموعة من الأبواب الخشبية المزخرفة ويافطة كُتب عليها «غرف مجلس الأمن». تخيَّلتُ المندوبين الذين كانوا يجتمعون في الجهة الأخرى من الجدار ليناقشوا الإحصائيات حول جثث الضحايا، والتي كان من بينها جثث والديّ وأصدقائي، ويقرروا بأنه لا بد من القيام بشيء للتظاهر بأن كل شيء على ما يُرام، مع الأخذ في الاعتبار أنه من الأفضل البقاء خارج مستنقع هذا النزاع. وضعتُ أصابعي حول قبضة الباب وسحبتُها برفق، لكن تبيَّن أن الباب أخف مما كان يبدو عليه فانفتح على مصراعيه، وتدفّق تيار هوائي إلى داخل الغرفة، فاستدار بعض المندوبين الذين كانوا جالسين في الصف الخلفي لينظروا إلي.

شعرتُ بيد تنزل على كتفي. كان ذلك كافيا ليجعلني أجفل وأفلت قبضتي من الباب، الذي أُغلق تلقائيا. كانت شارون تقدم لي كوبا من القهوة وقطعة من الكرواسان مغطاة بالسكر وملفوفة بورقة شمعية.

- «سينتهون في غضون بضع دقائق. يلي ذلك استراحة قصيرة لتناول القهوة ثم ننطلق»، قالت لي، مُحاولة أن تحدث فرقعة في أصابعها لكن الورقة الشمعية حالت دون ذلك.

تبعتُها إلى غرفة أصغر حجما كان يوجد على أحد جدرانها بقايا غراء متحجِّر حيث كانت إحدى اليافطات قد أُزيلتْ من هذا المكان. كانت تتعقب نظراتي حيثما أدرتُ وجهي.

- «هذه غرفتنا الآن»، قالت لي بنبرة يشوبها الغرور. «لكن لم يكن لدي وقتٌ كاف كي أتقدم بطلب لتعليق اليافطات الجديدة. لمَ لا نذهب ونجلس إلى إحدى الطاولات الأمامية؟» أضافت.

Twitter: @ketab_n

ناولتني كوب القهوة وقطعة الكرواسان.

- «أي واحد من الأماكن المحجوزة سيفي بالغرض»، قالت.

كانت الغرفة بلا نوافذ ومكسوَّة بخشب داكن، في حين كانت الطاولات والكراسي مرتبة على شكل نصف دائرة. اخترتُ مقعدا ثم أخذتُ رشفة من القهوة التي تبيَّن لي أنها مشروب شوكولا ساخن. فابتلعتُها عنوة؛ حيث إنني كنتُ معتادة على شرب القهوة السادة. لقد علقتْ حلاوتها في فمي، ثم اتضح لي أنني بالنسبة لشارون سأكون دائما تلك الفتاة التي لم تتجاوز العاشرة من عمرها.

في أميركا تعلَّمتُ بسرعة أي الأشياء التي يمكنني الحديث عنها وأي الأشياء التي يجب أن أحتفظ بها لنفسي.

- «يا لفظاعة ما حدث هناك» هذا ما يقوله الناس عندما أذكر أمامهم اسم الدولة التي أنتمي لها ثم أشرح لهم أنها مُجاورة للبوسنة. لقد سمعوا عن البوسنة؛ فقد أُقيمت الألعاب الأولمبية هناك العام 1984.

في البداية، كانت دوافع الناس البالغين من طرح الأسئلة حول الحرب تتراوح بين الاهتمام والفُضولية، وقد تحدثتُ بمنتهى الصدق عن الأمور التي رأيتُها. بيد أن التفاصيل التي كنتُ أقدمها لهم غالبا ما كانت تُقابَل بحركة عيون تنم عن عدم الارتياح، كما لو أنهم كانوا ينتظرون مني أن أُعيد عجلة الزمن إلى الوراء، أو أن أقول لهم إن الحرب أو الإبادة الجماعية ليستا بالأمر الجلل. كانوا يقدمون لي تعازيهم، مثلما تعلَّموا، ثم يجاملونني في الاستماع لي لبرهة من الزمن قبل أن يجدوا مخرجا لإنهاء المحادثة.

Twitter: @ketab_n

كانت تأملاتهم حول كيف بقي الناس في دولة تمر في مثل هذه الظروف الرهيبة وحول الأسباب التي دفعتهم لذلك هي أكثر ما كان يُشعرني بالامتعاض. كنتُ أعلم أن الجهل هو الذي يقف وراء مثل هذه الأسئلة، وليس وجود رؤية معينة. يطرحون الأسئلة لأنهم لم يستنشقوا دخان الغارات الجوية أو يشموا رائحة اللحم المحترق من شرفات منازلهم. لم يستطيعوا إدراك أن مثل هذا المكان الخطير كان لا يزال بمقدوره استيعاب جميع المشاعر المرتبطة بمفهوم الوطن. ولذلك غيَّرتُ أسلوبي مباشرة، حيث صرتُ أنتقي القصص التي أخبرهم بها كأن أحكي لهم عن الإذلال الذي كنا ننزله بذلك الرجل الصربي عندما كنا نرن جرس شقته ثم نهرب قبل أن يفتح الباب، أو عن الألعاب التي اخترعناها ونحن في الملاجئ، وذلك إلى أن رسمتُ في أذهانهم صورة خفيفة الظل عن زغرب جعلتها أشبه بدار تسلية في أحد الكرنفالات. لم تكن هذه الصورة التي تكونت لديهم تنطوي على أي تهديد، بل حتى إنها كانت مُضحكة. لكن ابتكار حرب مستساغة كان أمرا مضنيا ومؤلما، ولذلك، في أحد الأيام، توقَّفتُ عن ذلك كليا. وكلما كبرتُ كانت تتراجع نبرة صوتي في سرد تلك القصص. حتى إن سنوات عديدة مرَّت دون أن أكشف خلالها عن أي شيء. فقد عشتُ كمواطنة أميركية، وقلتُ لنفسي إن الأمر كذلك أهون بالنسبة لهم.

لكنَّ مندوبي الأمم المتحدة، الذين بدؤوا الآن يتجهون إلى مقاعدهم، كانوا يعرفونني منذ عقد من الزمن، كانوا متعطشين إلى الدماء، لم أكن أعلم ما الذي سأقوله لهم، فقد سهرتُ حتى وقت متأخر من الليل وأنا أفكر بما سأقول، وحاولتُ أن أعدَّ

Twitter: @ketab_n

ملخصا عن تلك الأشياء التي سأقولها. لكن على الرغم من مضي سنوات عديدة بعد الحرب، كنتُ لا أزال أفتقر إلى الرواية القادرة على تفسير ما حدث. كان هناك ولدان أسودان مراهقان، وقد سارا وسط القاعة حتى وصلا إلى الصف الأمامي ثم جلسا في كرسييهما. إنهما من أفريقيا، قلتُ في نفسي. ربما ولدان تائهان أو جنديان من الجبهة الثورية المتحدة. وقد تساءلتُ ما إذا كانت شارون هي من قام بتجنيدهما أو أنهما مشروع تابع لشخص آخر.

وقفتْ شارون وبدأت في عرض مقدمتها بينما كان جهاز العرض يشير إلى عدم وجود إشارة على الشاشة. شاهدتُ عاملا متدربا يقوم بتحريك أسلاك التوصيل. وبعد إعادة تهيئة ثانية ظهر عرض الشرائح، حيث كانت عبارة «أطفال في الحرب» تظهر فوق الحاضرين باستخدام التركيز البؤري الأوتوماتيكي، وكانت مكتوبة بأحرف مزخرفة ثلاثية الأبعاد.

- «أقدم لكم في البداية آنا يوريتش»، قالت شارون، ثم أضافت «آنا ناجية من الحرب الأهلية اليوغوسلافية».

عرضتْ الشريحة خرائط ليوغوسلافيا ما قبل الحرب وما بعدها وما نجم عن ذلك من تقسيمات، حيث كان كل قسم مرمَّزا بلون خاص.

- «في سن العاشرة شاركتْ في المهام القتالية للمتمردين ضد القوات الصربية شبه العسكرية»، تابعتْ شارون.

انتشرت همهمات خفيضة بين الطاولات لدى سماعهم ذلك.

- «لكنني سأتركها تقدم نفسها لكم على نحو أكمل»، قالت شارون، وهو ما اعتبرتُه مؤشرا لي كي أقف.

Twitter: @ketab_n

تـردَّد فـي أرجـاء القاعة صـوت تصفيـق يكتنفه التـردد، ثم مشـيتُ إلى المكان الذي كانت تقف فيه شـارون. بدت الصالة من الجهة الأمامية أكبر حجما بكثير. أخرجتُ البطاقات المفهرسة المطويـة مـن جيبـي، لكن بـدا لي الملخـص الـذي أعددتُه عديم الفائـدة الآن. سـعلتُ، فتـردد صـدى سـعالي في أرجـاء القاعة. تذكـرتُ حادثـة مرتبطة بوالدي. فقد كنتُ ذات يوم متوترة حيال تأديـة دور منفرد خلال حفلـة عيد الميلاد عندما كنتُ في الصف الثالـث. حينـذاك قـال لـي: غنّي بصوت عال وحسـب، فـإذا كان صوتك عاليا، فسيظن الجميع أن أداءك كان جيدا.

- «أنـا آنا»، قلتُ، ثم أضفتُ «عمري عشـرون سـنة، وأنا حاليا في السنة الثالثة بجامعة نيويورك أدرس الأدب».

مـرَّ فـي حياتـي وقتٌ كنتُ أخشـى فيه من هـذه القاعة، ومن هذه الشـخصيات المرموقة ومـن اللغة الجامدة والرسـمية التي يتكلمون بها. لكنني الآن كنتُ أشـعر بالتعب أكثر مما كنتُ أشعر بالخـوف. لقد كبرتُ على الخوف مثلما كبرتُ على الملابس التي كنتُ أرتديها أثناء الطفولة. وبعد أن هدأ الأدرينالين الذي ارتفع في بداية الأمر، استقرَّ صوتي.

- «لا يوجـد هنـاك شـيء اسـمه طفـل مجنـد فـي كرواتيا»، قلتُ مع ظهور الشـريحة التالية التـي تعرض فتاتين مراهقتين تحمـلان بنـادق هجومية مموهة وتظهـر عليها علامـات البِلى. «هناك فقط طفل يحمل سلاحا»، أضفتُ.

كان ذلـك جـدلا يتعلق بالدلالة والمعنى، ولكـن المفارقة أنهم كانوا يسلمون بصحته مثلما يحدث داخل قاعات المحاضرات في الجامعة.

Twitter: @ketab_n

كانت الفتاتان الظاهرتان في الصورة غريبتين، وكان يمكن بكل سهولة أن أكون واحدة منهما. ولكن بما أنهما كانتا تمران في مرحلة انتقالية بين الطفولة وسن البلوغ، فقد كانت بشرتهما لا تزال ناعمة في حين بدت أطرافهما خشنة بعض الشيء بسبب طفرات النمو. وكل واحدة منهما تحمل على صدرها بندقية كلاشنكوف. كانت الفتاة صاحبة القامة الأطول تضع ذراعها الأخرى فوق كتف الفتاة الأقصر؛ ربما كانتا شقيقتين. كلتاهما منحتا الكاميرا نصف ابتسامة، كما لو أنهما تذكّرتا من زمن آخر أنه يتعين على الشخص أن يبتسم في الصور.

من الذي التقط هذه الصور، تساءلتُ وأنا أواصل كلامي، الذي سردتُ فيه تفاصيل رحلة عودتنا إلى الوطن ومقتل والديّ والقرية التي ذهبتُ إليها فيما بعد. بالتأكيد ليس السكان المحليون، الذين لن يجدوا المشهد جديرا بالاهتمام بالقدر الذي يبرِّر التقاط صورة. وأيضا ليس سياح الذكريات الأليمة، الذين لا يظهرون إلا بعد زوال الخطر، فقد جرى التقاط الصور في وقت مبكر من الحرب. لا بد أن الفاعل من الصحافيين، تلك السلالة من البشر التي لا تزال عصية على الفهم بالنسبة لي. أما الغرباء الذين كانوا يدّعون المناقبية العالية فإنهم في ذلك الوقت كانوا يتنحّون جانبا ويلتقطون الصور خلال لقاءاتهم بأطفال أدمتهم الحرب.

- «لم يكن القتال خيارا»، قلتُ، ثم أضفتُ «كان مجرد شيء قمنا به لكي نعيش. كان جزءا من الوطن».

شرائح العرض جعلت الفتاتين تبدوان أجنبيتين؛ مثل الحيوانات التي يتم التقاطها في رحلة صيد، لكننا لم نكن

Twitter: @ketab_n

غريبات بتلك الدرجة. وعندما خطر في بالي السلاح الذي كنتُ أحمله، فإني لم أتذكر قوته الوجودية، بل وزنه، حيث كان ثقيلا بالنسبة لبنيتي الهزيلة. كما تذكَّرتُ كيف كان الحزام المربوط به يحدث سحجات في كتفي. وأيضا ذلك الإحساس الشبيه بالدغدغة الذي كنتُ أشعر به في معدتي وهي تتلقى تلك الإيقاعات الآلية النابضة عندما كنتُ أقوم بالرمي الغريزي والبندقية ملاصقة لخاصرتي.

لم نكن مثل أطفال سيراليون الذين كانوا، على بُعد قارة منا، يخوضون معاركهم في السنة ذاتها؛ فنحن لم يتم اختطافنا وإعطاؤنا المخدرات حتى نصبح مخدَّرين بالقدر الكافي لنقوم بالقتل، مع أنني في هذا الوقت، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، كنتُ أحيانا أتمنى أن يتوفر لي ذلك المبرر. لم نكن نتلقَّى أية أوامر، بل كنا نقوم بقنص جنود الجيش الشعبي اليوغوسلافي من خلال النوافذ المحطمة بملء إرادتنا، ثم نقوم بعد ذلك بلعب الورق وخوض سباقات الجري. ومع أنني تعلَّمتُ أن أطرد الأسلحة من أفكاري اليومية، فإني بالحديث عنها في هذا الوقت شعرتُ بشيء لم أكن أتوقعه؛ إنه الشوق. وعلى الرغم من أن البنادق كانت منفِّرة بالنسبة للجمهور الشاحب الجالس أمامي، فإنها كانت بالنسبة للعديد منا مرادفة للشباب، الذي تغلفه نفس طبقة الحنين، التي تزين طفولة أي منا. لكنني كنتُ أعلم بأنني مهما حاولتُ أن أعيد صياغة كلماتي فإنني لن أتمكن من شرح كيف أن الارتياح الذي كنتُ أشعر به بين تلك البنادق يفوق الارتياح الذي شعرتُ به في هذا المبنى الكائن في مدينة نيويورك.

Twitter: @ketab_n

وبدلا من ذلك حاولتُ تبني البراغماتية، أي أن أقول شيئا من شأنه أن يفيد شخصا ما على الأقل.

- «أنتم تعلمون أن مساعداتكم الغذائية لا تصل إلى الأشخاص الذين يُفترض أن تصل إليهم»، قلتُ لهم، ثم أضفتُ «في المكان الذي كنتُ أقيم فيه لم تكن هناك قوات لحفظ السلام، وكان التشيتنيك يسرقون المساعدات الموجَّهة إلى المدنيين. إذا كنتم توصلون الغذاء ثم تغادرون، فإنكم بذلك تطعمون عدوكم فقط. كان لدينا أسلحة، لكنهم كانوا يمتلكون أكثر منا. والقوة النارية هي الشيء الوحيد الذي يحدد من يأكل».

في نهاية المطاف شعرتُ بدفء ينبئ بوجود شخص بجانبي وأدركتُ أن شارون قد عادت وأنها كانت تنتظرني حتى أنتهي.

- «شكرا لكم على الوقت الذي منحتموني إياه»، قلتُ.

صفَّق الحضور بثقة أكبر هذه المرة؛ فقد كانوا إما مأخوذين بكلامي وإما مسرورين لانتهائه. ضغطتْ شارون على كتفي، ثم انتقلتْ إلى فقرتها عن معسكرات الاعتقال الصربية. نظرتُ إلى الولدين الأفريقيين، اللذين كانت أعينهما محمرَّة بشكل دائم، وذلك من الفرك أو البكاء أو من تعاطي الكوكائين، وهو ما كان ينم عن وجود مأساة مجهولة. عدتُ إلى مقعدي، وقد شعرتُ بالارتياح نظرا لأنني كنتُ أول المتكلمين. لكنهم عندما وصلوا إلى صور المقابر الجماعية، خرجتُ خلسة من باب جانبي وتقيأتُ في أصيص إحدى النباتات. لم أعد لإكمال بقية العرض التقديمي، لأنني لم أكن أريد رؤية شخص أعرفه.

Twitter: @ketab_n

(2)

عبرتُ الباحة الأمامية لمجمع الأمم المتحدة، التي كانت عبارة عن فسحة خرسانية منبسطة ومليئة بالنوافير المهيَّأة للتكيف مع برودة الشتاء، ثم مررتُ من بوابة الخروج. كان يُفترض بنا، شارون وأنا، أن نتناول الغداء بعد انتهاء تلك الفعالية، لكني رأيتُ أنه كان لا يزال هناك قرابة الساعة في حال تحدث الولدان، أما أنا فلم أعد أستطيع تحمل رؤية المكان أو الذكريات التي كان يهيِّجها في داخلي. تمكنتُ من تجاوز حركة المرور في الجادة الأولى ثم صعدتُ الدَّرج عائدة نحو قرية تيودور. كان يتعين عليَّ أن أبقى قريبة لأتمكن من العودة بسرعة للقاء شارون. وقد بدأتُ أدرك الآن أن الأمر يتجاوز مجرد كوني مدينة لها، فقد كانت فرصة التحدث إلى شخص عرفني ولو لفترة وجيزة في كرواتيا السبب الحقيقي لقدومي. لعلها ستخبرني شيئا عن مصير الناس الذين خلَّفتُهم ورائي.

كانت نسمات أواخر الشتاء لا تزال باردة، لكنها على الأقل خفَّفت من شعوري بالغثيان. لطالما وجدتُ العزاء في مانهاتن وشعرتُ بالأمان بين مبانيها وشوارعها المزدحمة بالغرباء الذين ربما لم تكن حياتهم أقل اضطرابا من حياتي. فيما يتعلق

Twitter: @ketab_n

بالجامعة، كنتُ أفضِّل المدينة على الدراسة. لم يذهب أيٌّ من الأميركيين، الذين لعبوا دور الأب والأم في حياتي، إلى الجامعة، كما لم تكن لدي أفكار واضحة على الإطلاق عما أريد أن أدرس. لذلك بدون أي معايير أخرى تذكَّرتُ زغرب، بكل ما فيها من أزقّة وعربات ترام وبكل ما تتمتع به من استقلال ذاتي وقدرة على الحركة والتي كانت متناسبة مع صغر حجم المدينة، ثم وضعتُ نيويورك نصبَ عينيّ. لكنني الآن، وبينما كنتُ أسير في الشارع 44، وأتفحص هذا الجزء غير المألوف من مانهاتن، شعرتُ بأنني خارج المكان. كان من الممكن أن يكون هذا الشارع برمته جزءا من مدينة أخرى، فقد كان مختلفا جدا من حيث الناحية الجمالية والوظيفية عن ويست فيليج (القرية الغربية)، التي كنتُ أمضي فيها معظم وقتي، والتي تتميز بأرصفتها النظيفة وبقلَّة سكانها الذين يرتدون ربطات عنق وأحذية جلدية ملمَّعة، كما تتميز بالسيارات السوداء التي يقودها سائقون متخصصون وتحمل لوحات ترخيص دبلوماسية وتسير ببطء إلى جانب الطريق. مررتُ بسلسلة من مكاتب برنامج الأمم المتحدة وبمبنى اليونيسيف، وهي أسماء كانت تعني لي الكثير عندما كنتُ طفلة خلف المحيط، لكنها بالكاد تعني شيئا الآن.

توقفتُ عند بقالة لأشتري لفافة من النعناع المعطِّر للنفَس، وبينما كنتُ أبحث في سترتي عن فكة، رأيتُ هاتفي يلمع برسالة نصية من برايان.

- «صباح الخير ياحبيبتي. إلى أين ذهبتِ؟».

لم أكن أريد أن أكذب، لذلك لم أجب على الرسالة وأعدتُ الهاتف إلى جيبي. برايان وأنا نتواعد من نحو سنة، لكنه لم

Twitter: @ketab_n

يكن يعلم أي شيء عني في الحقيقة. فقد أخبرتُه، مثلما أخبرتُ جميع زملائي في الجامعة، بأنني وُلدتُ في نيوجيرسي.

في البداية كنتُ واثقة من هذا الاختيار لكي أُبقي حياتي الماضية سرا. فقد استطعتُ أن أختبر حياة الجامعة والمدينة دون أن أضطر لمواجهة ذلك الحزن القديم عند كل منعطف. وقد نجح الأمر لفترة معينة. فقد كوَّنتُ بضعة أصدقاء، وتعرَّفتُ على برايان، كما كنتُ أسهر خارج المنزل حتى وقت متأخر وأنا أدخن وأشرب وأرقص، ثم أسير إلى المنزل مذهولة ومسحورة بأضواء المدينة. وشيئا فشيئا بدأتُ أتعلم كيف أحيا حياة طبيعية في مكان لم يلوِّثه شبح الطفولة. بعد ذلك، وفي بداية سنتي الثالثة في الجامعة، انهار البرجان.

كنتُ أحضر درسا في الكيمياء عند الساعة الثامنة صباحا وأتبادل النكات حول الجدول الدوري مع بعض الزملاء في المختبر عندما ظهرتْ أستاذة من صف مجاور عند مدخل الباب. ثم أذنتْ لنفسها بالدخول.

- «يجب أن تشاهد هذا يا هانك»، قالت.

ثم راحت تفتش في أدراج الدكتور ريد بينما كان هو ينظر إليها منزعجا. وبعد أن عثرتْ على جهاز التحكم عن بعد، وجَّهتْه إلى الأعلى بيد مرتعشة. ونظرا لأن جهاز التلفزيون كان متروكا على وضعية استقبال الفيديو، فقد أصدر صوت تشويش قويا. ثم حوَّلتْ إلى قناة إخبارية.

بدا الحريق متوهجا حتى من خلال ألوان هذا الجهاز القديم، وكان مرعبا من حيث شدته وحجمه، ولكن الطلاب لم يشهقوا تعبيرا عن إدراكهم لهول ما حصل إلا عندما قام المصوِّر

Twitter: @ketab_n

بعرض المشـهد عن بعد. وقد قام البروفيسـور ريد بفصل مفتاح الطـوارئ لقطـع التيـار الكهربائـي عن خـط الغاز، مـا أدى إلى تعطيل التجارب التي نقوم بها، ثم تحلّقنا حول التلفاز.

- «ممـا لا شـك فيـه أنتم تشـاهدون الآن صورا حيـة مقلقة للغايـة»، قـال صوت المعلق الإخباري، الـذي أضاف «ذلك هو برج التجـارة العالمي، حيث توجد لدينا تقارير غير مؤكدة بأن طائرة اصطدمت بأحد البرجين».

- «آه يا إلهي! أي برج هو ذاك؟» قالت فتاةٌ في مؤخرة المختبر.

- «أي طيار هذا الذي كان يحلق على هذا الارتفاع المنخفض فـوق مدينـة نيويورك؟» قـال ولدٌ كان بجانبي، ثـم أضاف، «يا له من مغفل أحمق!».

- «أخي يعمل في البرج الجنوبي»، قالت الفتاة.

- «ماذا لو لم يكن حادثا؟» قلتُ.

- «مـاذا تقصديـن بأنه ليس حادثا؟» قـال الولد، مضيفا «ما هو إذن؟».

أمسـك أسـتاذنا بجهـازه الخليـوي وراح يضغـط على بعض الأزرار في لوحة المفاتيح، لكن بدا أن الشخص الذي اتصل به لم يرد، ولذلك أغلق جهازه.

- «أريدكم أن تعودوا إلى مسـاكنكم»، قال لنا، ثم أضاف «وفي حـال كنتـم تسـكنون خـارج الحـرم الجامعـي، عليكـم أن تجدوا شخصا تستطيعون الجلوس معه لفترة».

جمعنـا كتبنـا، باسـتثناء تلك الفتـاة الشـاحبة، التي ظلت جالسة أمام التلفاز.

- «إنه البرج الشمالي»، قلتُ مشيرة نحو شريط الأخبار.

Twitter: @ketab_n

- «أنا متأكدة أن أخاك بخير»، أضفتُ.

- «يا شباب»، نادانا الدكتور ريد عندما وصلنا إلى الباب؛ لم ينظر إلينا، فقد كان منهمكا في الضغط على أزرار هاتفه مرة أخرى، ثم قال: «استخدموا السلالم».

في الخارج حاولتُ أن أنظر إلى وسط المدينة، لكنني لم أرَ شيئا. تساءلتُ عن مكان وجود برايان، ثم رحتُ أفتش عن هاتفي الخليوي في حقيبة الظهر التي كنتُ أحملها. كان والداي الأميركيان قد قدماه لي خلال الشهر الماضي كهدية بمناسبة عيد ميلادي، لكني كنتُ لا أزال غير معتادة على حمله وكنتُ دائما أنسى أين وضعتُه. وعندما عثرتُ عليه كان يوجد على الشاشة عدة مكالمات مفقودة. حاولتُ الاتصال ببرايان، ثم بالمنزل، ولكني في كل مرة كانت تطالعني إشارة مشغول لم أسمعها من قبل، وهي عبارة عن أصوات ملايين الناس الذين كانوا يتكلمون دفعة واحدة عبر الهاتف.

ولأنني لم أكن أعلم ما الذي يجب عليَّ فعله، عدتُ مسرعة إلى مسكني، فوجدتُ برايان يذرع الصالة الأمامية جيئة وذهابا. شعرتُ بالارتياح وبشيء من الصدمة عندما وجدتُه سليما معافى ويقف أمامي مباشرة. وأدركتُ أنني غريزيا كنتُ أتوقع الأسوأ.

- «أنت بخير»، قلتُ له، محاولِة ألا أبدو مندهشة كثيرا.

قبَّلني برايان على جبيني ثم صعدنا إلى الدور العلوي، حيث كان زملائي في السكن مجتمعين في غرفة الاستراحة. جلسنا نحدق في التلفاز، وشاهدنا الضربة التي أتت على البرج الثاني ثم انهياره بعد بضع ساعات، حيث تحوَّلت التسمية على الشريط الإخباري من «كارثة» إلى «هجوم». وفي نهاية المطاف

Twitter: @ketab_n

تمكنــتُ من الاتصال بعائلتي، حيـثُ تحادثنا بصوت هامس دون أن ندري لماذا، كما لو أننا كنا نخشــى من أن الحديث بصوت عال سـيؤدي إلى الإطاحة بشــيء مــا. أنا بخير، قلتُها مــرارا وتكرارا، في محاولة مني لتهدئة السيدة التي أصبحتُ أناديها «والدتي». وعندمــا أنهيتُ المكالمة طمأنتُ نفســي بأنني فعــلا كنتُ بخير، إذ إنني بالنتيجة لم يصبني أي مكروه حتى الآن.

كان برايــان يريــد البقاء معي، لكنني تذرَّعــتُ بأنني منهمكة فــي إعداد بحث بالإضافة إلى سلســلة من الأعذار الأخرى، فعاد على مضض إلى مسكنه. كنتُ أريد أن أكون وحدي. حتى بعد أن ذهب الجميع إلى النوم، بقيتُ مســتيقظة لمشــاهدة الأبراج التي لــم تعــد أبراجا، حيث أصبــح الجميع يطلقون علــى ذلك المكان اســم Ground Zero (أرض الصفــر). تملَّكتني رغبةٌ بأن أكون قريبة من الحطام. خرجتُ ومشــيتُ باتجاه الجنوب حتى وصلتُ إلى حواجز ســيارات الإطفاء، ووقفــتُ هناك برهة من الزمن في حــين كانــت أضــواء الطوارئ مســلَّطة علــيّ. كان الهــواء لا يزال يعبق برائحة البلاستيك المحترق والفولاذ المنصهر، وكانت هناك نســمات جافة ومُسبِّبة للحساسية لكونها كانت مليئة بجُسيمات الجص.

عندما عدتُ إلى غرفة الاســتراحة كانت الأخبار تعيد الصور والمقاطــع التي التُقطت خلال اليوم؛ لقطات ســريعة للأســفلت المُغطــى بطبقــة مــن الرمــاد والأوراق الخاصــة بالضحايــا، وقد اعتُبرتْ تلك الوثائق مهمة، وربما حتى ســرية، فقط خلال ذلك الصبــاح. عــادت التغطية إلى الزمن الحاضــر، حيث كانت هناك طائــرة هليكوبتــر تصوِّر خط الأفق. غطت المكان ســحابة دخان،

Twitter: @ketab_n

واصطبغت باللون البرتقالي من جراء انعكاس أضواء المدينة. حاولتُ مرة أخرى كبح جماح تلك الفكرة، التي تتمحور حول ذاتي الشخصية والتي كنتُ أتحاشاها طوال اليوم، وهي أن المشكلات ستلاحقني أينما ذهبت.

مضت ستة أشهر على تلك الهجمات، وكانت الأمور اليومية قد بدأت تعود إلى طبيعتها، أولا من خلال تبني موقف الشجاعة القسرية؛ القائل إن الخوف يؤدي إلى تمكينهم من الانتصار، ثم من خلال إعادة الممارسات الروتينية تدريجيا إلى سابق عهدها، وذلك إلى أن أصبحنا مرة أخرى محاطين بالمتاعب الدنيوية لحياة المدينة، مثل الضجيج الصادر عن أنابيب التدفئة المركزية، وتحويل الطرق الرئيسية نتيجة بناء الأنفاق، ووجود تشكيلة من الحشرات الطفيلية. كانت البلاد في حالة حرب، لكن بالنسبة لمعظم الناس كانت الحرب فكرة أكثر مما هي تجربة يعيشونها، وقد ساورني شعورٌ بالغضب والعار معا بأن الأميركيين - وأنا منهم - يستطيعون أحيانا تجاهل آثار الحرب على مدى أيام بحالها. في كرواتيا، كانت الحياة زمن الحرب تعني أن يفقد الناس السيطرة، وأن تكون الحرب هي المُسيطر على كل فكرة وحركة يقومون بها، حتى وهم نيام. لم تكن تسمح بالنسيان. لكن حرب أميركا لم تقيِّدني؛ فهي لم تقطع مياهي، أو تقلص الموارد الغذائية. لم يكن هناك خطر من أن تتم السيطرة على البلاد من قبل دبابات أو جنود مشاة أو قنابل عنقودية، لا ليس هنا. فمعنى الحرب في أميركا كان متناقضا تماما مع ما حدث في كرواتيا - ومع ما كان يحدث حتما في أفغانستان - لدرجة أن الأمر بدا وكأنه سوء استخدام لكلمة الحرب.

Twitter: @ketab_n

رنَّ هاتفي فجفلتُ ورددتُ عليه بصوت مرتعش. كانت شارون.

- «آنا؟ أين ذهبتِ؟».

- «كنتُ فقط بحاجة لاستنشاق بعض الهواء. هل يتعين علي أن أقابلك في الردهة؟».

أدركتُ حينذاك أنني قد ابتعدتُ نحو الغرب أكثر مما كان يجدر بي أن أفعل، فهرولتُ عائدة عبر الأزقة والحارات حتى وصلتُ إلى بوابات مبنى الأمم المتحدة، حيث كانت مجموعة سياحية تسد جميع أبواب المدخل، عاودتُ الاتصال برقم شارون، لكنها بعد لحظات ظهرت عند بوابة الخروج حاملة بين ذراعيها كومة من الملفات بالإضافة إلى البطاقات المفهرسة الخاصة بي.

- «كنتُ أعتقد أنكِ لن تتمكني من العودة عبر تلك الفوضى» قالت لي مضيفة: «هل تريدين هذه؟» سلمتني البطاقات المفهرسة، ثم سألتني، «هل أنتِ جائعة؟».

لم أكن جائعة، لكني كنتُ متشوقة للابتعاد عن الأمم المتحدة والانفراد بشارون.

- «يوجد لديّ حجز. نستطيع المشي».

سرتُ خلفها متسلقة الدَّرج من جديد، وقد عقدتني الدهشة من السهولة التي كانت تسير بها وهي ترتدي الكعب العالي. كنتُ دائما أمشي بتثاقل في كل مرة أحاول ارتداءه، وكلما تقدمتُ في العمر بدا مستبعدا أنه سيأتي يوم أتعلم فيه الرشاقة التي كانت تتمتع بها النساء الأخريات. وكلما مررنا بجوار مطعم فخم، كنتُ أعقد الأمل بأن نذهب إلى مكان أكثر شعبية كي لا أتصرف بحماقة. بدأت شارون تعبث بجهاز البلاكبيري الذي في حوزتها ثم أومأتْ وهي في حالة من الشرود إلى مبان تابعة

Twitter: @ketab_n

للأمم المتحدة كالقنصلية الماليزية والفندق الذي يقيم فيه كبار الشخصيات. نظرتُ إلى تلك الأماكن دون تركيز، في حين إن كل ما كنتُ أستطيع التفكير فيه هو كيف يمكنني أن أبدأ ذلك الحديث الذي أبقيتُه طي الكتمان على مدى عقد من الزمن.

تسلّلت الشمس عبر بقعة رمادية، فشعرتُ بالدفء في وجنتيّ في حين كان مبنى البعثة الهندية يتلألأ بشتى الألوان. في الجزء العلوي من المبنى، كانت ألوان الربيع الذهبية تغمر الشرفة المتداخلة مع السطح، حيث تسللت الشمس من الكوة المغطاة بشبكة من القضبان وانعكست عن المرايا المحفورة في الجدران.

- «إنه مبنى جميل»، قالت شارون وهي تقف مستندة على كعبيها، ثم أضافت: «ثمة لمسةٌ مستقبلية في تصميمه، تقريبا».

كنتُ أعتقد أن العكس صحيح، فالغرانيت الخمري كان يذكّر بالصحراء، إنه الجمال الذي تتمتع به المعابد القديمة، لكنني لم أنبس ببنتِ شفة وتبعتُها في عبور الشارع.

بدا أن المطعم يفتقر إلى النظافة بعض الشيء، فقد كانت مظلته باهتة الألوان في حين كانت الستائر مغطاة بالغبار. ولكن عندما دخلنا، أذهلتني فخامة المكان، وربما حتى نظافته. كانت الطاولات مغلّفة بأغطية بيضاء سميكة حتى خلال ساعة الغداء. فنظرتُ إلى الأسفل نحو حذائي الرياضي.

- «أريد أن أتناول النبيذ الأحمر»، قالت شارون للنادل الذي كان يرتدي صدرية مُبهرجة.

- «هل لي بكأس من الكوكا كولا من فضلك؟».

ابتسم النادل وأخذ كأس النبيذ الذي كان أمامي معه. كانت الصالة مضاءة بالأنوار الكشافة المبقّعة، ونظرتُ بعينين نصف

Twitter: @ketab_n

مغمضتين إلى قائمة الطعام. لم تكن هناك أسعار على أي صنف.

- «أعتقد أن الأمور سارت بشكل ممتاز، أليس كذلك؟» قالت شارون.

قلتُ لها إنني أعتقد ذلك أيضا، مع أنني في الواقع لم أكن متأكدة تماما. بدأتُ أعبث بمنديلي، حيث رحتُ أطوي وأفتح تلك القطعة القماشية الصغيرة مستطيلة الشكل، ثم سألتُها عن مشروعها. أجابت بعبارات مبتذلة حول انشغالها، ثم وضعت الملفات الخاصة بها تحت كرسيها.

- «لكن لنكتفِ بهذا القدر عن ذلك الموضوع. كيف حال الجامعة؟ وكيف هي أختك راهيلا؟».

أُخذتُ على حين غرة عند استخدام اسم شقيقتي، هذا الاسم الذي لم ينادها بها أحدٌ منذ سنوات.

- «هم، أقصد نحن نناديها راشيل هنا».

- «وهل هي بخير؟».

- «إنها بحال جيدة، نعم. أنا متفاجئة من تذكرك لها».

- «كثيرا ما كان بيتر يتحدث باعتزاز عن عائلتك عندما كنا نعمل معا. ولا سيما خلال الفترة التي كنتِ فيها... مفقودة».

بمناسبة الحديث عن بيتر، وعلى الرغم من أن السؤال تردَّدَ في ذهني مرات كثيرة، فقد كان من الصعب أن أتفوه به. لكن كان لا بد أن أعرف.

- «هل...؟» تلعثمتُ ولم أكمل.

عاد النادل بالمشروبات التي طلبناها، وكنتُ آمل أن شارون، التي لم تطلع على قائمة الطعام، ستطلب منه الانصراف.

Twitter: @ketab_n

لكنها طلبتْ سلطة شرائح اللحم مع صلصة الخردل، ولأنني لم أكن مستعدة بعد فقد طلبتُ مثلها. وعندما غادر النادل، ارتشفتْ شارون نبيذها ونظرتْ إليّ بترقب.

- «ماذا كنتِ تقولين؟».

- «لا شيء».

توقفتْ ثم قررتْ ألا تلح علي.

- «إذن حدثيني أكثر عنكِ. أريدُ ان أسمع منكِ كل شيء عن عائلتك الجديدة، وحياتك الجديدة».

أطبقتُ أسناني بقوة لدى استخدامها لهذه الكلمة - «الجديدة» - كما لو أنني قايضتُ عائلة بأخرى على طريقة صفقات مقايضة السيارات المستعملة. ابتلعتُ شعوري بالامتعاض وقلتُ لها إن عائلتي كانت لطيفة وقد اعتنت بي جيدا. أما راهيلا فكانت في صحة جيدة، كما لو أنه لم يسبق لها أن عانت من أي شيء على الإطلاق. ثم تابعتُ بأننا أمضينا معظم السنوات العشر الأخيرة في إحدى ضواحي فيلادلفيا، حيث كان كل شيء نظيفا وهادئا، وأنني أتيتُ إلى نيويورك لأتخلص من ذلك الهدوء. كانت شارون تهز رأسها طوال الوقت مثل امرأة تجلس في كنيسة. كنتُ أعلم أنها كانت تقصد أن تشجعني من خلال ذلك، أو أنها كانت مسرورة بنفسها، لكن في كلتا الحالتين كان يزعجني أن تكون حياتي أمرا يهمها تقييمه وأن تنال التقدير على ذلك.

- «في كل الأحوال»، قلتُ لها ثم نظرتُ إلى صحني. «كنتُ أريد أن أسألك عن بيتر»، أضفتُ.

توقفتْ شارون عن هز رأسها.

- «هل تعلمين ماذا حدث له في اليوم الذي غادرنا فيه؟».

Twitter: @ketab_n

- «لا»، قالت، ثم أضافت: «الرجال الذين أرسلتُهم لم يستطيعوا العثور عليه. بعد ذلك ذهبتُ إلى ألمانيا لمدة شهر، ثم إلى البوسنة، حيث كان التواصل متعذرا. كنتُ آمل إلى حدّ ما بأنك قد..».

- «كلا، لم أفعل»، قلتُ لها.

- «لقد حاولتُ. كتبتُ الرسائل. حتى إنني سألتُ الناس الذين أنشؤوا السفارة الجديدة. لكنني لم أحصل على أي شيء».

- «وماذا عن جميع الأشخاص الآخرين في الوحدة؟».

- «أفكر بهم جميعا بالطبع، لكنّ أيا منهم لم يكن مقربا مني مثل بيتر، فقد كنا أصدقاء. ومن بعدكِ أنتِ، كنتُ فقط أريد معرفة ما إذا كان كل شيء على ما يُرام».

- «قال لي بيتر إنه أنقذ حياتك».

- «أجل، أنا مدينةٌ له بذلك. وفي الحقيقة ربما حدث ذلك أكثر من مرة. فقد استخدمتْ وحدتُه الأسلحة بالفعل، أما نحن فكنا نحمل أسلحتنا مثلما نحمل حقائب اليد».

لا بد أن تعابير وجهي كشفت عن شعوري بالقلق لأن شارون قالت: «أنا آسفة، أحيانا يساورني شعور بأنني إذا لم أنظر للأمور بحس من الدعابة، فإن شيئا قبيحا قد يتجذر في داخلي. أنا واثقة من أنكِ تفهمينني».

قلتُ لها إنني أفهم.

- «أنتِ تعلمين في نهاية المطاف أنكِ أكبر قصة نجاح حققتُها».

فكرتُ بكلام شارون، وبصور عمليات حفر المقابر، وبجميع الأشخاص الآخرين الذين لم يتم العثور عليهم، مثل والديّ.

Twitter: @ketab_n

- «لا أعلم إن كانت كلمة (نجاح) هي الأنسب».

ابتسمتْ شارون ابتسامة خفيفة.

- «ربما لا. الحقيقة هي أنني لا أعتقد أنني سأتعافى أبدا من هول الأشياء التي رأيتُها هناك». توقفتْ برهة ثم أضافت: «لكن يجب عليّ ألا أحمِّلك مسؤولية ذلك».

قلتُ لها إن الأمور على ما يُرام.

- «كان بيتر سيفخر بكِ كثيرا».

تمتمتُ بعبارة شكرا ثم انصرفتُ إلى طبق السَّلَطة الخاص بي إلى أن ظهر النادل لحسن حظي ومعه الفاتورة. مددتُ يدي نحو محفظتي. كنتُ في العشرين من عمري ومع ذلك كان وضعي كطالبة لا يزال بمثابة مرحلة مؤقتة كنتُ غالبا أجد فيها أن التعامل مع «البالغين الحقيقيين» أمرٌ مربك. فكانوا يصدّونني عندما أعرض عليهم اقتسام الفاتورة ويعتبرون أن ذلك سخيف، وهو ما كان يجعلني أشعر بأنني أشبه بطفلة.

- «إياك أن تفكري حتى بمثل هذا الأمر».

- «هل أنتِ متأكدة؟» قلتُ لها، مع أنني هذه المرة قلتُها بنبرة امتنان؛ فالشيك الذي أحصل عليه لقاء عملي الجزئي بالتأكيد لا يستطيع تحمل مثل هذه الفاتورة الغالية.

هزّت شارون رأسها بقوة وهي تتجرع آخر رشفة نبيذ من كأسها.

في الخارج أدى هبوب النسمات الربيعية إلى تساقط رذاذ خفيف وبارد. فقامت شارون بشد حزام معطفها حولها بينما كنا نقف معا على الرصيف.

- «هل تراودك فكرة العودة؟» قالت لي.

Twitter: @ketab_n

- «حاولتُ ألا أفكر بهذا الأمر على الإطلاق إلى أن اتصلتِ»، قلتُ وأنا أحاول إغلاق معطفي أيضا، لكن السحّاب كان عالقا. «وهل تفكرين أنتِ بذلك؟» أضفتُ.

- «لا أعتقد أنها فكرة جيدة بالنسبة لي» قالت وهي تمد ذراعها كي توقف سيارة أجرة. «يبدو أن السماء ستمطر بغزارة، هل تحتاجين أن أوصلك إلى مكان ما؟» أضافت.

هززتُ رأسي بالنفي. ففي كل الأحول كنا ذاهبتين في اتجاهين مختلفين. توقفتْ سيارة أجرة أخرى عند الرصيف في الجهة الأخرى من الشارع.

- «أظن أني سأستقل تلك السيارة»، قالت لي.

تعانقنا بشيء من التكلف، ثم عبرت شارون الشارع، وهي لا تزال تحافظ على توازنها في الكعب العالي الذي ترتديه على الرغم من كون الإسفلت زلقا. راقبتُها وهي تركب السيارة، لكنها كانت منهمكة في كتابة شيء على هاتفها، فلم تنظر إليّ مرة أخرى.

أثناء سيري نحو النفق أحسستُ بأن مزاجي تعكّرَ، حيث خالطني شعورٌ يشبه الغضب دون أن أستطيع تحديد سبب لذلك. ربما كان ذلك ناتجا عن الشعور بالإحباط لأن فهمي للأمور كان لا يزال محدودا. فبدلا من وضوح الرؤية، وجدتُ أن بلوغي سن الرشد لم يجلب لي إلا الحيرة. وعند المنعطف التالي ألقيتُ البطاقات المفهرسة في حاوية القمامة.

Twitter: @ketab_n

(3)

كانـت المدينـة مزدحمـة ومبلّلـة ومتجهّمـة، وتنضـح بذلـك القنـوط الناجـم عن تلبُّد الجو الـذي كان يلازمها أحيانا خلال شـهر مارس. لقد مكثـتُ طويلا على الغداء، وكنتُ سـأتأخر عن موعدي مع البروفيسور أرييل.

حاولتُ أن أقدِّر ما إذا كان لدي وقتٌ كاف لأعود إلى غرفتي كي أحضـر الكتاب الذي أعارنـي إياه، لكنني قررتُ عدم القيام بذلك وتوجَّهتُ إلى مكتبه مباشرة.

كانـت القراءة إحدى السُّبل الوحيدة التـي أوجدتُ من خلالها لنفسـي مسـاحة للتفكير بالقارة والدولة اللتـين خلَّفتهما ورائي. ومع أني لم أحكِ للبروفيسور عن نفسي، فإنه بدا مدركا بأنني كنتُ غريبـة في هذا العالم، ولذلـك كان يعيرني الكتب التي ألَّفها كتّابٌ مـن أمثال كونديرا وكونراد وليفي ولفيفٌ من الأشـخاص الآخرين الذين تعرَّضوا للتهجير. كنتُ كلما قرأتُ كتابا أعود إلى مكتبه، حيث كان يحدِّثنـي عـن أولئك المؤلفـين بمنتهى الفصاحـة وبالتفصيل الممـل لدرجـة أنني أصبحـتُ مقتنعـة بأنهم جميعا كانـوا أصدقاء مقربـين له. كنتُ قد انتهيتُ للتو مـن قراءة كتاب (المهاجرون The Emigrants)، ومـع أن معظـم الأشـياء التي كانت تشـكِّل مصدر

Twitter: @ketab_n

قلق لي على مدار الأسبوع كانت مرتبطة بالأمم المتحدة، فإن هذا الكتاب لم يكن أخف وطأة منها في إثارة القلق لدي. لقد تابعتُ البطل المتجوِّل - الذي كان وحيدا ومتقلبَ المزاج في آن معا - وأنا أشعر طوال الوقت بالقلق من أن البروفيسور كان بطريقة ما يعرف عني أشياء تتجاوز تلك التي حرصتُ على إظهارها.

صعدتُ الدَّرج المؤدي إلى مكتبه مسرعة ثم قرعتُ الباب مع أنه كان نصف مفتوح. كانت الغرفة صغيرة وتتمتع بإضاءة تبعث على الدفء، في حين كانت الأرفف تغطي جميع جدرانها تقريبا. كما كانت هناك أكوام من الكتب الفائضة المصفوفة على الأرض. أما البروفيسور آرييل فكان يجلس إلى مكتبه في الوسط، وقد بدا ضئيلا وهزيلا بين كتبه.

- «تفضلي. اجلسي» قال بأسلوبه المرتعش. «كيف رأيتِ كتاب سيبالد؟» أضاف.

قمتُ بحمل بعض الأوراق عن الكرسي ووضعتُها على مكتبه. على الجدار الكائن خلفه كان يوجد ملصقٌ ضخم للشاعرة فيسوافا شيمبورسكا، التي جعلتني أقرأ أعمالها أيضا، وقد بدت وكأنها تراقب لقاءاتنا مثل ملاك حارس يدخن باستمرار.

- «لقد أثَّر بي»، قلتُ له.

- «أسلوبه النثري مذهل، أليس كذلك؟».

- «أجل».

كان ذلك صحيحا، لكنه لم يكن السبب الحقيقي.

- «ليس ذلك وحسب»، قلتُ، ثم أضفتُ «بل أيضا الشخصيات، فالالتقاء وجها لوجه بأناس لا يتعافون أبدا من الصدمات التي يتعرضون لها. لقد كان ذلك..».

Twitter: @ketab_n

- «أمرٌ محيِّر؟».

أومأتُ له بالإيجاب.

- «لكن سيبالد يشير بشكل دائم إلى عيوب الذاكرة. وليس المقصود بذلك ما نعتبره عادة (الدمغة) التي تخلِّفها صدمةٌ ما في الذهن. بل ذلك الوضوح المؤرِّق. ما الذي تفهمين منه؟».

كان ذلك أكثر شيء أشعرني بالخوف. ماذا لو أن ما تخزَّن في ذاكرتي عن اللحظات الأخيرة لوالديّ كان كله خاطئا؟ كنتُ على يقين بأنني قد أبقيتُ تلك الذكريات منتعشة ومحمية في داخلي. كان صعبا عليّ تقبل فكرة أن شطحات اللاوعي قد تفسد تلك الذكريات القليلة التي تبقَّت لدي.

- «لكن ربما ليس الأمر كذلك بالنسبة للجميع. ربما بعض الناس يتذكرون»، قلتُ.

- «بالتأكيد. لكن ذلك ترافقه مشكلات خاصة به، أليس كذلك؟ خذي مثلا شخصية أمبروس أديلوارث».

- «عمه؟».

- «فقد كانت تؤرقه تلك الصور الواضحة عن ماضيه..».

- «فيختار العلاج بالصدمة الكهربائية ليتخلص من الأفكار التي تراوده».

- «بالضبط».

- «إذن ما الذي يُفترض بي.. أقصد ما الذي يُفترض بنا أن نستشفَّه من ذلك؟».

- «الأمران سيان، سواء استشفَّينا أم لم نستشف».

ابتسم قليلا، ثم التفتَ لينظر عبر النافذة. بدأ يتحدث عن وفاة سيبالد التي حدثت مؤخرا، حيث نتجت عن حادث سيارة

Twitter: @ketab_n

مشكوك في أسبابه، لكنني كنتُ أشعر بالضيق بشكل جعلني غير قادرة على التفاعل معه.

- «آنا، هل أنتِ على ما يُرام؟ تبدين شاحبة بعض الشيء؟» قال لي، وقد لفظ اسمي على الطريقة الكرواتية، وليس وفقا للطريقة التي يلفظه بها معظم الأميركيين.

- «أنا بخير، آسفة»، قلتُ له، ثم أضفتُ «فقط متوعكة قليلا».

- «إن سيبالد يترك ذلك الأثر على الناس، والذي أسميه: نوبة اليأس».

حاولتُ أن أحتج لكوني لم أكن أريده أن يعتقد بأني لستُ أهلا للواجبات التي يكلفنيها، لكنه استدار وحدَّق مباشرة بي فالتزمتُ الصمت.

- «هل لكِ أن تقولي لي مرة أخرى من أين أنتِ؟».

- «أنا، حسنا، تقصد جنسيتي الأصلية؟».

لم أكن قد قلتُ له في السابق، كما لم أكن أريد أن أقول، لكن الأمر خرج مني بطريقة ما.

- «أنا من زغرب في كرواتيا».

شعور غريبٌ بانعدام الوزن رافق قولي الحقيقة. تمسَّكتُ بجانب الكرسي كما لو أنني كنتُ على وشك أن يجرفني تيارٌ ما بعيدا.

لم يبدُ البروفيسور آرييل مندهشا.

- «اممم»، همهمَ، ثم أضاف «كنتُ أعتقد ذلك».

- «ماذا؟».

- «كان لدي شعور عميق، ليس كرواتيا بالضبط، بل من مكان آخر، مع أنه يبدو منطقيا لي أن تكوني من إحدى دول البلقان».

Twitter: @ketab_n

- «لكن كيف عرفت؟».

- «روحك أكبر من جسدك. كان يجب أن أعرف، لأنني أنا أيضا توجد لدي مثل هذه الروح. والسبب الآخر هو أنك تقرئين كثيرا».

غمزَ عينه، فسمحتُ لنفسي أن أردَّ عليه بابتسامة خفيفة.

- «الخبر السار هو أن أصدقاءك سيلحقون بك»، أضاف.

التف بالكرسي الدوّار نحو رف الكتب الموجود في الزاوية.

- «الآن، بالنسبة للأسبوع القادم، هل تستطيعين تدبُّر كتاب آخر لسيبالد؟ توجد لدي آخر أعماله هنا في مكان ما..». قال، ثم وقف ببطء وأنزل الكتاب عن الرف بإصبعه الهزيلة.

- «ها هو، إنه رواية: أوسترليتز»، أضاف.

- «آسفة، لم أحضر لك الكتاب الآخر. لقد كنتُ في اجتماع، وأتيتُ إلى هنا مباشرة».

- «لا تكترثي لذلك. احتفظي به في كل الأحوال. أنا متأكد أنه توجد لدي نسخةٌ أخرى منه».

مشى بخطى قصيرة حول مكتبه ثم وضع الكتاب في حضني.

- «تابعي إذن».

- «شكرا لك»، قلتُ.

لكن شيئا لفتَ انتباهه وقد أصبح بعيدا الآن، حيث راحَ يمرِّر أصابعه على ظهر كتاب كما لو أنه كان مكتوبا بلغة بريل، أو أنه يد امرأة وقع في حبها منذ زمن طويل، لذلك أغلقتُ باب مكتبه الثقيل خلفي.

عدتُ إلى مسكني، وقد شعرتُ بالسرور عندما وجدتُ الممرات هادئة وزميلتي في الغرفة قد غادرت. خطر في بالي أن أتصل

Twitter: @ketab_n

ببرايان، لكني لم أستطع حمل نفسي على القيام بذلك. الآن وبعد أن أخبرتُ البروفيسور آرييل ولو قليلا عن نفسي، شعرتُ بأنني أصبحتُ مكشوفة على نحو خطير. وفي حال رأيتُ برايان قد أقوم بإخباره أيضا، حيث إنني لم أكن مستعدة لمواجهة عواقب الخداع الذي مارستُه. لكني بدلا من ذلك، أحضرتُ حقيبة الظهر الكبيرة الخاصة برياضة التزلج، وهي ما تبقى لدي من حقبة التمرد التي عشتُها في مرحلة الدراسة الثانوية، وملأتُها بالواجبات وبكتاب سيبالد وبالملابس المتسخة، ثم غادرتُ. عندما وصلتُ إلى محطة بنّ، اشتريتُ كيسا من البوشار المملَّح بإفراط بدولار واحد ثم ركبتُ أول قطار متجه نحو بنسلفانيا.

عندما ركبْتُ الطيارة التجارية في فرانكفورت لم أكن قد نمتُ منذ سنتين وكنتُ خائفة من كل شيء تقريبا. كنتُ خائفة من الضغط في أذنيّ أثناء الإقلاع، ومن التقاط العدوى من الرجل الذي كان يتقيأ في كيس ورقي في الممر، ومن كل ما كان ينتظرني على الجانب الآخر من المحيط.

عندما هبطنا تناوب مضيفو الطائرة على قراءة بطاقة الخطوط الجوية المعلَّقة حول عنقي كما لو أنني كنتُ حقيبة مفقودة. أمسكتْ إحدى المضيفات بمعصمي وسحبتني نحو الجمارك، حيث تنقلتُ عبر سلسلة من الطوابير المطوَّقة بالحبال ووقَّعتُ اسمي على استمارة لم أستطع قراءتها. لفت انتباهها إعلانٌ أذيع عبر جهاز التخاطب الداخلي، فحدقتْ بساعة الجدار ثم نقرتْ قدمها على الأرض. قام رجلٌ يحمل العديد من النياشين بالتدقيق على جواز سفري، متأملا تأشيرتي المؤقتة ذات الدبوس المعقوف. وشاهدتُ خلفه الحقائب وهي تلتف حول

Twitter: @ketab_n

مسار أسود. وجَّه الضابط لي سؤالا، حسب ما فهمتُ منه، حول ما إذا كنتُ قد ذهبتُ مؤخرا إلى مزرعة ما. نظرتُ إلى نياشينه وهززتُ رأسي بالنفي.

ختم الضابط جواز سفري وأرسلني إلى الأمام، في حين قالت لي مضيفة الطائرة: وداعا. وعند مسار تسلُّم الحقائب وجدتُ حقيبتي ثم لحقتُ بالجميع نحو مجموعة من الأبواب الزجاجية. بدت الأبواب مُحكمة الإغلاق، ولم تكن مزوَّدة بمقابض أو مسكات، لكن لم يبدُ لي أن أي شخص كان مكترثا لهذا الأمر. خطر في بالي أن أصرخ بأعلى صوتي كي أنبِّه الجميع، لكنني لم أعرف كيف سأقول ذلك باللغة الإنجليزية. ومع اندفاع الذين كانوا في المقدمة نحو الأبواب أطبقتُ عيني، مترقبة رذاذا من الزجاج المكسور. بيد أن الأبواب فُتحت وحدها في اللحظة الأخيرة بشكل سحري.

على الجانب الآخر، كان هناك مجموعات من الأشخاص المشتاقين لمحبيهم متحلقة حول المخرج. ولدٌ صغير يتشبَّثُ بساق أمه؛ صديقان يتعانقان ويقفزان ثم يصرخان في أذنَي بعضهما. وخلف هؤلاء كان هناك رجال يرتدون بدلات رسمية ويجوبون الردهة حاملين لافتات كُتب عليها أسماء بعض الأشخاص. تقدمْتُ بين الحشود، وقد جعلتُ رأسي مائلا كي أحدث توازنا مع ذلك الشعور بالدوار الذي كان يعتمل بداخلي، وذلك إلى أن التقيتُ برجل يحمل طفلة كانت تشبه أختي.

نظر الرجل نحو الأسفل، وللحظة ما لم يكن واضحا من منا كان خائفا أكثر. أما السيدة التي بجانبه - والتي كانت ترفع لافتة تحمل اسمي حيث لم تكن علامات الترقيم فيه موضوعة

Twitter: @ketab_n

في أماكنها الصحيحة - فكانت تبحث بين حفنة من الأوراق. كانت امرأة قصيرة وسمراء، والابتسامة مرسومة على وجهها.

- «راهيلا؟» قلتُ وأنا أنظر إلى تلك الفتاة الصغيرة ذات الشعر المجعَّد التي تتمتع بصحة جيدة وهي جاثمة على منحنى ذراع ذلك الرجل. لقد كبرتْ كثيرا لدرجة أنني لم أكد أتعرف عليها، باستثناء المنطقة المحيطة بالعينين، حيث كنا دائما نشبه بعضنا.

- «كنتُ أعتقد أنه يُفترض بالخطوط الجوية أن تحضرك، حسنا» توقفتْ المرأة بعد أن عثرت على الورقة التي كانت تبحث عنها، ثم تابعتْ وهي تقرأ بتلعثم من الورقة باللغة الكرواتية قائلة: «أهلا بكِ في أميركا يا آنا».

- «شكرا لك»، قلتُ لها باللغة الكرواتية أيضا.

حاولتُ مرة أخرى أن أتذكر من خلال الدروس التي أخذتُها في المدرسة أي كلمات إنجليزية يمكن أن تتناسب مع بعضها ويكون لها معنى. انحنتْ المرأة وقبَّلتني.

- «سعيدةٌ جدا بلقائكِ»، قالت.

كان اسمهما جاك ولورا، وقد قالا لي إنه لا بأس أن أناديهما بهذين الاسمين. بيد أن راهيلا كانت تناديهما «ماما» و«بابا» بصوتها الطفولي ذي النبرة العالية، وخلال الأشهر القليلة الأولى لم أنادهما بأي اسم على الإطلاق.

عندما وصلتُ إلى ترينتون بدَّلتُ القطار ثم خلدتُ للنوم في مقعد جلدي غائر في قطار تابع لهيئة النقل في جنوب شرق بنسلفانيا. حلمتُ بالجثث، التي كانت منذ سنوات تأتيني على شكل كوابيس، وذلك عندما وصلتُ للمرة الأولى إلى أميركا. في

Twitter: @ketab_n

تلك الأحلام كنتُ أرى نفسي وأنا أقفز من الحواف الصخرية لأحد الجروف في قرية صيد السمك التي يوجد فيها منزل بيتر ومارينا، بعد ذلك يتغير اتجاهي وأنا في الجو، إذ بدلا من الاتجاه نحو مياه البحر الأدرياتيكي الدافئة أجد نفسي متجهة نحو كومة من الجثث المُنتفخة. بعد ذلك، وأثناء سقوطي نحو الأسفل، يسري في داخلي شعور قوي بالوخز يمتد من عنقي إلى مؤخرة ركبتيّ ما يؤدي إلى إحداث خضّة في جسدي تجعلني أستيقظ على الفور. توقّف القطار في المحطة فصاح مسؤول خدمات الركاب: «الموقف الأخير!» فجمعتُ أشيائي.

على الرصيف راقبتُ القطار وهو يستعد للعودة، كان جزءٌ مني يتمنى لو أنني أستطيع العودة على متنه. مشيتُ بتثاقل في الشارع الرئيسي للمدينة، الذي توجد على جوانبه مراكز تسوق متداخلة مع بعضها؛ فقد كان هناك متجرٌ من طابقين للحيوانات الأليفة، ومتجر كي مارت الذي عملتُ فيه خلال عطلات الصيف، وجميع المطاعم الرئيسية للوجبات السريعة، بالإضافة إلى شركة فاكيوم مانيا لتغليف الأغذية.

أحيانا كنتُ أشعر بالذنب نظرا لأن جاك ولورا انتقلا إلى هنا بسببي أنا وراهيلا. وتساءلتُ ما إذا كانا يشتاقان للحياة التي عاشاها قبل أن يلتقيا بنا. فقد كانا أيضا من سكان المدينة، وكانت شقتهما تكفي لعروسين متزوجين حديثا وللطفل الذي لم يستطيعا إنجابه. بعد ذلك وصلتْ راهيلا، التي تعافت خلال فترة قصيرة وأصبحت تمتلك خدودا وردية كما أنها بدأت تكبر، ولم تكن خزانة الأدراج الخاصة بها تتسع لكل ألعابها وملابسها، ما حدا بهم إلى تسخير أجزاء أخرى من الأثاث لهذا الغرض.

Twitter: @ketab_n

بالطبع كانا يعلمان أنه سيتعين عليهما إعادتها. لكن بوجودها صارا يرغبان بالأشياء التي كانا دائما يعتبران أنه لا يرغب بها إلا الأشخاص الأكبر منهما سنا. فقد اشتريا قطعة من الأرض تقع على هضبة بثمن رخيص، حيث كان مقررا أن يتم تحويلها إلى حي سكني، ثم شرعا يبنيان عليها.

عندما بدأ البناء لم أكن أمثّل بالنسبة لوالديّ الأميركيين أي شيء سوى الشقيقة الكبرى التي يوجد اسمها ضمن ملف ميدي ميشن الخاص براهيلا. بعد ذلك، وقبل أن يتم الانتهاء من البناء، كنتُ قد أصبحتُ هناك.

- «أي غرفة نوم تريدين؟» سألتْني لورا في اليوم الذي انتقلنا فيه إلى المنزل الجديد.

كانت فكرة اختيار غرفة نوم خاصة بي تشكل مفهوما غريبا بالنسبة لي، فآثرتُ الصمت، اعتقادا مني بأنني أسأتُ الفهم. في النهاية انتقيتُ الغرفة ذات النافذة الأكبر حجما لأنها كانت تذكّرني بتلك الشرفة في زغرب. كانت الهضبة تطل على مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، وأيضا على الغابة الكائنة خلف تلك الأراضي. وعندما كان أفراد العائلة والأصدقاء يأتون لزيارة المنزل الجديد، كانت تلفت نظرهم جميعا تلك الإطلالة الجميلة. لكن خلال تلك الأشهر الأولى، كنتُ أمضي كل يوم وأنا أبحث في خط الأفق عن مبنى، حيث كنتُ أتشوّقُ لوجود شيء قذر أو معدني يكسر رتابة تلك الخضرة الداكنة. على الرغم من مضي الأشهر والسنوات، لم أتعوَّد يوما على الغابة، ولا حتى خلال النهار، عندما كان ضوء الشمس يمر من خلال أوراق الشجر. كنتُ أختلق الأعذار

Twitter: @ketab_n

كي أنسحب من ألعاب المطاردة، التي كانت تجري في الحي، وذلك لأنها كانت تضطرني للاقتراب كثيرا من أطراف الغابة. وأثناء الليل كان يبدو أن الأشجار تميل نحو الداخل، ما يجعل ظلالها تنعكس على جدار غرفتي. إنها أشجار كستناء، قال لي جاك ذات يوم عندما سألتُه عنها بعد أن أمضيتُ ليلة لم أتمكن من النوم خلالها بسبب انهماكي في تعقب ظلالها من خلال نافذتي. حاولتُ أن أقنع نفسي بأنها تشبه غابة ستريبور، لكنني لم أكن أستطيع التفكير بأي شيء آخر سوى بأشجار السنديان البيضاء وجوز البلوط المتعفن في ذلك المكان الذي سقط فيه والداي.

لم تكن أميركا تشبه الصورة التي تُقدَّم لنا عنها من خلال الأفلام. كانت تلك الصورة صحيحة فيما يتعلق بمطاعم ماكدونالدز على الأقل؛ فقد كانت منتشرة في كل مكان. أما مظاهر الشجاعة والنخوة، وتلك الروح المغامرة التي يتم الترويج لها في أفلام الغرب الأميركي، التي تحظى بشعبية كبيرة في يوغوسلافيا، فقد كانت غائبة من حياة الناس في غاردنفيل. في زغرب كنتُ دائما أتحمس للقيام برحلة في السيارة، أما في غاردنفيل فقد كنا نحتاج للسيارة للقيام بأي شيء، حتى لشراء البقالة. لم تكن هناك مخابز منتشرة في كل مكان، فقد كان كل شيء في السوبرماركت متوفرا على شكل شرائح ومغلفا بشكل مسبق. في المتاجر التي كانت أكبر من أي متجر شاهدتُه في أوروبا، والتي كانت تحتوي على كل شيء، كنتُ أسير خلف لورا وأنا غير مصدِّقة بأنني لا أستطيع العثور على رغيف من الخبز الطازج.

Twitter: @ketab_n

كانت الثقافة مُحافظة على نحو ملحوظ، حتى بالمقارنة مع التقاليد المزدوجة للشيوعية والكاثوليكية في موطني الأصلي. ففي كرواتيا كان طبيعيا أن تجد صورا لنساء عاريات الصدور على أغلفة الجرائد والمجلات، فضلا عن أن هذا الأمر كان منتشرا على الشواطئ. أما في أميركا، فإن أي نوع من العري كان يُعتبر أمرا معيبا. في زغرب كنتُ أركض في الشوارع دون أي قيود وأشتري السجائر والكحول للكبار في السن. أما في غاردنفيل، فكان الكبار ينشرون الخوف بشكل دائم من وجود خاطفين، ولذلك كنتُ أبقى قريبة من المنزل.

كانت الأحاديث، وبالأخص تلك المتعلقة بي، تُصاغ بعناية. فبعد تلاشي الهبّات الأولى من الفضول، لم يتحدث أحدٌ معي نهائيا عن الماضي الذي عشتُه، حتى ضمن العائلة. وقد طوَّرتْ لورا عبارات مخفَّفة عن «المشكلات» التي مررتُ بها، حيث اختُزلت الحرب ومجازرها بعبارتي «الاضطراب» و«الأحداث المؤسفة».

أمضيتُ أيام إجازتي الصيفية الأولى وأنا ملازمة راهيلا، وقد بات ذلك أصعب الآن بما أنها أصبحت قادرة على المشي. كنتُ أجلس في كرسي صغير وأتظاهر بأنني آكل الطعام البلاستيكي الذي أعدَّتْه في مطبخها البلاستيكي، أو أتابعها وهي تتجول في مدخل المنزل على سيارتها التي يتم تحريكها بالقدمين على طريقة سيارات فلينتستون، وأحرص كل الحرص على ألا أجعلها تغيب عن ناظري. وأحيانا كنتُ أهمس لها باللغة الكرواتية لأرى ما إذا كانت تتذكر أي شيء. كانت تكرِّر كلمة أو اثنتين، لكن الأشياء التي كانت تتفوه بها من تلقاء نفسها كانت تبدو أقرب إلى اللغة الإنجليزية.

Twitter: @ketab_n

عندما كان يحين وقتُ نومها، كنتُ أختبئ في السرداب الضيق الكائن تحت مظلة المدخل لأنظر إلى كتبها المصوَّرة، التي كنتُ أمارس اللغة الإنجليزية من خلالها، فأقوم بالوصل بين الصور والكلمات المناسبة. وأحيانا كنتُ أتصفح الصحيفة بحثا عن عناوين رئيسية تحتوي على اسم «كرواتيا» أو «صربيا»، حيث كنتُ ألصقها في دفتر ثم أخبئه تحت سريري. وعندما كانت لورا تتمكن من استدراجي للخروج من ذلك المكان الضيق، كانت تتحدث معي بصوتٍ عال، كما لو أن درجة قوة الصوت هي التي كانت تقف حائلا بيني وبين فهم ما يُقال. وبما أنني درستُ اللغة الإنجليزية في جميع أيام الدراسة، فإني كنتُ أستطيع فهم معظم ما تقوله، بيد أني كنتُ أجد صعوبة في استحضار الكلمات المناسبة بالترتيب المناسب وبالسرعة الكافية لكي أرد. اشترتْ لي كتب تدريبات خاصة بالمعاهد الصيفية، حيث عكفتُ على حل جميع المسائل في الرياضيات، وفي الاستيعاب المقروء حاولتُ تخمين الإجابات الصحيحة لجميع الأسئلة الخاصة بتعبئة الفراغات، وذلك إلى أن أكملتُ ما يكفي من الصفحات كي تعلن بأنني قد أنهيت المهمة. بعد ذلك كنتُ أعود إلى الركن الخاص بي تحت مظلة المدخل وأقاوم رغبتي في النوم. كنتُ أبقى مستيقظة خلال معظم الليالي، وهذا كان يجعلني أشعر بالتعب بشكل دائم. فالنوم كان يعني لي رؤية الأحلام، ولذلك كنتُ أتجنبه.

في عصر أحد الأيام قمنا بالشواء في الفناء الخلفي الجديد. وعندما حلَّ الظلام سمعتُ دوي انفجارات على بعدِ مسافة منا.

- «هل ستمطر؟» قلتُ.

Twitter: @ketab_n

- «لا أعتقد ذلك يا صغيرتي»، قال جاك.

كان على حق. فالسماء كانت خالية من الغيوم.

بعد ذلك بدأت الانفجارات. وامتلأ الأفق بدفقات ملوّنة بالأحمر والبرتقالي، تبعتْها سلسلة من الفرقعات العنيفة. فصرختُ وانطلقتُ نحو المنزل، ما أدى إلى حدوث اصطدام جانبي خفيف بيني وبين جاك.

- «مهلا، آنا! انتظري!» قال لي، ثم أضاف «إنه الرابع من يوليو/ تموز».

لم أستطع فهم ما علاقة هذا التاريخ بالغارة الجوية، ولم أكن أنوي التوقف لأتبين ما الذي يجري. نزلتُ تحت المدخل ووضعتُ رأسي بين ركبتيَّ وغطيتُ رقبتي بذراعيَّ مثلما تعلّمنا في المدرسة أن نفعل عندما لم يكن لدينا الوقت الكافي للذهاب إلى الملجأ.

- «آنا، الأمور بخير»، قال لي بعد أن انبطح على بطنه وحشر رأسه داخل السرداب الضيق. «إنه الرابع من يوليو. هذا احتفال بنهاية حربنا. إنها مجرد ألعاب نارية. للتسلية فقط»، أضاف.

- «وهل لديكم حرب؟».

- «لا. حسنا، نعم. لكن ذلك كان منذ زمن بعيد. منذ مئات السنين».

أدى انبطاحه على الأرض إلى تلطُّخ قميصه من جهة الكتف بلون العشب الأخضر، أما نظارته فأصبحتْ مائلة على وجهه.

- «ألعاب نارية؟».

- «حسنا، أنت تعرفين صوت الانفجار بمممم» وأومأ بحركة من يديه لمحاكاة صوت الانفجار «والألوان الجميلة».

Twitter: @ketab_n

- «كان يوجـد لدينـا مثل هذا الأمر عشـية رأس السـنة. كان ذلك قبل الحرب».

- «أجل، هذا صحيح، بهدف الاحتفال».

مددتُ يدي وعدَّلتُ وضع نظارته على قصبة أنفه.

- «شـكرا لـك»، قـال لي، وبعد قليل وضع يـده على ركبتي ثم أضاف: «إذن الأمور بخير، أليس كذلك؟».

أومأتُ له برأسي موافقة.

- «هل تودين الذهاب للمشاهدة؟».

- «لا، أرجوك»، قلتُ له مرفقة ذلك بإيماءة من رأسـي تعبيرا عن رفضي للفكرة.

- «حسنا، ستجدينني هناك في حال غيَّرتِ رأيكِ».

ضممـتُ ركبتـيَّ إلى صـدري وراقبتُه وهو يعـودِ إلى الحفلة. مرَّر يديه في شـعره ثم همسَ بأمر ما للورا، التي أطلقت نظرات جانبيـة نحـو المدخل المظلَّـل، أما أنا فلم أخرج مـن هناك لبقية الليل.

فـي المنـزل خلعـتُ حذائي الـذي علق بـه الطـين ووقفتُ في المطبـخ. كانت هناك صـورٌ لي ولراهيلا موضوعـة ضمن إطارات مغناطيسـية صغيـرة وملصقة على الثلاجـة. كانت صور راهيلا تظهرها وهي طفلة رضيعة، ثم وهي تحبو، بعد ذلك وهي تمشي، وأخيـرا وهي تتخرج مـن الروضة. أما صوري فكانت ملتقطة لي وأنا في الصف السـادس والسـابع والثامن، حيث كان واضحا أن أسناني تمر في مرحلة انتقالية.

- «مَن هناك؟» قلتُ، لكن لم يكن أحدٌ هناك.

سحبتُ كرسيا من أمام الطاولة وأخذتها باتجاه أعلى خزانة

Twitter: @ketab_n

في المطبخ. كان صندوق الملفات الموجود بداخلها يحتوي على الوثائق الضرورية الخاصة بالأسرة؛ مثل عقد الزواج وصك الملكية وبطاقات الضمان الاجتماعي وسجلات التأمين، وهي الوثائق التي يُعتبر استصدار بديل لها في حال فقدانها أمرا في غاية الصعوبة. سحبتُ مغلفا بني اللون من خلف الصندوق، وقد كُتبَ عليه اسم «آنا» بشكل مائل وبقلم تخطيط ذي خط عريض.

في داخل المغلف، كان يوجد جواز سفري اليوغوسلافي منتهي الصلاحية إلى جانب جوازي الأميركي الذي لم يتم استخدامه بعد. وكانت الوثائق تؤكد أنني وُلدتُ فعلا في نيوجيرسي، كما كانت هناك صورتان يوجد في وسطهما أثر ثنية تعود إلى ما قبل عشر سنوات، وذلك عندما قمتُ بطيِّهما ووضعهما في جيبي على وجه السرعة.

الصورة الأولى كانت لعائلتي في زغرب وقد التُقطت في عيد الميلاد (الكريسماس) الذي سبق نشوب الحرب؛ في هذه الصورة كنتُ أجلس على الطاولة، بينما كانت راهيلا، الطفلة حديثة الولادة آنذاك، نائمة في حضني. أما والدتي ووالدي، اللذان كانا يحاولان تجهيز المؤقِّت الأوتوماتيكي للكاميرا، فقد دخلا في إطار الصورة على نحو متأخر، فصوَّرتْهما الكاميرا وهما في وضع الحركة، حيث كانت والدتي تقلب شعرها إلى الخلف، بينما كان والدي يُنزل يده ليضعها خلف خصرها. في إحدى المرات أخذتُ الصورة إلى محل للتصوير لأرى ما إذا كان بالإمكان ترميمها، فردَّ عليَّ الرجل من خلف مكتبه قائلا إنه ما من شيء يمكن القيام به لتصحيح الغشاوة في تلك الصورة.

Twitter: @ketab_n

أما الصورة الثانية فكانت لي وأنا على شـاطئ تيسـكا، حيث كان عمـري حينهـا سـنتين أو ثـلاث سـنوات، وكنتُ أرتدي سـترة صوفية أكبر من مقاسـي وأجلس القرفصـاء لألمس المياه الزرقاء الضاربة إلى الخضرة. وقد حدقتُ في عدسـة الكاميرا بابتسامة عريضـة. مما لا شـك فيـه أن والدي هـو الـذي كان يقف خلف الكاميـرا، وقـد تسـاءلتُ ما الـذي كان يقوله لي حتـى يجعلني أبتسم بتلك الطريقة.

نظـرتُ مـرة أخـرى إلـى صـورة والـديَّ وحاولـتُ أن أتخيـل شكلهما بشكل أدق. ربما كان سيبالد محقا بأن الزمن والصدمة قـد أضعفا ذاكرتي. في بعض الأحيان كنتُ أسـتطيع رؤية أجزاء منهما؛ عظام الوجنتين البارزة عند والدتي والحاجبين الكثيفين الشقراوين لدى والدي، لكنني لم أكن أستطيع إعطاء أمر تكبير لتلك اللحظات من الوضوح كما لم أكن أسـتطيع التشـبث بها. لقد نسـيتُ كيف كانت رائحتهما في ذلك الزمن البعيد. لم أعد قادرة على اسـتحضار رائحة صابون والدي أو عطر والدتي. كنتُ أنساهما على نحو بطيء.

سـمعتُ صوت إغـلاق الباب الذي كان قويا بشـكل لن تحبذه لـورا، فعلمتُ أن راهيلا موجودة في المنـزل. كانت حقيبة ظهرها لا تـزال معلَّقـة على أحد كتفيها، لكنها لـم تلاحظ وجودي، بل أدخلتْ رأسها مباشرة في أعمق قسم من حجرة التجميد وبدأتْ بفرز المصاصات المثلجة ذات العلامة التجارية الرخيصة. أمسكتُ بالصـور والمغلف وأعـدتُ الصندوق إلى الرف، ثم أغلقتُ الخزانة وقفزتُ عن الكرسي.

- «هـاي، راهيـلا!» قلـتُ، لكنهـا لـم تُجـبْ. وعندمـا ناديتُها

Twitter: @ketab_n

«راشيل!» سحبتْ رأسها من دُرج حجرة التجميد.

- «هاي، كيف كانت المدرسة؟» قلتُ.

كانت راهيلا في الصف الخامس الآن، تماما مثلما كنتُ أنا عندما أصابها المرض.

- «أحب فقط المصاصات بنكهة العنب»، قالت لي وهي تنزع الغلاف الملوَّن، ثم أضافت: «أو بنكهة الشوكولا. تصرفتْ الآنسة تومبسون بمنتهى الحماقة اليوم. فقد جعلتنا نؤدي اختبارات في جدول الضرب خلال الاستراحة لأن داني ووكر لا يتوقف عن استخدام إبطه لإصدار الأصوات المعيبة خلال إذاعة الإعلانات الصباحية. آه، ما الذي تفعلينه هنا؟ أمي لم تقل إنك قادمة».

- «هي لا تعلم»، قلتُ لها، ثم أضفتُ «أقصد إنها مفاجأة».

- «هل تريدين المجيء لحضور مباراتي في كرة القدم غدا؟ من تلك؟» قالت موجِّهة المصاصة إلى الصورة التي في يدي. كانت المصاصة قد بدأت تسيل من الغلاف.

- «لا أحد»، قلتُ، ثم أضفتُ «إنكِ تجعلين المصاصة تسيل على قميصك».

- «اللعنة»، قالت.

بلَّلتْ راهيلا زاوية منديل للأطباق ووضعتْهُ برفق على البقعة الكائنة على صدرها بينما صعدتُ أنا إلى غرفتي في الدور العلوي.

- «لا تخبري أمي بأنني قلتُ (اللعنة)» نادتْ راهيلا من المطبخ.

لقد درستُ في نفس المدرسة الابتدائية التي تدرس فيها راهيلا، علما أنه لم يكن تسجيلي فيها أمرا سهلا. مع انقضاء

Twitter: @ketab_n

فصل الصيف تناهت إلى مسامعي بعض الأحاديث القلقة التي دارت بين جاك ولورا حول السنة الدراسية القادمة. فتسجيلي في المدرسة كان سيسبب مشكلة، كما استنتجتُ، وذلك لأني دخلتُ البلاد بتأشيرة زيارة مزوَّرة. فقد كان من الصعب تسجيل شخص في المدرسة بينما هو عمليا غير موجود. شاهدتُ لورا وهي تجلس بانتظار أن يتم إيصالها بالخط الساخن للتأمين وكانت تنظر إلى نسخ مصوَّرة من كتاب خاص ببوليسات التأمين. لكن بدا أن جميع الطرق سُدَّتْ أمامها. وفي إحدى الليالي، قام جاك، نتيجة شعوره بالإحباط، بإزالة كل أوراق البحث الخاصة بها عن الطاولة ثم رماها في سلة القمامة. لم ينبس ببنت شفة بعد ذلك، حتى عندما صرختْ لورا عليه، بل انسحب إلى السرداب آخذا معه التلفون، حيث بقي هناك إلى ما بعد إرسالي إلى سريري بوقت طويل.

كان لدى جاك أعمامٌ يعملون في مجال البناء، وأعمام يمتلكون مضامير للسباق، وأعمام يشتغلون كعمال تنظيفات، وعم يعمل رئيسا لدائرة إطفاء، وحتى إن أحد أعمامه كان يشغل منصب رئيس بلدية لمدينة صغيرة. كما كان لديه أعمام في السجن.

كانوا يأتون في الليل، ويرتدون ملابس غريبة. كان العم سال يرتدي ملابس سوداء بالكامل، وكانت هناك ميدالية ضخمة لوجه يسوع المسيح تتدلى من سلسلة ذهبية وتغوص ضمن خصلة من شعر صدره الكثيف. أما جونيور فكان في إحدى الليالي يلبس بدلة حمراء وحذاء معالجا بألسنة اللهب، ثم في الليلة التالية يرتدي بدلة وردية وحذاء أبيض مصنوعا من جلد

Twitter: @ketab_n

الأفعى. كانوا يدخنون في المنزل. أما لورا فكانت أسنانها تصدر صريرا كلما فتحوا أغطية ولّاعاتهم. كانوا يجلبون الهدايا لي ولراهيلا، مثل ساعات اليد الذهبية والمطاوي، والتي كانت لورا تضعها على الأرفف العالية «للاحتفاظ بها إلى أن تبلغوا من العمر ما يكفي»، على حد قولها.

كان الأعمام يجتمعون واقفين مشكّلين ما يشبه النضوة حول طاولة المطبخ، ويتحدثون بخفة دم عن عدم قدرة أي واحد منهم على الوقوف وظهره إلى الباب. وكانوا يستخدمون في حديثهم خليطا مشوشا من الإنجليزية والإيطالية بلهجة نيوجيرسي، وكانوا يضحكون بصوت عال. في كل ليلة كان الحديث ينتهي بنفس الطريقة، حيث يقول أحد الأعمام «سوف أهتم بهذا الأمر من أجلك»، ثم يربِّت لجاك على ظهره. كانوا يخرجون من الباب الأمامي، الذي لم يكن يستخدمه أحد، ويركبون سياراتهم الكاديلاك، ثم ينطلقون أسفل الهضبة والمصابيح الأمامية مطفأة، مخلِّفين بقع زيت فضية على مدخلنا الجديد.

وبعد مغادرتهم كانت لورا تفتح النوافذ لتهوية المنزل من آثار الدخان في حين كان جاك يجلس على حافة الأريكة، ويخلع نظارته ويمرر يديه فوق وجهه المُحمرّ. بعد ذلك يمسك بغيتاره ويبدأ بالعزف حتى يعود إليه لونه الطبيعي. أما لورا، التي كانت تنجح عادة في جعل راهيلا تخلد إلى النوم قبل قدومهم، فكانت تجعلني أهرب إلى الدور العلوي. كنتُ أصعد إلى منتصف الدَّرج، ثم أجلس لأراقب ما يجري من خلال الفتحات الموجودة في الدرابزين، محاولة فك شيفرة معنى تلك الزيارات، لكن كل ما كنتُ أفهمه هو ذلك الجدل الذي يدور بين جاك ولورا حول

Twitter: @ketab_n

ما إذا كان طلب المساعدة من الأعمام يمثِّل فكرة سديدة أم لا.

لم أتفوه بأية كلمة خلال الشهر الأول من الدراسة، بل كنتُ أجلس في الصف وأمضي فترة الاستراحة في التجول حول أطراف الإسفلت إلى أن ينبعث صوت صافرة مدوية فنضطر للعودة. في أحد الأيام من شهر أكتوبر، وبعد أسابيع من الصبر، طلبتْ مني المعلِّمة أن أقرأ فقرة من الكتاب الذي كنا ندرس فيه. أدى تلعثمي في القراءة إلى إنتاج سلسلة من الكلمات غير المفهومة، فبدأ زملائي في الصف يقهقهون. عندما وصلتُ إلى المنزل، مزَّقتُ جميع الصفحات من ذلك الكتاب وحاولتُ تصريفها في المرحاض.

سألني كلٌّ من لورا وجاك ما إذا كنتُ أريد الانضمام إلى فريق لكرة القدم. وبما أنهما استخدما كلمة سوكر soccer بدلا من كلمة فوتبول football فإني لم أفهم في البداية ما الذي يقصدانه، ولكنها كانت مفاجأة سارة بالنسبة لي عندما وصلتُ إلى أول جلسة تدريب واكتشفتُ أنها نفس لعبة كرة القدم التي أحبها. لكن هذا الشعور بالإثارة لم يدم طويلا، حيث نجح الأميركيون في إفساد هذه اللعبة بسبب كثرة القوانين التي أدخلوها عليها؛ فقد وضعني المدرب في خط الدفاع وقال لي إنه لا يُفترض بي أن أعبر خط المنتصف أو أن أحاول تسجيل هدف. كما أدى وجود العشب المشذَّب بعناية والشبكات الثابتة إلى جعل هذه اللعبة المفضلة لدي غريبة عني.

- «أعتقد أنني لا أحب كرة القدم»، قلتُ للورا.

- «لا بأس»، قالت لي، ثم انحنت باتجاهي وهمست لي: «وأنا أيضا أكره الألعاب الرياضية».

Twitter: @ketab_n

خطـر فـي بالي أن أخبرها بأنني كنتُ أحب الرياضة بالفعل، لكنني لم أشـأ المغامرة بقول شـيء قد يرغمني علـى العودة إلى فريق كرة القدم، لذلك رفعتُ لها إبهامي كدليل على استحساني لما تقول، ولم نتطرق إلى هذا الموضوع مرة أخرى.

كنتُ أمضي وقت فراغي في كتابة الرسـائل إلى لوقا. أخبرتُه عـن غرابـة اللغة الإنجليزيـة والتدنيـس الذي تعرضـت له كرة القـدم. وكنـتُ أدوِّن الملاحظـات علـى قفـا الواجبـات التـي كنتُ أُكلَّفها وذلك خلال الاستراحة بين الحصص الدراسية، كما كنتُ أجلس في سريري ومعي الكثير من الورق الذي كنتُ أسنده على مجلدات قديمة من (موسـوعة الكتاب العالمي). لم أستطع تذكر عنوان بيتر ومارينا، ولذلك كنتُ أكتب الرسائل لهما وأرسلها إلى لوقـا أيضـا. لم أتلـقَّ أي ردود. مع ذلك واصلـتُ الكتابة، وظللتُ أبلِّـل طوابـع البريـد الجـوي بلعابـي، معتبـرة أن هـذا الصمت الطويل من قبل لوقا لم يكن يعني أن هناك خطبا ما.

كانـت معلمتـي ترسـل إلى المنـزل تقارير عـن كل حركة أقوم بهـا في المدرسـة؛ حـول كيفية تمضيتـي لأوقات الاسـتراحة في الخربشـة على الورق، ورفضـي التواصل مع الأطفـال الآخرين، وعـدم رفـع يـدي في الصـف. كمـا كانت ترسـلني إلى مستشـار الإرشـاد. كل ذلـك أدى إلـى إثـارة القلق عند جاك ولـورا، وأيضا إلـى شـعوري بأنني مُزعجـة، حيث لم تفدني تلـك الليالي التي أمضيتُهـا بـلا نوم في شـيء سـوى أنها تسـببت في ظهـور دوائر مائلـة إلـى الزُّرقة تحت عينيّ. عرضت علـيَّ لورا أن تأخذني إلى طبيب قالت إنه يستطيع «تفحُّص رأسي من الداخل» ويساعدني على الشـعور بالتحسـن، لكن استـيعابي للصـور البيانية باللغة

الإنجليزية كان ضعيفا، ولذلك وجدتُ أن فكرة قيام طبيب بفتح دماغي أمرٌ مخيف.

كنتُ أعلم أن الوقت المخصص للحزن بالنسبة لي كان يتضاءل، وأن صبر الناس كان ينفد. ولم يكن ذلك خطأهم. كان شبه مستحيل، حتى بالنسبة لي، الجمع بين غاردنفيل وكرواتيا في نفس الفكرة. لذلك بعد بضعة أسابيع، عندما كُلِّفنا إعداد مشروع عن المدينة الأم، عملتُ ملصقا عن نيوجيرسي، حيث نقلتُ فيه الذكريات الأقل قبحا من طفولتي إلى الشقة التي عشتُ فيها للمرة الأولى برفقة جاك ولورا، وذلك قبل الانتهاء من المنزل الجديد. أما معلمتي، التي كانت تعلم الحقيقة، فقد كافأتني على هذه الكذبة بإعطائي درجة جيدة.

كلما أمعنتُ في الكذب اقتربتُ أكثر من الاندماج في المجتمع حتى إنني كنتُ أحيانا أصدق نفسي. كان الناس يظنون أنني مولعة بمطالعة الكتب أو خجولة، وأنا بالفعل كنتُ كذلك، أو أنني أصبحتُ كذلك. لم يسبق لأحد من سكان الحي الجديد أن شاهد جاك ولورا من دوني أو من دون راهيلا، لذلك لم يكن لديهم أي سبب للاعتقاد بأننا لم نكن عائلة بيولوجية. تخلّصتُ من الدفتر الذي كنتُ أجمع فيه قصاصات الصحف، كما توقفتُ عن كتابة الرسائل إلى لوقا.

خلال السنتين الأوليين اللتين أمضيتهما في الجامعة بعيدا عن المنزل، تركت عائلتي غرفتي مهملة. وهكذا بدأت متعلقات الآخرين غير المرغوب بها تجد طريقها تدريجيا إلى داخل غرفتي، مثل ألبومات الصور وآلة الخياطة الخاصة بلورا والملابس التي كانت مكوّمة في الزاوية الكائنة خلف الباب والتي كانوا ينوون

Twitter: @ketab_n

التبرع بها لجمعية النوايا الحسنة. كان سيُعتبر ظلما مني لو أني توقعتُ بأنهم لن يستخدموا تلك المساحة المثالية، كنتُ أعلم بأنهم سيفعلون، لكن مع ذلك كنتُ لا أزال أشعر بالخسارة تجاه ذلك المكان الذي كان يوما ملكا لي وحدي. عاينتُ ما تبقى في الغرفة، حيث بدا فيها على حاله سرير ملاصق للنوافذ وأرفف مليئة بكتبي الأولى وسلسلة من أحواض السمك الزجاجية التي تحتوي على مجموعات المحار التي جمعتها خلال الإجازات التي أمضيتها عند شاطئ نيوجيرسي. وعلى الجدار سلسلة صور لي ولراهيلا ولورا وجاك، حيث التُقطت بمناسبة عيد ميلاد راهيلا الخامس الذي أقيم في مجمع ديزني وورلد، كما كانت هناك ملصقات لفرق روك فوضوية رهيبة كنتُ أذهب لمشاهدتها في مسرح إليكتريك فاكتوري في ليالي الجمعة عندما كنتُ في المرحلة الثانوية.

كانت تطل من خلف مكتبي بقايا زهور مرسومة باستخدام الستنسل، وعندما خطر في بالي كيف أن لورا ووالدتي تلتقيان في نفورهما المشترك من سلوكي الصبياني، ارتسمتْ على وجهي ابتسامة. فعندما وضعت لورا رسوم الأزهار على الجدار، قمتُ على الفور بدفع مكتبي لتغطية تلك البقعة. وعندما اخترتُ لحافا قطنيا لسريري قامت لورا بخياطة أشكال لبراعم وردية اللون على هيئة صفوف تغطي بها خط الدرزات، وكلما غادرت لورا الغرفة كنتُ أقلب اللحاف رأسا على عقب كي أخفي الأزهار. أما الآن فكان اللحاف مقلوبا للأعلى والأزهار مكشوفة.

- «منزل آنا، منزل آنا!» سمعتُ راهيلا تصيح في الدور السفلي وسط طقطقات كعب جزمة رعاة البقر التي كانت ترتديها لورا،

Twitter: @ketab_n

فوضعتُ مغلف حياتي الماضية تحت مرتبة سريري ونزلتُ إلى الدور السفلي.

- «هاي حبيبتي!» قالت لورا.

- «هاي أمي».

المرة الأولى التي ناديتُ فيها لورا «أمي» كانت بالمصادفة. كنتُ ألعب مع راهيلا في مدخل المنزل عندما سقطتْ وسحجتْ ركبتها. امتلأ الجرح بالحصى ونزف كثيرا، فحملتُها وركضتُ نحو الداخل منادية «أمي! أمي!» ووجدتُ لورا في الدور العلوي تطوي الغسيل بينما كان الهاتف اللاسلكي محشورا بين كتفها وذقنها. وعندما دخلتُ الغرفة وأنا أقول «أمي، راهيل؛ راشيل أصيبت»، رفعت رأسها وأسقطت الهاتف على الأرض.

- «سأعاود الاتصال بك لاحقا يا سو»، قالت موجِّهة صوتها العالي نحو الهاتف الذي كان في تلك اللحظة على الأرض.

سلَّمتُها راهيلا ودخلنا معا إلى الحمّام حيث ضمَّدنا لها جرحها، لكن لورا لم تتحدث عن هذا الموضوع، مع أنها ظلت تبتسم لي طوال ذلك اليوم، كما لو أنها كانت تتساءل ما إذا كنتُ قد أدركتُ ما قلتُه أم لا. بالفعل أدركتُ ما قلتُه، لكنني رأيتُ أنه لم يكن هناك ما أستطيع فعله كي أسحب كلامي. لكن على مدى السنوات اللاحقة، في كل مرة كنتُ أقول فيها «أمي» أو «أبي»، كانت كلمة «الأميركي/ة» موجودة في ذهني دائما كلاحقة مستترة. فقد كانا والديَّ الأميركيين، وهذا التمييز قلَّل الشعور لدي بأنني كنتُ أنسى والديَّ الآخرين اللذين تركتُهما في الغابة.

- «لم أكن أعلم أنكِ آتية إلى المنزل. ذهبتُ فقط إلى المدينة، وإلا لكنتُ ذهبتُ لأقلك من موقف القطار».

Twitter: @ketab_n

- «كنتُ بحاجة لأن أمشي».

- «يا إلهي، هذا صحيح. كيف كان خطابك؟».

- «أي خطاب؟» قالت راهيلا.

- «كانت آنا تقدم عرضا مهما جدا في الأمم المتحدة»، قالت لورا، ثم أضافت: «أخبريني بكل شيء! هل التقطتِ صورة؟».

- «هل ألتقط صورة لنفسي وأنا ألقي خطابا؟ لا، لم يكن الأمر بتلك الأهمية».

- «ربما لو كان يوجد لديك ذراعان أطول»، قالت راهيلا.

- «هاه؟».

- «إذن كان بإمكانكِ أن تلتقطي صورة لنفسك».

- «لكنها ما كانت لتفعل ذلك لأنها لا تريد أن تُفرح والدتها»، قالت لورا، متظاهرة بالشعور بالاستياء.

- «تستطيعين الحصول على لوحتي الاسمية»، ثم أخرجتُ لها بطاقة الضيوف المجعَّدة من جيبي.

- «كل ما أستطيع الحصول عليه منكِ هو مكسب»، قالت لورا، ثم ألصقت البطاقة على الثلاجة.

عند العشاء التقينا جاك لتناول البيتزا ولعب بولنغ المبتدئين.

- «ماذا تفعلين في المنزل يا صغيرتي؟».

- «أتيتُ للزيارة فقط».

- «تذكَّرْ أن آنا كانت تلقي كلمة اليوم»، قالت لورا.

- «لم أنسَ»، قال جاك.

بعد ذلك ضمَّني إلى صدره كما تضم الدببة صغارها، وقد راق لي أنني ربما سأشعر دائما بأني صغيرة بين ذراعيه.

Twitter: @ketab_n

- «كيف كانت الكلمة؟» أضاف.
- «كانت طريفة»، قلتُ له.
- «هل فرضوا عليكِ عقوبات؟ إنهم لا يعتقون أحدا هذه الأيام من العقوبات سواء كان صغيرا أم كبيرا».
- «سأفرض عليكم جميعا عقوبات إذا لم تأتوا للعب»، قالت راهيلا، حاشرة نفسها بيننا على المقعد.
- «هذا استخدام دقيق للكلمة على نحو مدهش»، قلتُ.

في كمبيوتر تسجيل النتائج، اختار لنا جاك أسماء مطابقة لأسماء شخصيات فيلم (سائق التاكسي)، حيث لعبنا بشكل رديء وضحكنا كثيرا وواصلنا اللعب لبضع ساعات حتى اكتفينا.

كان الذهاب للنوم قصة مختلفة. خلال الأشهر الأولى لي في أميركا، كنتُ أحاول إبعاد الكوابيس عني عبر تجنب النوم نهائيا. كنتُ أجلس في سريري دون أن يغمض لي جفن، ويملؤني الخوف من احتمال قيام شخص ما باقتحام المنزل وقتل جاك ولورا. ثم عندما كنتُ أحاول الاستسلام للنوم، فإن ذلك لم يكن يُشعرني بالراحة. كان وجود فراش على سرير مزوَّد بنوابض يشكِّل نقيضا صارخا للوسائد التي كانت على أريكتي في زغرب؛ فقد أصبح ظهري يؤلمني وكنتُ أنام وجسمي مقوَّس تحت الشراشف.

في معظم الليالي كنتُ أتوقف عن محاولة الخلد للنوم وأنزل الدَّرج على رؤوس أصابعي ثم أعبر المطبخ حتى أصل إلى غرفة العائلة، حيث يكون جاك منهمكا في العزف على الغيتار. وعندما أطل عند طرف الغرفة كان يتنهد ثم يومئ لي برأسه كي أدخل وأجلس. كانت هناك بطانية مخطَّطة معلَّقة على ظهر كرسي مجاور، حيث كنتُ أسحبها وأجرها خلفي حتى أصل إلى

Twitter: @ketab_n

الأريكة. كان يواصل العزف مع تمايل طفيف كما لو أنه يواسي نفسه.

في ليالي الربيع كان يسند غيتاره على الأريكة ويشغّل التلفاز لمشاهدة مباريات البايسبول. كان يشجع فريق نيويورك ميتس، الذي كان مهووسا به منذ أيام الطفولة التي أمضاها في الحي الإيطالي لمدينة نيوارك. وكان يقوم باختيار وضعية الإسكات للتلفاز لكي نشاهد المباراة من دون صوت، حيث كان يخبرني بأسماء اللاعبين ومعدلاتهم في قذف الكرة، ويشرح لي عن الرميات الناجحة والكرات الخاطئة والهدف المزدوج وفقا لقوانين الأرض. وكان يكرِّر ما يقول عندما لم أكن أفهم. أما عندما كان يشعر بأن الأمر بدأ يثقل عليّ فإنه كان يتوقف عن الكلام، مكتفيا بالجلوس بهدوء أمام وميض التلفاز. وبدأت لغة البيسبول تتسلل إلى المفردات التي أستخدمها، ومع أنني كنتُ أعلم بأنني لم أكن مضطرة للتحدث كي أجعله سعيدا، فإنني تعلّمتُ قدرا أكبر من اللغة الإنجليزية عبر مناقشة تفاصيل هذه اللعبة. كانت البيسبول تهدئ أعصابي، بل كان لكل حركة تُلعب وكل خطأ يُرتكب فيها آثارٌ مماثلة، حتى إن كل سيناريو تحكمه مجموعة من القوانين التي يسهل عليّ حفظها كان يؤدي نفس الغرض. كانت هذه اللعبة من الأشياء التي تخيلتُ بأن والدي الحقيقي سوف يحبها أيضا، فقد كان الإيقاع المنتظم لعمليتي الرمي والتصويب موزونا مثل أغنية تُؤدّى بصوت هامس، في حين كانت جولات البيسبول تتميز بمنحنى سردي شبيه بالمنحنى الذي تتمتع به قصة قبل النوم.

عندما كان يخسر فريق نيويورك ميتس، وهو ما كان يحصل

Twitter: @ketab_n

بشكل دائم، كان جاك يطفئ التلفاز ويعود إلى العزف والسلطنة على الغيتار. كنتُ أستلقي وأذني ملتصقة بجلد الأريكة ثم أجعل حركة أنفاسي مُطابقة لإيقاعات الموسيقى التي يعزفها والدي.

أما الآن، بما أن موسم البيسبول لم يكن قد بدأ بعد، وبما أنه كان من غير الممكن إقامة مباراة نظرا لتأخر الوقت ليلا - حتى جاك ربما كان نائما - فقد بقيتُ مستيقظة طوال ساعات الأرق والقلق إلى أن داهمتني الأحلام.

- «هل نمتِ جيدا الليلة الفائتة؟» قالت لورا في صباح اليوم التالي.

- «شاهدتُ كابوسا».

- «أعتقد أني سمعتكِ تصرخين».

- «كنتُ أتحدث في نومي».

عندما كنتُ صغيرة، كنتُ أوقظها عدة مرات في الأسبوع بتلك الطريقة.

- «هل يحدث هذا الأمر في المدرسة؟».

- «يا إلهي، لا».

- «هل أنت متأكدة من أنكِ لا تريدين التحدث؟ لم تقولي لي بصراحة كيف سارت الأمور في الأمم المتحدة».

- «لا أريد التحدث عن ذلك»، قلتُ لها، علما أني استهجنتُ نبرة الازدراء التي كانت في صوتي عندما قلتُ ذلك. ثم أضفتُ «أنا خارجة».

دخلتُ إلى غرفتي، وارتديتُ بنطلون جينز وكنزة صوف، وبينما كنتُ أهمُّ بالمغادرة لمحتُ نفسي في مرآة الصالة، فوجدتُ أن شعري كان أشعث، ولذلك عدتُ أدراجي كي أسرِّحه. كان

Twitter: @ketab_n

يتدلى إلى ما دون كتفيَّ، وقد ازداد دُكنة بعد أن كبرتُ، حيث اكتسبَ ذلك اللون البني الفاتح الذي كان يتميز به شعر والدي. أما النَّمَش الذي يغطي قصبة أنفي فكان يخف خلال الشتاء ويتزايد عند أول طلوع الشمش. وبالنسبة لعينيَّ، اللتين كانتا داكنتين لدرجة السواد تقريبا، فقد كانتا تسببان لي الإزعاج خلال سنوات المراهقة، وذلك بسبب التنافر، كما بدا لي، بينهما وبين لون بشرتي الشاحبة، وأيضا لأن ذلك لم يكن منسجما مع معايير الجمال المتمثلة في عارضة الأزياء الشقراء ذات العينين الزرقاوين، والتي لم يكن يخلو منها إعلان أو مجلة في الولايات المتحدة. أما الآن فقد اكتشفتُ أنهما تشبهان عينَي والدتي بشكل لا لبس فيه، وربما كانت تلك السمة الوحيدة التي كنا نتشارك بها. سرَّحتُ شعري على شكل ذيل فرس ثم نزلت الدَّرج.

أمضيتُ صباح ذلك اليوم وظهيرته في أحد المقاهي - الذي بُني منذ سنتين على طريقة المقاهي القديمة - وأنا أعمل على دراسة حول رواية (بحر سارغاسو الواسع)، وأتساءل كيف كان ممكنا أنني كلما وُجِدتُ في مكان ما كنتُ أشعر بثقة كبيرة بأنني أنتمي إلى مكان آخر. ترك لي برايان رسالة في البريد الصوتي يسألني فيها ما إذا كنتُ أريد تناول العشاء. عاودتُ الاتصال به وشعرتُ بالارتياح لأنه لم يرد، فبعثتُ له برسالة نصية أقول له فيها إنني ذهبتُ لزيارة عائلتي وإنني سأراه يوم الأحد، كما عبَّرتُ له عن أسفي لأنني تأخرتُ عن الاتصال به. تركتُ الهاتف فوق دفتري لبضع دقائق منتظرة إياه كي يجيب على رسالتي، لكنه لم يفعل.

من الغرفة الخلفية الكائنة خلف البار ظهر ولدٌ كنتُ مغرمة به خلال أيام الدراسة الثانوية وبدأ بكشط ثفل القهوة العالق

Twitter: @ketab_n

في آلة تحضير الكابوتشينو. نقرتُ بيدي على كتفه، وعندما التفتَ حاولنا أن نتعانق من فوق الكاونتر الفاصل بيننا لكن محاولتنا كانت تفتقر إلى اللباقة.

- «وأنتِ أيضا تمضين إجازة الربيع؟».

- «أجل»، قلتُ مع أنني كنتُ أكذب.

- «لكن الستِ تعملين؟» قال لي مشيرا برأسه نحو مجمع كي مارت الواقع مقابل موقف السيارات، حيث كنتُ أعمل خلال إجازاتي الصيفية.

أخبرتُه بأنني كنتُ بحاجة لوقت إضافي للدراسة، وأنني مع ذلك كنتُ مسرورة برؤيته، ثم استدرتُ بفتور كي أعود لإكمال الدراسة التي كنتُ أعمل عليها.

- «حسنا، كنتُ على وشك تناول الغداء»، قال لي وهو يخرج من خلف الكاونتر.

- «هل تريدين الذهاب معي في كل الأحوال؟ لأجل الأيام الجميلة التي أمضيناها معا؟» أضاف.

خلال فترة الدراسة الثانوية كنا، زاك وأنا، ننتمي إلى دوائر متقاطعة من الأصدقاء، وكنا خلال تلك السنوات نتغازل باستخدام العبارات الساخرة ومصطلحات البيسبول. فهو كان يعشق فريق فيلادلفيا فيليز، بينما كنتُ أنا مؤيدة لفريق نيويورك ميتس، وكلما وجدنا أنفسنا معا في إحدى الحفلات كنا ندخل في جدال حول من منا يُعتبر فريقه الأفضل. وفي السنة الأخيرة لنا في المرحلة الثانوية أصبحنا أصدقاء بشكل تلقائي، وصرنا نجلس في القسم الخلفي من سيارة زاك نستمع إلى إذاعة الرياضة.

Twitter: @ketab_n

في الصيف الذي سبق التحاقنا بالجامعة، كان زاك في أغلب الأحيان يقوم بنزهة إلى موقف السيارات لكي يزورني، حيث كنا نمارس شكلا مصغرًا من أشكال البيسبول في الجزء الخلفي من المجمَّع. وقد دخلنا الآن من الأبواب الأوتوماتيكية ثم مررنا على قسم الأدوات الرياضية لشراء مضرب للبيسبول.

- «ألا تزالين تواعدين ذلك الشاب الذي تعرَّفتِ عليه في المدرسة؟».

- «أجل».

- «ذلك سيئ جدا».

وجدنا فسحة في الممر المجهَّز بأثاث للجلوس في الهواء الطلق، وبدأ زاك يقوم بتمارين الإحماء الخاصة بمرسلي الكرة في البيسبول.

- «أنا مسرور بوجودك هنا. كلما عدتُ إلى هذه المدينة أجد أنها قد أصبحتْ أصغر حجما وأكثر غرابة».

- «لطالما كانت غريبة الأطوار»، قلتُ له.

- «بدأ الشيب يظهر على شعر والديّ».

- «وهل هذا أهم اكتشاف توصلتَ إليه؟ لون شعر والديك؟».

- «يا لكِ من داهية!».

رمى زاك الكرة بقوة مبالغ بها، فرددتُها بمضربي على نحو رائع، لكن الكرة انحرفتْ إلى خارج فسحة الجلوس في الهواء الطلق، واصطدمتْ بقوارير مزيل العرق المعروضة، فأطاحت بها واحدة تلو الأخرى مثل أحجار الدومينو. ومن وراء ذلك الحُطام رمقتنا امرأةٌ ضعيفة البنية ترتدي رداء أحمر بنظرة احتقار.

Twitter: @ketab_n

- «أيها الحارس!» صرختْ بصوت مُزمجر بدا غير متوافق مع بنيتها الهزيلة.

خرج من غرفة المخزن رجلٌ بدين توجد عند إبطيه بقعٌ من آثار التعرق؛ وقد عرفتُه، لكن إما لم يعرفني وإما أنه لم يكترث لذلك. حدَّقَ الرجل بقوارير مزيل العرق، ثم نظر إلينا، وعدَّل جعبة المصباح الكاشف الموجود على حزامه.

بعد تفتيشنا للتأكد من أننا لم نقم بسرقة المعروضات، قام بطردنا من المجمع، بعد ذلك رافقتُ زاك سيرا على الأقدام حتى وصل إلى مقر عمله.

- «أعرف ما الذي تقصده، حول شعورك بأنك غريبٌ هنا».

- «أعلم أنك تعرفين»، قال لي، ثم قبَّلني على الخدَّين.

- «يا لك من شخص ذي توجه أوروبي»، قلتُ له.

في الحقيقة لقد فاجأني، وحاولتُ أن أتذكر الأحاديث التي دارت بيننا تحت تأثير الشرب والتي ربما أكون قد كشفتُ فيها شيئا عن الماضي الخاص بي، لكني كنتُ متأكدة بأنني لم أفعل. وبعد وصول زاك إلى خلف الكاونتر، قام بخلط مشروب محلًّى بالكاراميل ثم قدَّمه لي، بعد ذلك جلستُ لمدة ساعة أتصفح الملحوظات التي دوَّنتُها وأحدِّق في دفتري الفارغ، حيث كتبتُ جملة واحدة ثم توقفتُ وانصرفتُ إلى المنزل.

في تلك الليلة ظهرت راهيلا عند مدخل غرفتي وهي ترتدي بيجامتها.

- «ماذا تفعلين؟».

- «أعمل واجباتي. ماذا تفعلين أنتِ؟».

- «كنتُ مضطرة لدخول الحمّام. ألا تستطيعين النوم؟».

Twitter: @ketab_n

- «الذيـن يذهبـون إلـى الجامعة لا ينامون»، قلـتُ لها، وهذا كان فيه شيءٌ من الحقيقة. «عودي إلى سريرك»، أضفتُ.

وبـدلا مـن أن تذهـب راهيـلا إلـى سـريرها، سـحبت لحافي وانسلّت تحته.

- «سمعتكِ تصرخين الليلة الماضية»، قالت.

- «كان ذلك مجرد كابوس، آسفة إذا كنتُ قد أيقظتكِ».

- «حدثيني عن الليلة التي وُلدتُ فيها».

- «ومن أين خطرَ لك ذلك؟».

- «أنا مجرد فضولية»، قالت لي، ثم أضافت :«أقصد أنكِ أنتِ الوحيدة التي تعلمين بهذا الأمر».

نظريـا، كانـت راهيـلا تعلم بأنـه قـد تم تبنّينا، وقـد أُعطيت ما يكفي من المعلومات كي تفهم لماذا كانت لهجتي مختلفة في السابق، ولمـاذا كان لـون أعيننا أسـود بخلاف اللـون الأخضـر الداكن لعيني جـاك والأزرق المائي لعيني لورا. وعلـى صعيد التجربة، كانت تعرف الحقيقة، لكنها لم تشـعر بها. بالنسـبة لها، لم يكن هناك أحد قبل أبوينا الأميركيين، أما فقدان أولئك الأبوين، اللذين كانا أبوين على الصعيد الفني، فقد كان محزنا من الناحية الموضوعية لا أكثر.

تذكَرتُ حكايات والدي، والطريقة التي جعل بها ولادتي تبدو أمـرا فـي غاية الإثارة. فقـد كان والداي في تيسـكا، وقد اضطرا لاجتياز مدينتين بالسيارة حتى يصلا إلى أقرب مستشفى، حيث قال لي ذات يوم: لقد وُلدتِ على حافة الجرف تقريبا، حيث كنتِ تتوقين للخروج والذهاب للسباحة.

- «ذات يوم»، قلتُ لها، ثم أضفتُ «كنا نعيش في شقة صغيرة وسط مدينة كبيرة وعظيمة».

Twitter: @ketab_n

- «ما هي الشقة؟».
- «شبيهة بالمنزل».
- «تقصدين منزلا مقسما إلى أجزاء؟».
- «حسنا، استمعي».

هدأتْ راهيلا.

- «كانت أُمّنا على وشك أن تنجبكِ، لكن كان هناك شتاءٌ قارسٌ، وقد ضربت المدينة عاصفة ثلجية. كان الثلج بهذا الارتفاع»، مددتُ يدي في الهواء كي أشير إلى ارتفاع بمقدار متر «يصل ارتفاعه حتى ذقني».
- «حتى ذقنك؟».
- «أجل، كنتُ في التاسعة من عمري حينذاك. وقد قال والدنا على سبيل المزاح إنني لو مشيتُ على طريق لم يتم تنظيفه من الثلج فإن كل ما سيتبقى مني هو تلك الكرة الصوفية الموجودة في أعلى قبعتي.
- «لقد انتظرتِ حتى منتصف الليل. وقد جاء أبوانا في المعمودية من منزلهما، حيث ركضا وسط الثلج وقاما بإزالة الثلوج من حول السيارة لكي يتمكن أبونا وأمنا من الوصول إلى المستشفى. كان عليَّ أن أبقى في المنزل، وبما أنني لم أكن أريد أن يفوتني أي شيء من تفاصيل ما يحدث، فقد بدأتُ أبكي كطفلة صغيرة. لكن بعد ذلك، وبعد بضع دقائق من مغادرة أمي وأبي، عاد أبي مسرعا إلى المنزل. كان البرد شديدا لدرجة أن رقاقات جليدية صغيرة كانت قد تكونت على حاجبيه!».
- «ما الذي حدث؟».

Twitter: @ketab_n

- «كل واحد كان يصرخ على الآخر. لقد علقت السيارة في الطريق».

- «هل اتصلتم بسيارة إسعاف؟».

- «لم يكن أبي يعتقد أنه بإمكان سيارة الإسعاف الوصول إلى ذلك المكان في الوقت المناسب».

- «وهل تركتم أمي في الخارج وسط الثلج؟».

- «كانوا مجبرين، لم يكن هناك هواتف خلوية في ذلك الوقت. لذلك ركض بيتر وأبي وأخرجا أمي من السيارة ثم حملاها إلى وسط المدينة، حيث كان قد تم تنظيف الطرقات من الثلوج. بعد ذلك عثروا على سائق تاكسي، فركبوا معه لاجتياز المسافة المتبقية من الطريق، علما أنه أخذ منهم ثلاثة أضعاف الأجرة.

- «كنتِ مستعصية في أحشاء أمي، حيث ظلتْ تشعر بالمخاض بكِ على مدى سبع وعشرين ساعة، وهي مدة كانت ستكفي لو أنهم قرروا انتظار وصول سيارة الإسعاف. لكن الجميع كانوا يطلقون على أمي لقب كليوباترا وملكة سبأ على مدى الأشهر التي تلت تلك الحادثة بسبب الطريقة التي تم نقلها بها إلى وسط المدينة. أما أمي فكانت دائما تذكّر أبي كم كان متوترا في ذلك اليوم».

- «هل أستطيع مشاهدة الصورة؟» سألتْ راهيلا بعد برهة.

- «أي صورة؟».

- «صورتك التي كانت معك يوم أمس، وقلتِ إنها لا تشبهك».

شعرتُ بأنني حمقاء لأنني كنتُ أعتقد بأنني أذكى منها، ثم مددتُ يدي من فوقها وسحبتُ المغلف من تحت الفراش. وضعتُ يدي داخل المغلف وحاولتُ تمييز الصورة عن باقي الوثائق عبر

Twitter: @ketab_n

تحسس سطحها المصقول، وعندما أخرجتُها وجدتُ أنني كنتُ أمسك بدلا من ذلك بالصورة الملتقطة في عيد الميلاد، والتي كان يوجد فيها جميع أفراد عائلتنا. أمسكتْ بها راهيلا قبل أن أتمكن من إعادتها إلى المغلف.

- «ليست هذه هي..». قالتْ، بينما كنتُ أراقب كيف انعكس تأثير الصورة على نظراتها ونبرة صوتها.

- «هل تلك... أنا؟» قالت، ثم أضافت «وذلك، هذان هما..».

- «إنهما أبوانا».

- «وهل أمي.. أقصد..». نظرتْ إلى الصورة ثم إلي، وقالت «وهل أمي وأبي يعلمان بأنها موجودة لديك؟».

- «بالطبع».

كانت لورا هي من أقنعني بعدم حمل الصور في جيب بنطلون الجينز، وقامت بوضعها في مكانها في صندوق الملفات بهدف «الحفاظ عليها» على حد قولها.

- «حسنا، لنضعها جانبا الآن»، قلتُ لها، ثم أضفتُ «يجب أن تخلدي إلى النوم».

- «أريد فقط أن أمعن النظر فيها قليلا».

أمسكتْ راهيلا بالصورة وقرَّبتْها من وجهها لدرجة أن نظراتها بدتْ وكأنها تخترق الورق. تذكَّرتُ أبوينا، وشعرتُ بالأسف لأنه لم يكن بإمكانها رؤيتهما إلا من خلال صورة غير واضحة.

- «هل أشبههما؟».

أمعنتُ النظر فيها، تأمَّلتُ شعرها المتموج وبشرتها الدافئة.

- «تشبهين أمي كثيرا»، قلتُ لها.

بدت مرتبكة.

Twitter: @ketab_n

- «هل أستطيع مشاهدة الصور عندما تكونين في الكلية؟».

- «بالتأكيد. أنا أحتفظ بها في صندوق الملفات. فقط لا تخرجيها من المنزل أو أي شيء من هذا القبيل. إياكِ أن تضيّعيها».

في نهاية المطاف أغمضتْ عينيها وخلدتْ للنوم. أعدتُ الصور إلى المغلف ثم حملتُها إلى غرفتها. أمضيتُ الجزء الأكبر من تلك الليلة في قراءة كتاب (أوسترليتز). لقد قرأتُ الكثير من الكتب لكتّاب رحلوا منذ زمن بعيد. بيد أني وجدتُ نفسي أتأمل حقيقة وفاة سيبالد، التي لم يمضِ عليها سوى ثلاثة أشهر، وكنتُ مستغرقة في فكرة أنني أمسك بالأفكار الأخيرة لأحدهم بين يدي. اتصلتُ ببرايان لكنني أقفلتُ بعد رنّتين. سأتصل به غداً، عندما أكون قد عدتُ إلى المدينة ورتّبتُ في ذهني ما الذي كنتُ سأقوله له في تلك الليلة.

Twitter: @ketab_n

(4)

كان برايـان أكبـر مني بسـنة، وهو من الأشـخاص الذين كنتُ أتمنـى أن أتعـرف إليهم فـي الجامعة، فقد كان حساسـا ومثقفا ومستقلا، وكان الفكر الذي يتمتع به أول شيء جذبني إليه. لقد درس خـارج البـلاد في التيبـت، وزار متحفي اللوفـر والأوفيزي. كما قرأ أعمال تشومسكي وسوسيور على سبيل التسلية. وإن كان هناك من شخص يمكنه تفهم قصتي، فإنه هو. مرات عديدة كنتُ على وشك أن أحكي له كل شيء، لكن كلما حاولتُ القيام بذلك، كنتُ أشعر بالتوتر فأتراجع وأحوِّل الحديث في اتجاه آخر.

- «اشـتقتُ إليـك»، قلـتُ لـه بعد أن سـلمنا علـى بعضنا في الشـارع. ثـم أضفـتُ «كنتُ أفكر أننـي ربما أصطحبـك في نهاية المطاف إلى منزل عمي، إذا كنتَ تريد ذلك».

شعرتُ بأنني كنتُ أتحدث على نحو أسرع من اللازم، فتململ برايان قليلا.

- «ما المشكلة؟» قلتُ.
- «لا شيء»، قال، ثم أضاف «فقط..».
- «ماذا؟».
- «لقد تجاهلتِني إلى حدّ ما خلال نهاية هذا الأسبوع».

Twitter: @ketab_n

- «كنتُ في المنزل، وقد بعثتُ لك برسالة».
- «لم تقولي لي وداعا».
- «كنتُ أريد الاستيقاظ مبكرا. أنا آسفة».
- «لا بأس».

اعترفَ بأنه لم تفتني أشياء كثيرة خلال نهاية الأسبوع، وأنه أمضى معظم وقته في المكتبة وهو يعمل على أطروحته، وهي دراسة النظرية الكونية للنحو عبر لغة الإشارة النيكاراغوية. فقد تم إحضار الطلاب الصم، الذين كانوا يعانون في السابق من العزلة في شتى أرجاء البلاد، إلى مدرسة للاحتياجات الخاصة بهدف تدريبهم على اللغة الإسبانية المحكية، لكنهم طوّروا وبشكل سريع نظام إشارات خاصا بهم سواء في الملعب أو في مساكن الطلاب. وقد توافد اللغويون إلى الموقع، وكلهم لهفة لمشاهدة ولادة لغة جديدة.

- «كان الأمر مذهلا حقا»، قال برايان، ثم أضاف «فبعد بضع سنوات فقط، طوّروا نظاما للتوافق بين الفاعل والفعل ونظاما للتصنيف».

كنتُ أحب الاستماع إليه وهو يتحدث عن ذلك المشروع، ويشعر بحماس شديد إزاء بعض النقاط اللغوية الدقيقة، لكنني لم أكن أعلم شيئا عن هذا الموضوع إلا ما كان يقوله لي. ولذلك فإن هذا الحديث ما لبث أن تبخّر. وعندما شاهد كتاب (أوسترليتز) ناتئا من حقيبتي، قام بسحبه.

- «آه، سيبالد مرة أخرى! لا أصدق!» قال لي.

لم يكن ذوق برايان في الكتب مماثلا لذوقي، الأمر الذي أدى إلى نوع من التبارز الفكري الذي كنتُ أستمتع به عادة. بيد أنني

Twitter: @ketab_n

لم أكن أرغب بالدخول في جدال حول هذا الأمر.

- «من أين تحصلين على هذه الأشياء الملائمة لأذواق المسنين؟».

- «من رجل مسن»، قلتُ له، ثم أضفتُ «لكنني أحبه».

- آربيل أم سيبالد؟».

- «كلاهما».

- «ما الأمر الملفت فيه؟ هل هو الجمل الغريبة؟ إن هذا الرجل يعرف كيف يرسم طريقه حول الفاصلة».

- «ربما».

في الحقيقة كان السبب يتمثل في ذلك الشعور الحزين الذي يتخلل كتبه مثل نهر جوفي. لكنني لم أكن أريد أن أقول ذلك بصوت عال، إذ لم يكن الوقت قد حان بعد.

- «لكنه يدافع عن الألمان إلى حدّ ما، أليس كذلك؟» قال برايان.

- «أعتقد أن الأمر أعقد من ذلك».

- «بالطبع هو أعقد من ذلك. لكن إذا كان هناك من وقت يرسم فيه المرء حدود الأخلاق التي يجب عدم تخطيها، فإنه وقت حدوث المحرقة. أعني أن والده كان يخدم في جيش ألمانيا النازية».

- «لكنه لا يتحمل مسؤولية ما قام به والده».

- «هذا صحيح. لكنه مع ذلك يجعل الأمور.. شائكة».

- «وهذا يجعل الكتاب جيدا».

- «أو مرفوضا أخلاقيا».

جعلتُه يتوقف عن الكلام.

Twitter: @ketab_n

- «أنتَ منزعج فقط لأنني قرأتُ كتابا لم تقرؤه أنت بعد. لا تقلق، تستطيع أن تستعيره مني بعد أن أنتهي منه».

حاولتُ أن أبتسم، ثم مددتُ له يدي.

- «حسنا، سأتوقف»، قال لي، ثم شبكنا إصبعينا الصغيرين بشكل أصبح فيما بعد مؤشرا على الصلح. ثم أضاف «إنما فقط لأنني أتضوَّر جوعا».

كان دائما يزعجني استخدام الناس لكلمة «أتضور جوعا» عندما يكون واضحا أنهم ليسوا كذلك، وكان ذلك مزعجا في الكلية على وجه الخصوص، حيث كانت كل ليلة تتحول إلى بوفيه من الإسراف. تذكَّرتُ تلك الأكوام من الدجاج المشوي وسلطة البطاطا والخبز المتألق المصنوع من الذرة الصفراء، والتي كانت تُقدَّم في الكلية على العشاء يوم الأحد، ثم تُرمى في القمامة فيما بعد.

في كرواتيا كان حجمي عاديا عندما كنتُ في الصف الخامس. وفي أميركا أصبحتُ نحيفة. وعندما ذهبتُ لإجراء أول فحص بدني عام، فإنني لم أصل إلى الحد الأدنى في الوزن والطول وفقا للمخطط البياني للنمو. أوصى الطبيب لورا بأن تعطيني الحليب المخفوق مع الشوكولا مرتين في اليوم إلى جانب وجباتي النظامية، ولذلك فإنها قامت في تلك الليلة بعد العشاء بصب كوب من سائل الشوكولا الجامد وأجلستني على كرسي صغير إلى طاولة المطبخ. قلتُ لها إنني لم أكن جائعة، ولكنها رمقتني بتلك النظرة القاسية ثم أمرتني بالشرب. لمحتُ في عيني لورا وميضا ذكَّرني بأمي عندما كان ينفد صبرها، فشربتُ الكوب بأكمله. ولكني عندما وقفتُ لأضع الكأس في حوض المجلى

Twitter: @ketab_n

أقلقنـي صوت قرقـرة غير مألـوف داخل معدتي. كانـت أطرافي ثقيلة وحلقي متشنجا. شعرتُ بالاختناق، فخرجتُ مسرعة إلى المدخل الخلفي ثم تقيأتُ على الدرابزين.

- «قـال الطبيـب إن ذلـك قد يحـدث»، قالت لي لـورا بعد أن استعدتُ هدوئي، ثم أضافت «لقد كنتِ متخمة تماما».

قلـتُ لها إن الشـعور بالامتلاء كان بشـعا وإننـي لم أكن أريد القيـام بذلك مـرة أخرى. فقد أُصبتُ بالذعر وأصبحتُ أتقيأ كل ليلة خلال بقية الأسبوع.

- «حسـنا، إذا كنـتَ على شـفير الموت نسـتطيع الذهاب إلى صالة تناول العشاء»، قلتُ لبرايان.

- «لا تكوني حادة الطبع الآن»، قال لي وهو يشد على إصبعي الصغرى كتذكير بالاتفاق المبرم بيننا.

ركبنـا القطار، ثم جلس مترهلا على نحو مثير تحت ملصق تحذيـري يحمل عبـارة (لا تتكئ على الأبـواب)، واضعا يديه في جيـوب سـترته التـي اشـتراها مـن متجـر للسـلع الفائضة عن احتياجات الجيش.

- «مهلا، لدي شيء لكِ»، قال لي.

- «من أجل ماذا؟».

- «مـن دون سـبب. رأيتُهـا فتذكرتُك. كانت في متجر للسـلع العتيقة».

فتـح يـده كاشـفا عـن وجود شـظية بـات لونُها باهتـا بفعل تعرضها إلى أشـعة الشـمس، وكانت معلَّقة في سلسـلة برونزية. ثم وضع تلك القلادة في راحةِ يدي.

- «إنها قطعة من القمر»، قال.

Twitter: @ketab_n

ثـم ابتسـم تلك الابتسـامة الملتويـة الخبيثة التـي أصبحتُ أعشقها.

- «إنها رائعة. شكرا لك».

تحسسـتُ مـكان قفـل القـلادة وارتديتُها، ثم حاولـتُ إخراج نفسـي مـن أعماق ذلـك المزاج السـيئ الـذي كان مهيمنـا علي. خرجنـا مـن النفق إلى المكان الذي كان يشـكل نقطة التقاء بين بقايـا الحي الإيطالـي والحي الصينـي، ثم توجهنـا إلى مطعم عمي.

كان العـم جونيـور يُعـرف باسـم جونيـور منـذ فتـرة طويلة لدرجة أن جاك لم يعد يستطيع أن يتذكر اسمه الأصلي. وحتى لقب العم كان يُسـتخدم على سبيل تقريب الأمور؛ فهو كان على الأرجـح عم الأب أو ابـن ابن عم الأب. بعد رحيل والديه، لم يكن أيٌّ منـا يريـد أن يعتـرف له بأننا لم نكن نسـتطيع تذكر اسـمه، لذلك لم نسأله عنه إطلاقا.

كان المطعم يسـمى (ميسـتيز) تيمُّنا بكلبه الميت، وهو الاسـم الـذي كان كل فـرد في الأسـرة يتذكره وذلك لأن الكلب ميسـتي تغـوَّط ذات مـرة تحـت الطاولـة خـلال عشـاء عيد الشـكر. كان مطعم ميستيز من الداخل دافئا وذا إضاءة خافتة، وقد عرفتني المضيفـة وسـمحتْ لـي بالاختيـار من صـف الأكشـاك الجلدية الخضراء الموجودة على طول الجدار. بعد ذلك بوقت قصير ظهر جونيـور مرتديا بدلته المخططة، التي كان معلقا في جيبها وردة قرنفل حمراء.

- «مرحبا يا حلوة»، قال لي مقبلا جبيني، ثم أضاف «وهل لي أن أتعرف على عشيقك الوسيم هذا؟».

Twitter: @ketab_n

بعـد أن عرَّفتُهمـا علـى بعض، طبع جونيـور قبلة رطبة على خده بينما حاول برايان ألا يبدو متفاجئا.

- «أهلا بكما في مطعمي»، قال جونيور، ثم سـكب لنا النبيذ الأحمر من إبريق زجاجي.

- «الحبّار طازجٌ هذه الليلة. هل تريد أن تتذوقه؟» أضاف.

- «هذا يبدو رائعا»، قلت له.

طلـب برايـان المعكرونـة في حين توجّـه جونيور نحـو أبواب المطبخ وقال شـيئا بأعلى صوته بلغة إيطالية سـوقية، بعد ذلك سحب قبعة يانكيز من وراء البار وارتداها ثم خرج ليدخن.

- «إذن هـذا هـو العم سـيئ السـمعة»، قال بريـان، ثم أضاف «كيف حدثَ أنكِ لم تحضريني أبدا إلى هنا؟».

لـم أكـن أريـد لبرايـان أن يلتقـي بجونيور. كنـتُ حريصة علـى إبقائـه بعيدا عن كل أفراد عائلتي، وذلك خشـيةَ أن يزل لسـانهم بأمر يكشـف لـه حقيقـة حياتي الماضيـة. ولكن الآن كانـت لديّ نصـف أمنية أن يقول جونيور شـيئا يجبرني على قول الحقيقة.

- «لم أكن أريد أن أجعلك تجفل مني».

- «لم أكن أدرك أنك إيطالية إلى هذه الدرجة».

- «لستُ كذلك»، قلت له. ثم عندما بدا محتارا أضفتُ: «أعني أن عمي استثنائي إلى حدّ ما».

أدى برايـان بعـض الإيمـاءات المسـتوحاة مـن فيلـم العـرّاب وضحك، ثم قبّل يدي.

- «انتبـه أيـن تضع تلك الشـفاه»، صاح أحدهم من الكشـك الكائن عند الزاوية، حيث كان هناك مجموعة من الرجال الذين

Twitter: @ketab_n

يلعبون الورق من فوق أقداحهم. رمقهم برايان بابتسامة خجولة ثم أنزل يدي.

- «أنا لا أعرفهم»، قلتُ له بهمس.

ضحكت المجموعة. أطلّ جونيور برأسه مرة أخرى من الباب وقال لهم «تبدون في غاية السعادة. هل تضمرون الشر؟».

- «لا يا جونيور»، كان ردهم الجماعي، الذي بدا كئيبا، مثل مجموعة تلاميذ واقعين في ورطة.

- «هل يزعجونك يا آنا؟».

- «نحن بخير»، قلتُ.

- «نعم، حسنا، توقفوا عن هذه الحماقة وإلا فسأجعلكم تدفعون ثمن المشروبات هذه المرة».

أعاد الرجال تركيزهم على لعبة الورق.

- «أتعلمين»، قال بريان، ثم أضاف «ربما تستطيعين دعوتي في المرة القادمة التي تذهبين فيها إلى المنزل».

- «لماذا؟ سبق لي أن حدّثتُك عن غاردنفيل التي لا تُطاق».

- «أنا لا يهمني غاردنفيل، أود فقط أن أذهب معك، ربما لأتعرف على عائلتك أو شيء من هذا القبيل؟ فقد تعرّفتِ أنتِ على عائلتي في الخريف الماضي».

- «أعلم، ولكن...».

- «لماذا لا تريدينني أن أتعرف عليهم يا آنا؟» قال لي، مستخدما اسمي بطريقة جعلتني أشعر وكأنني طفلة.

- «لماذا أنت متشوقٌ جدا للتعرف إليهم؟».

- «ولمَ لا أكون كذلك؟».

كان يفرك جبينه مثلما كان دائما يفعل عندما يشعر

Twitter: @ketab_n

بالإحباط. بعد ذلك تنهد، ثم أمسك بيدي مرة أخرى من فوق الطاولة.

- «فقط أنا لا أريد أن أتشاجر معك. سوف أتخرج بعد شهرين. وأريد أن أبدأ في البحث عن عمل. وسأقرر ما إذا كنتُ سأبقى في المدينة. كنت أفكر، ربما، قد ترغبين في الانتقال للعيش معي».

كان هناك شيءٌ ما يحدث في وجهي، حيث كنتُ أشعر بوخز في خديّ، ولم أكن أستطيع أن أحدد ما إذا كان ذلك احمرارٌ أم شحوبٌ.

- «يمكننا أن نجد لأنفسنا مكانا أو استوديو أو ربما غرفة في الدور العلوي، قد يكون ذلك في بروكلين، أو يمكننا أن نبحث عن مكان قريب من محطة القطار بحيث يكون من السهل بالنسبة لك الوصول إلى الكلية».

كنا قد تحدثنا عن العيش معا بشكل غير مباشر من قبل، ولكن ليس بهذا الشكل. إذ لم نتطرق إلى الأمر بهذا الشكل من التخطيط المفصل.

- «برايان...».

- «لستِ مضطرة لاتخاذ قرار على الفور. ولكني أردتُ أن أحدثك بهذا الأمر قبل أن تصبح وديعتك السكنية مستحقة الدفع...».

- «برايان»، قلت له، فبدت عليه الدهشة. ثم أضفتُ «أنا فقط...».

- «ألا تريدين أن تعيشي معي؟».

- «ليس هذا ما أردتُ قوله. لكن يجب أن أقول لك شيئا».

كان حلقي جافا، فمررت يدي من تحت يده وأخذتُ جرعة

Twitter: @ketab_n

من الماء، ثم حاولتُ أن أفكر بعقلانية. في إحدى المرات، وهي من المرات التي كنتُ فيها على وشك أن أقول له الحقيقة، فتحتُ له موضوع الحرب، فقط لأرى ما إذا كان قد سمع بها. بالطبع كان قد سمع بها، حتى إنه قرأ كتابا حول هذا الموضوع، وهو لأحد الصحافيين الذي كان يجري المقابلات مع البوسنيين في معسكرات الاعتقال. كان يعلم كم كانت تلك الحرب دموية ومعقدة. وبالتأكيد سيتفهم لماذا حجبتُ الحقيقة عنه. بالإضافة إلى ذلك، كان أفضل صديق لي، فضلا عن أننا كنا نحب بعضنا.

- «انظر، عندما غادرتُ غرفتك يوم الجمعة فإني لم أذهب مباشرة إلى بنسلفانيا».

الآن حان دوره ليصاب بالشحوب. خطر لي أنه ربما يكون قد ظنَّ بأنني أخونه.

- «كنتُ ألقي خطابا في الأمم المتحدة».

- «الأمم المتحدة؟ من أجل ماذا؟».

- «ما أريد قوله هو أنني في الحقيقة لستُ..». ثم بدأتُ أبحث عن الكلمة المناسبة، «إيطالية».

- «ماذا تقصدين؟».

- «لقد ولدتُ في زغرب، عاصمة كرواتيا. حسنا، كان اسمها يوغوسلافيا آنذاك. عندما كنت في العاشرة، بدأت الحرب الأهلية، وقُتل والداي».

- «ولكن ماذا عن والديك الموجودين في بنسلفانيا؟ وأختك؟».

- «لقد تم تبنينا. وراهيلا، أقصد راشيل هي أختي الحقيقية».

حدَّثتُه عن مرض راهيلا وعن ميدي ميشن وساراييفو. وأيضا عن الحاجز والغابة وكيف هربتُ، وكيف أن العرض التقديمي في

Twitter: @ketab_n

الأمم المتحدة أعاد إليّ الكوابيس القديمة. كان عشاؤنا قد وصل وأصبح باردا. عندما انتهيتُ، كان برايان لا يزال ممسكا بيدي، لكنه لم يقل شيئا.

- «هل أنتَ مصدوم؟».

- «لا»، قال لي، ثم أضاف «أقصد نعم. لكن ليس من أجلي، بل من أجلك. ولكن ليس هذا هو المهم. تبا لي يا آنا، أنا آسف، هل أنت بخير؟».

- «أنا آسفة أيضا. كان يُفترض بي أن أخبرك بذلك في وقت أبكر».

- «لا بأس. أنا لا أزال أحاول استيعاب كل ذلك. ولكن لا بأس».

ظهر جونيور ومعه النبيذ مرة أخرى ثم دخل إلى الكشك المجاور لي.

- «أهلا بك أيتها الأميرة. أنا مسرورٌ برؤيتك. يجب أن تكثري من المجيء إلى هنا».

- «أجل»، قلتُ له مجاملة، ثم أضفتُ «الدراسة تشغلني كثيرا. كيف حالك؟».

- «القرف نفسه، لكن اليوم مختلف. ثمة رجل ضرائب يحشر نفسه في مؤخرتي لدرجة أنني أشعر بأنني أخضع لعملية تنظير للقولون كلما فعل ذلك. ولكن تبا له. كيف حال الأسرة؟».

- «إنهم بحال جيدة. وراشيل بدأت تكبر».

- «هذا أكيد. يجب أن أذهب في زيارة إلى هناك. والدك دائما يقيم حفلات شواء رائعة. سوف أعد المزيد من ذاك العصير، عصير الليمون».

Twitter: @ketab_n

- «بالتأكيد، خلال هذا الصيف».

- «حسنا، يا سيدي»، قال جونيور لبرايان، ثم أضاف «لا أريد أن أسرق هذه السيدة الجميلة منك لفترة أطول».

- «بماذا تفكر؟» قلتُ له بعد أن غادر جونيور.

- «بأمور كثيرة»، قال بريان، ثم أضاف «أشعر بحزن شديد عليكِ».

- «ثم ماذا؟».

- «ثم، ثم أنا أعلم بأن هذا سيبدو سيئا، ولكن لا يسعني إلا أن أتساءل عما إذا كان ذلك سيغيِّر الأمور بالنسبة لنا».

- «لن يغيِّر الأمور»، قلت له، ثم أضفتُ «فأنا لا أزال كما أنا».

- «لا تستطيعين أن تقولي لي إن هذه الأمور لا تؤثر عليكِ إطلاقا».

- «لا، أنت تعرفني».

أنزلتُ يديّ تحت الطاولة، وفركتهما عند الحلقات البيضاء الرقيقة التي خلّفتها تلك الجراح المندملة في معصميّ، والتي كنتُ دائما أنسبها إلى حادث دراجة ملفّق.

- «يُفترض بنا أن نكون سعداء في هذه اللحظة. لقد طلبتَ مني للتو أن أنتقل للعيش معك»، قلت له، على الرغم من أن تلك اللحظة بدت بعيدة.

- «أعلم ذلك. أنا فقط أقصد أنه ليس من السهل اجتياز مثل هذه المحنة. ولكن آنا؟».

- «ماذا؟».

- «أنا على استعداد للقيام بذلك، هل أنتِ موافقة؟».

- «موافقة»، قلت له.

- «هل تريدين أن نخرج من هنا؟».

- «إياكم أن تظنوا بأنكم ستغادرون دون أن تتناولوا الحلوى!» قال جونيور، وهو يقترب منا وفي يده طبقان من البانا كوتا.

- «شكرا لك، لكننا متخمَان حقا»، قلت له.

- «الحلوى يوجد لها حجرة منفصلة في المعدة»، قال جونيور، ثم وضع الطبقين على الطاولة.

أمـا برايـان، الذي فطنَ إلى أنه سـيكون من الأسـرع أن يأكل الحلـوى من أن يتجادل مـع جونيور، فتناول بضع ملاعق كبيرة، وحذوتُ حذوه.

- «عم جونيور، هل لك أن تعطينا الفاتورة؟» قلتُ له وأنا آكل.

- «للأسف لا أستطيع مساعدتك. لا وجود لمثل هذه الفاتورة».

- «هيا، نريد أن ندفع لك».

- «أنتم طلاب، انسوا الأمر».

- «حسنا»، قلتُ له، مبدية استعدادي للاستسلام إذا كان ذلك يعني أننا سنغادر. ثم أضفتُ «شكرا لك».

- «لا مشـكلة، وأسـتحلفك بالله أن تقولي لأبيك بأن يتصل بي».

عندما خرجنا إلى الشـارع كانـت الريح أقوى مما كانت عليه عندمـا دخلنـا، حيـث كانت هنـاك هبَّات قوية تتسـلل من خلال سترتي. كان برايان دائما يسرع في الجو البارد، حيث بذلتُ جهدا كبيرا كي أجاريه في المشي.

- «هل فكَّرتِ في العودة مرة أخرى؟».

- «أحيانا. لكن لا أعلم من أجل ماذا».

- «قد يساعدك ذلك على اندمال جراحك».

Twitter: @ketab_n

- «آه، من فضلك توقف».

شعرتُ بالانزعاج، وتوقفتُ عن محاولة مجاراته في المشي. فتباطأ برايان أيضا.

- «يا إلهي لا تفعلي هذا. لم أقصد أي شيء بقول ذلك».

- «أنت لا تعرف أبجديات التعامل مع مثل هذا الأمر».

- «أعلم ذلك، أنتِ محقة».

كنا نعيق السير على الرصيف، فقام برايان بتوسيع المسافة بيننا لكي يمر الناس. حاول أن يخرج يدي من جيبي، لكنني سحبتُها منه بقوة.

- «الجو بارد».

- «أنا آسف يا آنا. فقط تعالي معي إلى المنزل. لا يزال إيليوت في الخارج يحضر مؤتمرا للتصميم. سيكون ذلك المكان ملكا لنا وحدنا. سيكون الجو ملائما للتخلص من هذه الضغوط».

كان ممسكا بمعصمي وهو داخل جيب سترتي، وكانت أصابعي متشابكة مع أصابعه. شعرتُ بأنني بدأتُ ألين. لم أكن أريد أن أتشاجر معه، كما لم أكن أريد البقاء وحدي.

كان الغزل الذي تبادلناه في تلك الليلة هادئا لدرجة أنه بدا أشبه بالاعتذار. في الأحوال العادية كنا نرتاح لبعضنا نظرا لأن كل واحد منا حفظ نمط الشخص الآخر. ولكننا الآن كنا حذرين أكثر من اللازم، حيث كان كل واحد منا يحاول أن يُظهر للآخر بأنه على استعداد لترميم جسور الثقة التي قطعها. وعندما انتهى الأمر شعرتُ بالحنين إلى روح المرح التي كنتُ قد أفسدتُها.

- «ما الأمر؟» قال برايان.

- «لا شيء».

Twitter: @ketab_n

- «أراكِ تفكرين».
- «حقا إنه لا شيء».
- «كيف يتسع جسدك الصغير هذا لكل تلك الأشياء؟» قال لي وهو يضغط براحة كفه على صدري.
- «ألا تشعرين وكأنكِ على وشك الانفجار؟» أضاف.
- «أنا قلقةٌ أكثر عليك».
- «وما الذي يدعوك للقلق عليّ؟».
- «قلقة على الشيء الذي يدور في ذهنك حيال كل هذا».
- «الشيء الذي يدور في ذهني هو أن هذا هو السبب الذي يجعلك تحبين سيبالد».
- «آه، لا تبدأ».

ابتسم ابتسامته الملتوية ثم مرَّر أحد أصابعه على خدي.

- «مع أنني لا أمزح»، قال.
- «أليس هناك أي شيء تريد أن تعرفه؟».
- «كل شيء»، قال لي، ثم أضاف «ولكن ليس الليلة، لدينا الوقت لذلك، أما الليلة فدعينا نقم بهذا فقط».

مدَّ ذراعه تحتي ووضعتُ رأسي على صدره. استمعتُ إلى دقات قلبه التي كانت تنبض ببطء.

- «برايان؟» قلتُ له بعد برهة، لكنه لم يستجب، فتسلَّلتُ من فوق سريره وبدأتُ أفتش في مكتبه بحثا عن قصاصة ورق، حيث كتبتُ: آسفة للمغادرة، واجهتُ مشكلة في النوم.

تسلمتُ المنعطف المؤدي إلى المكتبة. كنتُ قد انتهيت تقريبا من كتاب (أوسترليتز)، وأصبحتُ بحاجة إلى كتاب جديد. كان المكتب الخاص بتداول الكتب على وشك الإغلاق في تلك

Twitter: @ketab_n

الليلة، حيث تجهَّم وجه الفتاة المسؤولة عندما دخلتُ وأظهرتُ لها تذكرة الدخول المجاني. ألفيتُ نفسي أكتب كلمة «كرواتيا» في قاعدة بيانات الفهرس، ثم تابعتُ رقم الاسترداد الذي نتج عن ذلك حتى وصلتُ إلى قسم أوروبا الشرقية الكائن في الجزء الخلفي من أكداس الكتب. سحبتُ أكبر كتاب غير مرجعي يحمل عنوان (الحمل الأسود والصقر الرمادي) من مكانه على الرف، ثم قلَّبتُ الصفحات القليلة الأولى من ذلك المجلد الذي يفوق عدد صفحاته الألف. كان قد نُشر في بريطانيا في أربعينيات القرن الماضي، وكنتُ أنظر بتحفظ إلى ما الذي يمكن أن تضيفه سيدة إنجليزية متوفاة إلى أي شيء ينتمي للعصر الحديث، ناهيك عن أن يكون هذا الشيء بلدا طرأت عليه تغيرات قاسية مثل بلدي. ولكن عندما التفتُّ إلى صفحة الإهداء توقفت أنفاسي من الدقة الصارخة لتلك الجملة المنفردة التي تقول: إلى أصدقائي في يوغوسلافيا، الذين هم الآن جميعا إما في عداد الأموات أو عبيد. فقمتُ بإغلاق غلافه الثقيل.

لم تتم استعارة هذا الكتاب منذ العام 1991، وقد حرصتْ الفتاة المناوبة على إمعان النظر بي قبل أن تختم بطاقة تاريخ الاستحقاق بختم القرن الحادي والعشرين. فكرتُ في الشخص الذي كان قد استعاره منذ أكثر من عقد من الزمن، حيث كنتُ حينذاك لا أزال على الجانب الآخر من المحيط. وقلتُ لنفسي إنه لا بد أن يكون طالب صحافة، وقد دفعته حماسته الزائدة للبحث عن خلفية عميقة تضفي بعض المعنى على مقال يكتبه حول التطهير العرقي.

Twitter: @ketab_n

ذهبتُ إلى البيت لكنني لم أفتح الكتاب مرة أخرى. لم أستطع التخلص من التفكير بأولئك الأصدقاء الذين أصبحوا في عداد المفقودين. فتحتُ جهاز الكمبيوتر وجبتُ الإنترنت بحثا عن لوقا. كنتُ قد فعلتُ ذلك مرة واحدة فقط من قبل، ولكن عدم عثوري على أي أثر له أدخلني في نوبة من الاكتئاب استمرتْ أسبوعا كاملا، فأمسكتُ نفسي كي لا أسمح لهذا الأمر بأن يتحول إلى عادة. وأدركتُ أنني لم أشعر يوما على نحو أسوأ مما أشعر به الآن. ولكن يبدو أن التكنولوجيا لم تعرف طريقها حتى الآن إلى حياة لوقا، إذا كان لا يزال على قيد الحياة. في الساعة الثانية صباحا وصلت زميلتي في الغرفة، ناتالي، إلى المنزل في حالة سكر حيث نامت دون أن تخلع حذاءها. سرتُ إلى الخمَّارة واشتريتُ زجاجة كوكا كولا وسندويشة بوريتو مجمدة. كان الخلَد إلى النوم في تلك اللحظة سيجلب بالتأكيد مجموعة أخرى من الكوابيس، لذلك، بعد أن أخذتُ كمية كافية من الكافيين ذهبتُ إلى غرفة الاستراحة، وشغَّلتُ التلفزيون بصوت عال، ثم شرعتُ بقراءة كتاب ريبيكا ويست إلى أن أشرقت الشمس.

خلال الأسابيع القليلة التي تلت، حكيتُ لبرايان بعض المقتطفات من قصتي، حيث حدثتُه عن أكياس الرمل والغارات الجوية والقنّاصين في زغرب، وعن التشيتنيك في الغابة، والقرية الصغيرة فيما بعد. كان صبورا ولم يكن يضغط عليّ في حال توقفتُ في منتصف الحديث، ولكن هذا لم يكن يهمني. كان بمقدوري أن أشعر بنفسي حينما كنتُ أرتكب الهفوات، ولم تكن لديَّ طريقة لمجابهة حقيقة أن كل العطف والتفاهم اللذين

Twitter: @ketab_n

منحني إياهما برايان لا يمكن أن يصلحا هفواتي. كل ليلة كنت أنتظره حتى يخلد إلى النوم، ثم أعود إلى سكني كي أذرع الممرات جيئة وذهابا. في إحدى المرات تعثرتُ وأنا أحاول ارتداء حذائي، فاستيقظ.

- «يمكنك البقاء هنا كما تعلمين. على الأرجح سيمضي إليوت ليلته هذه في منزل ساشا».

- «لا أريد أن أبقيكَ مستيقظا».

- «هل لديك عمل تريدين القيام به؟ يمكنك تشغيل مصباح مكتبي».

- «ليس هذا هو السبب، إنها الأحلام التي حدَّثتُك عنها، فهي تجعلني أستيقظ من النوم وأنا أصرخ».

- «لا يهمني ذلك».

- «لكن أنا يهمني».

- «ولكن إذا كنا نريد أن نعيش معا..».

- «برايان، لا تبدأ».

- «بضعة أحلام سيئة لا تمثل شيئا وسط أمور أهم منها بكثير».

- «اسمع، أنا آسفة. فقط لا أستطيع الخوض في هذا الحديث في الوقت الراهن». قلتُ له، ثم تلمَّستُ رباط حذائي وسط الظلام وغادرتُ.

- «ها قد أتيتِ»، قال البروفيسور آرييل عندما وقفتُ في مدخل باب مكتبه ظهيرة أحد الأيام. ثم أضاف: «هل ما يُشغلك هو ورقة البحث الكبيرة تلك التي كلفك إياها برايتون؟».

- «نعم، آسفة. كما كنتُ أقرأ.. شيئا آخر».

Twitter: @ketab_n

- «تعالي، اجلسي».

وضعتُ كتاب (أوسترليتز) على مكتبه.

- «جميل، أليس كذلك؟».

أومأتُ برأسي موافقة.

- «أجد أن استخدامه الرمزي لمحطات القطارات في كل ثنايا الكتاب يمثل الجانب الأنجح لديه في دمج الصور. ما الذي جعلكِ تثني زاوية هذه الصفحة؟».

- «يا إلهي، أنا آسفة. حتى إنني لا أتذكر بأنني قمتُ بذلك».

- «للذاكرة أساليب خاصة بالخداع»، قال ضاحكا، ثم أضاف «لا مشكلة، تفضلي».

أعطاني الكتاب مفتوحا، فتصفحتُ الصفحة التي كنتُ قد ثنيتُها. كان من السهل العثور على ما كنت أحاول حفظه.

- «هذا المقطع»، قلت له، ثم قرأتُ «لم أكن قد سمعتُ بشخص اسمه أوسترليتز من قبل، ومنذ البداية كنت مقتنعا بأنه ما من أحد آخر يحمل هذا الاسم، لا في ويلز، ولا في الجزُر، ولا في أي مكان آخر من العالم».

- «ما الذي يعجبك في ذلك؟».

- «العزلة، كما أعتقد، ولكونه يستطيع وصف العواطف بمنتهى الروعة ودون استخدام أي صفات».

- «موهبة نادرة».

أعدتُ له الكتاب مرة أخرى من فوق المكتب وأومأتُ له برأسي موافقة.

- «ما رأيك بمنتقديه؟».

لم يخطر لي أنه قد يكون هناك منتقدون لمثل هذا الكاتب.

Twitter: @ketab_n

صحيحٌ أن برايان كان أحد الذين انتقدوه، لكنه لم يكن قد قرأ الكتاب حتى.

- «ماذا تعني؟» قلتُ له.

- «يقولون إنه لم يقدم أي مادة جديدة، وإن الكتاب يمثل تكرارا لما ورد في أعماله السابقة».

- «بالطبع هو تكرار لما ورد في السابق. ما الذي يمكنك أن تكتب عنه عندما يكون لديك هذا؟».

- «هذا هو الطرح المضاد»، قال البروفسور آرييل.

بحلول منتصف أبريل بدأت الأجواء المكفهرة بالانقشاع، فحاولتُ أن أفسح المجال للطقس المشمس كي يتخلل إلى ذلك الخواء الذي أشعر به في داخلي. حاول برايان أن يستدرجني للحديث عما كان يزعجني، وفي المقابل دخلتُ معه في شجارات تافهة حتى تحولت الأمور بيننا إلى دوامة من التخاصم والتصالح. كنتُ أدرس أكثر مما كنت أحتاج فقط لكي أملأ الوقت. لم يبقَ من الفصل الدراسي سوى ثلاثة أسابيع، وبعد ذلك كان يمكنني الخروج من هذه المدينة.

في إحدى الليالي كنا، برايان وأنا، نتناول وجبة في سريره. وكان يقرأ كتابا في علم الإناسة، ففتحتُ كتاب (الحمل الأسود والصقر الرمادي) ووضعته في حضني لكنني لم أستطع التركيز. كان الوقت ينفد ولم أكن قد اتخذتُ قرارا بعد حول ما إذا كان ينبغي علينا أن نعيش معا. لم تكن هناك أية أدلة على أن الكوابيس التي كانت تراودني ستتوقف، في حين كنتُ أواصل الابتعاد عن برايان في كل لحظة مع أني كنتُ في أشد الحاجة إليه.

Twitter: @ketab_n

- «هـل تعتقـد أنه يُفترض بأي شـخصين أن يبقيـا معا إلى الأبد؟» قلت.

نظر برايان إليَّ بابتسامة مترددة.

- «هـل قـرأتِ صحيفـة (يـو إس ويكلـي) مـرة أخـرى وأنـتِ تنتظرين في السوبر ماركت؟».

حدَّقتُ في وجهه فاعتذر لي بصوت هامس.

- «بعـض النـاس يبقون»، قـال، ثم أضاف «والـداي لا يزالان متزوجـين، ووالـداك أيضـا. أعنـي والديـك الموجوديـن فـي غاردنفيل..».

- «أنا أعرف ما تعنيه».

- «إذن مـا الـذي أثـار أعصابـك؟ هل هناك مشـكلة في جنة ريبيكا ويست؟».

- «أنـا أعصابي هادئة»، قلتُ له بحدة أوحت بخلاف ذلك، ثم أضفتُ «كل ما في الأمر هو أن الودائع السـكنية تصبح مستحقة الأسبوع المقبل، ولا أعرف ما الذي يتعين علي القيام به».

أغلق برايان كتابه واقترب مني على السرير.

- «لديَّ فكرة»، قال لي.

- «ليس الأمر بهذه السهولة».

- «إذن أنتِ تعانين من الكوابيس، سنعالجها، بل حتى إنها قد تختفي وحدها. هل هذا حقا ما يقلقك؟».

- «القلق ليس مسألة عقلانية. ما من أحد يتخذ قرارا واعيا لكي يقلق حيال شيء».

- «اسـمعي، ثمة أمورٌ كثيرة تشغل بالكِ. فأنتِ لا تنامين، في حـين إن الامتحانات النهائيـة على الأبواب. أنا أفهم ذلك. ولكن

Twitter: @ketab_n

هذه الكوابيس وكل هذه الأشياء لا تشكِّل سببا كي نوقف مسيرة حياتنا».

- «أجل، هنا بيت القصيد. أنا أبالغ في ردة فعلي»، قلتُ.

كنت أعلم بأن ما أقوله ليس منصفا، لكنني لم أستطع إيقاف نفسي. لقد تعبتُ من الحفاظ على هدوئي في وجه كل ما هو مزعج وقبيح وغير منطقي. كنت أريد ردة فعل منه.

- «وحتى إنني ربما أتصرف بشكل هستيري، أو إنني امرأة هستيرية»، أضفتُ.

- «كفى يا آنا، فأنا لم أقل..».

- «أنا أعلم أنك لم تقل ذلك، ولم تكن مضطرا لقول ذلك، لكنني أستطيع القول إن هذا ما تفكر به».

وضع برايان عيدان الأكل في صحن النودلز الورقي، ثم وقف.

- «أتعلمين ماذا؟ حسنا، لقد حاولتُ مرارا وتكرارا معك، لكنك ترفضين وحسب. لستُ متأكدا من أنني أستطيع تحمل هذا الأمر بعد الآن».

- «أعتقد أننا بحاجة لأن نبتعد عن بعضنا لبعض الوقت»، قلتُ.

عندما رأيتُ حجم التأثير الذي خلفته تلك الكلمات على وجهه، تمنيتُ لو أنني لم أقلها. أضفت:

- «ربما يمكننا أن نأخذ استراحة، ونتحدث مرة أخرى بعد أسبوعين».

لم ينبس برايان ببنتِ شفة.

- «برايان، أنا آسفة، حقا».

- «حسنا. أيمكنك فقط أن..». قال، ثم أومأ برأسه نحو الباب.

Twitter: @ketab_n

غادرتُ غرفة برايان ومشيتُ على طول شارع الرابع عشر حتى وصلتُ إلى نهر هدسون. في القناة الموجودة على جانب الطريق أوقع أحدهم قلما، فنظرتُ إليه بقلق. كنت قد نسيتُ على مر السنين أمر الألغام التي تتنكر في زي القمامة، ولكنني الآن كنتُ أحدق في ذلك الشيء الذي رماه شخصٌ ما وأنا شبه مترقّبة بأنه سينفجر. دعوتُ بالشرّ على كلّ من شارون والأمم المتحدة لما سبباه لي من مشكلات. كان من المفترض أن يكون الإدلاء بإفادتي أمرا جيدا، ولكن كل شيء بات أسوأ. وها أنا الآن قد عاملتُ برايان بشكل فظيع وخسرتُه أيضا.

- «ما مشكلتك؟» قلت وأنا أحاول انتزاع القلادة التي أعطاني إياها برايان، لكنها كانت عالقة برقبتي التي كنتُ أشعر بوخز فيها بعد أن غار المعدن في جلدي. فككتُ السلسلة وكوّرتُها في قبضة بلدي. كانت أضواء مانهاتن ومدينة جيرسي تنعكس في النهر مانحة إياه لونا كستنائيا. فكرتُ في رمي القلادة في الماء. لو أنني لقيتُ حتفي في الغابة، لكنتُ الآن على الأقل برفقة عائلتي وما كنتُ لأشعر بهذه الوحدة الشديدة. ولكن كانت هناك راهيلا. وضعتُ السلسلة في جيب معطفي. ولأنني لم أكن أعلم ما الذي يمكنني فعله، اتصلتُ بوالدتي.

- «ما الأمر؟» أجابت لورا بصوت مترنح.

- «تبا، أنا آسفة. لم أكن أدرك كم كان الوقت متأخرا. هل أيقظتك؟».

- «لا، لا، لا بأس. ما المشكلة؟».

- «لا أعلم»، شعرتُ بأن صوتي كان يتهدج.

سمحتُ للورا بأن تهمس عبارات تهدّئ من روعي على الهاتف،

Twitter: @ketab_n

ولكنني كنتُ أعلم بأنها لا تستطيع مواساتي.

- «أعتقد أنني أريد العودة إلى المنزل».

- «هل تريدين مني أن آتي لآخذكِ؟».

- «لا، اقصد أنني أريد العودة إلى كرواتيا».

- «ماذا؟».

- «فقط خلال الصيف».

- «حبيبتي، أنا لستُ متأكدة من أن هذه فكرة جيدة. الوضع خطير».

- «الحرب انتهتْ منذ زمن طويل».

- «حرب كوسوفو انتهت منذ عامين فقط».

- «إذن ما الذي يُفترض بي القيام به، هل يتعين علي الاختباء في غاردنفيل إلى الأبد؟».

- «لكن القيام برحلة من هذا النوع؛ هل تعتقدين أنه من المنطقي أن تفتحي الجراح القديمة؟».

- «أفتحها؟» قلتُ وأنا على وشك أن أضحك.

- «أنا فقط لا أريد أن أراك تتألمين مرة أخرى».

- «أنا أتألم سلفا. إنني عالقة في طريق مسدود مع هذا القرف. لن يتحسن وضعي أبدا بهذه الطريقة».

- «اسمعي، أنتِ مستاءة. خذي يوما واحدا حتى تهدئي وبعد ذلك سنتحدث أكثر..».

- «أنا لا أطلب إذنك»، قلت لها، ثم أضفتُ «أنا فقط أريدكِ أن ترسلي لي جواز سفري».

أنهيتُ المكالمة ورحتُ أركل الرصيف حتى نفذ الألم إلى رجلي وهي داخل الحذاء.

Twitter: @ketab_n

- «أنا آسفة»، قلتُ للنهر.

كانت الرياح التي تهبُّ من فوق المياه شديدة البرودة، فرفعتُ ياقة سترتي كي أحمي نفسي من البرد.

عندما عدتُ إلى السكن كانت ناتالي نائمة، فصعدتُ أنا أيضا إلى سريري، ورحتُ أحدِّق من خلال الظلام في قطع البلاط المبقَّعة التي يتكون منها السقف المستعار. على مدى أكثر من شهر لم أنم لأكثر من ساعتين في الليلة الواحدة، حيث باتت الجثث التي كنتُ أراها في الحلم تنتابني أثناء اليقظة. فحتى قبل أن أخلد تماما إلى النوم شعرتُ بملمسها الطري والبارد على جسدي تماما مثلما كنتُ أشعر بالملمس القطني لأغطية السرير. رميتُ البطانيات إلى الخلف، ووقفتُ بسرعة كبيرة، ما جعل الغرفة المظلمة تدور أمامي.

ذهبتُ إلى مكتبي وأنا أتمايل، حرَّكتُ فأرة الكمبيوتر، فدبَّت الحياة في الشاشة، أما ناتالي فبدأت تتقلب في سريرها. مع توهج ضوء الكمبيوتر قطعتُ ورقة من دفتر ملاحظاتي، ثم كتبتُ عليها رسالة إلى لوقا. ملأتُ الأسطر الأولى بعبارات التحية الروتينية والسؤال عن أسرته. قلتُ له إنني أعيش في مدينة نيويورك، التي أعلم بأنها ستعجبه، ثم اضفتُ أن زيارتي لمقر الأمم المتحدة أطلقتْ سلسلة من الأحداث التي جعلت عودتي أمرا لا مفر منه. ثم كتبتُ: (في الأساس، لا أحد هنا يعرف من أنا، ولا حتى أنا أعرف من أنا، وأعتقد أن العودة الى الوطن قد تعيدني إلى صوابي). بدتْ كلمة الوطن غريبة على الصفحة، ولكني تركتُها. كنت أحاول أن أبدو إيجابية، أو أنني على الأقل لستُ على وشك الانهيار العقلي. ثم أضفتُ: (أفكر فيك كثيرا.

Twitter: @ketab_n

إن عدم يقيني ما إذا كنتَ على قيد الحياة أم لا يدفعني نحو الجنون في بعض الأيام. لذلك أجب على رسالتي هذه عبر البريد الإلكتروني، أو عبر البريد العادي، أو عبر أي شيء. وإلى اللقاء في وقت قريب). دوَّنتُ البيانات الخاصة للمراسلة في أسفل الرسالة، وطويتُ الورقة ثلاث طيات، ثم كتبتُ عنوان منزل والديه على المغلف، ووضعتُه في حقيبتي المدرسية. بعد ذلك دخلتُ إلى موقع إلكتروني يقدم خصما على تذاكر الرحلات الجوية، وذلك بعد أن كنتُ قد شاهدتُ إعلانا له تم عرضه مرارا وتكرارا خلال واحدة من الليالي التي كنتُ أمضيها بلا نوم، فأفرغتُ حسابي المصرفي، الذي كان يحتوي على ما يعادل أجر عمل صيف كامل في كي مارت، وحجزتُ تذكرة سفر إلى زغرب في اليوم الذي يلي انتهاء الدوام المدرسي.

Twitter: @ketab_n

(5)

لم يبدُ لي أن الرحلة كانت فكرة سيئة للغاية إلا بعد مضي ثلاثة أسابيع، وذلك في اللحظة التي كانت فيها الطائرة تشق طريقها بين الغيوم فوق شبه جزيرة البلقان. لم يُجب لوقا على رسالتي، كما أنه لم يتصل ولم يبعث رسالة عبر البريد الإلكتروني. كان عليَّ أن أعرف ما الذي حدث له، ولكن كلما اقتربتُ ازددتُ قلقا مما يمكن أن أكتشف. شعرتُ بأن كتاب (الحمل الأسود والصقر الرمادي)، الذي كنت قد سرقتُه عمليا من المكتبة، كان ثقيلا في حضني. لقد وضَّبتُ حقائبي بغباء، هذا ما دار في ذهني بنوع من الوضوح الذي كنتُ أشعر به بأثر رجعي على شكل دفعات طوال الليلة التي نمتُ فيها بشكل متقطع على متن الطائرة. في النهاية أرسلتْ لورا لي جواز سفري الأمريكي، ولكنها لم ترسل الجواز اليوغسلافي، الذي كنتُ سأحتاج إليه في حال كنتُ أريد استصدار جواز جديد. عندما وزَّعت المضيفات بطاقات جمركية توجد عليها مربعات اختيار كُتبَ إلى جانبها «مواطن» أم «سائح»، تبادر إلى ذهني أن كرواتيا، من الناحية الفنية، هي دولةٌ لم يسبق لي أن زرتُها.

حملتُ حقيبتي على ظهري، ونزلتُ الدرج، ثم عبرتُ المدرَّج

Twitter: @ketab_n

متجهـة نحـو البناء المتهالك لمطـار زغرب الدولـي. كانت الكتلة الخرسانية للمبنى تضيق تدريجيا حتى تنتهي بذراعين هزيلين لمحطتـي ركّاب. وكانت هناك ثلاث طائرات أخرى متوقفة مقابل الطائـرة التي نزلتُ منها للتو، حيث بـدا المطار بوجودها بكامل طاقته الاستيعابية.

وعلـى الرغـم من الجهد الكبيـر الذي بذلتُـه للحفاظ على هدوئـي؛ إذ انتهت الحرب منذ سـنوات عديـدة؛ وأصبحنا عمليا عضوا في تلك المنظمة اللعينة المسـماة حلف شـمال الأطلسـي، فإنني أمضيتُ الدقائق الأولى لي على الأرض وأنا أترقب حدوث انفجار ما. وداخل المحطة، بدت الصالة شاحبة من جراء الأضواء الصفـراء المنبعثـة مـن لافتات الاسـتعلامات. أمـا أرضية المطار فكانت قذرة ولزجة بسبب الرطوبة والمشروبات الغازية المُراقة، ما أدى إلى التصاق حذائي الرياضي بها. وعلى الرغم من مضي كل هذه السنوات فإن المكان لا تزال تفوح منه رائحة الكتلة الشرقية، والتـي تتجلـى فـي هـذا المبنـى الإسـمنتي الضخـم والمتهالك، مثلما تتجلى أيضا في وجه سـيدة تضع طبقة من أحمر الشفاه الفاقـع على نحو غير متقن. شـققتُ طريقـي بين مجموعة من السـياح المرتبكين متجهة نحو مقدمة الطابور الخاص بالهجرة والجوازات. راقت لي القوة التي شعرتُ بها من جراء اندفاعي بين الحشـود، علما أن هذا النوع من التدافع سـيكون غير مقبول في أميركا. لم أقل عفوا لأحد.

- «مرحبا، طاب يومك»، قال وكيل الجمارك باللغة الكرواتية عندما وصلتُ إلى النافذة.

مـدَّ يـده كـي يأخـذ مني أوراقـي. عند تسـلُّمه جواز سـفري

Twitter: @ketab_n

الأمريكي تمتم بشيء بلغة إنجليزية ركيكة ثم مد يده لإحضار كومة من استمارات الهجرة.

- «طاب يومك»، قلتُ له مجرِّبة استخدام اللغة الكرواتية أيضا. شعرتُ بأن الكلمات كانت جافة في حلقي.

- «كيف حالك اليوم؟» أضفتُ بلغة كرواتية فصيحة وصحيحة قواعديا. مسَّدَ شاربه، ونظر إلي مليا كما لو أنني قد قدَّمتُ له وثائق مزورة. حدَّقتُ في عينيه، فأعاد الاستمارات الفارغة إلى مكانها في أعلى كومة الأوراق.

- «حمدا لله على سلامتك»، قال باللغة الكرواتية ثم أومأ لي بالدخول.

في الخارج كان شمل العائلات يلتئم. طفلان توءمان يرتديان نظارتين شمسيتين متطابقتين يلقيان بنفسيهما نحو رجل مسن. شاب يرتدي قميص فريق دينامو زغرب يفتح يديه متجها نحو خطيبته المتعبة ثم يرفعها عن الأرض وهو يعانقها، حيث يعود اللون إلى خديها من جديد عندما يتبادلان القبل. رجل يرتدي بدلة سوداء يلتقي بآخر يرتدي ملابس مماثلة. في بداية الأمر كانا يبدوان أشبه برجلي أعمال شريكين، ولكن عندما تعانقا وأطبقا فكيهما بإحكام، أدركتُ على الفور أنهما التقيا للتشارك في عمل الدفن. حينذاك أشحتُ بنظري.

كان شريط الأمتعة يتحرك بوتيرة بطيئة مُصدرا صوت صرير مزعجا. وكان العديد من الحقائب مغطى بغلاف بلاستيكي من الدرجة الصناعية. لمحتُ حقيبتي، التي كانت إلى حدّ ما سليمة، فرفعتُها، وخرجتُ إلى الموقف المفتوح.

كان المطار بعيدا عن المدينة، ولذا فإنني سلمتُ حقيبتي

Twitter: @ketab_n

لرجل يرتدي سترة عاكسة للنور تبدو رسمية ثم ركبتُ الحافلة التي كُتب عليها وسط زغرب. أدركتُ أن هناك خطأ عندما طلب السائق عشرين كونا، وهو مبلغ باهظ جدا بالنسبة لرحلة عادية بالحافلة. ربما كانت هذه شركة خاصة مصممة خصيصا للنصب على السياح، لكنني لم أرَ أي وسائل نقل أخرى في الموقف، وكانت حقيبتي قد أصبحت في جوف الحافلة.

- «لم أقم بتصريف أي أموال بعد»، قلتُ للسائق باللغة الإنجليزية، معتقدة أنه سيتلقى الخبر على نحو أفضل بهذه الطريقة.

- «عشرون كونا حتى محطة الحافلات في زغرب»، قال لي فاتحا راحة كفه. أعطيتُه خمسة دولارات، فوضعها في جيبه دون أن يصدر لي تذكرة.

بعد مهلة أمضيتُها على الطريق السريع الجديد الممتد بين المطار والمدينة، خرجتُ من محطة الحافلات وسرتُ إلى وسط المدينة. بدت زغرب أصغر حجما وأكثر جمالا من تلك الصورة الزائفة التي كوَّنتُها عنها في ذهني. كانت أزهار الزنبق الحمراء والصفراء قد تفتحتْ في أحواضها في جميع أنحاء المدينة، أما الممرات المرصوفة بالحصى والمشبعة بأشعة شمس الصيف فقد بدت أنظف مما كنتُ أتذكرها. وعلى الرغم من أن الناس الذين يسيرون في الشارع كانوا يلبسون أزياء بطلت موضتها منذ فترة طويلة في أميركا، فقد كان واضحا أنهم يتناولون غذاء جيدا، ولم تكن تظهر عليهم أي مؤشرات تدل على وجود معاناة لديهم. كما لم يكن هناك ما يؤكد أن حربا جرت هنا سوى آثار القصف التي لا تزال ظاهرة على بعض واجهات المباني.

Twitter: @ketab_n

واصلتُ السير في شارع برانيميروفا، الذي أضحى شارعا تجاريا بامتياز، حيث أنشئت محلات لبيع المجوهرات وأخرى لبيع الجينز والهواتف المحمولة، فتكوّنت واجهة متاجر موصولة بدت أشبه بمجمع كبير للتسوق. تذكرتُ الهدايا التي أحضرتُها معي من أجل لوقا وبيتر ومارينا، وهي أشياء كنتُ قد وجدتُها جديدة ومثيرة في أميركا عندما وصلتُ إلى هناك لأول مرة، فشعرتُ بالحرج. فمن خلال شكل هذه المتاجر، بدا لي أنهم استوردوا كل شيء.

وخلف هذا السوق انتصبتْ فنادق عالمية كبيرة. كنتُ أعلم بأن المدينة كانت بالتأكيد تحتوي على فنادق عندما كنتُ صغيرة، ولكني لم أكن أستطيع تذكّر ولا تخيُّل من كان يريد أن يقيم فيها. على اليسار أطلتْ عليّ المحطة الرئيسية، التي كان يسميها الجميع، على سبيل المزاح، محطة زغرب الكبرى، علما أنها كانت في واقع الأمر أقدم من محطة نيويورك.

حتى هذه النقطة كنت أسير بشكل مستقيم، متجنبة السؤال عن وجهة محددة، ولكن بعد وقت قصير سيتعين علي الانعطاف في حال كنتُ أريد الذهاب إلى منزل أهل لوقا. فالممتلكات لم تكن تنتقل عادة من شخص إلى آخر إلا عبر الميراث، لذلك كان من المستبعد أن يكونوا قد انتقلوا. سيكون لوقا هناك أيضا، حيث كان الطلاب يعيشون في منازلهم مع عائلاتهم عندما يذهبون إلى الجامعة. هل كان من الأفضل أن أذهب لأتبين حقيقة الأمر في الحال، أم يجدر بي أن أتوقف في نزل أولا لأحاول أن أغتسل؟ هل يجب علي أن أحاول العثور على هاتف عمومي يوجد عنده دليل للهاتف لأتأكد ما إذا كان اسم عائلته لا يزال مدرجا؟

Twitter: @ketab_n

قررتُ أنه كان من الأفضل أن أذهب للبحث عنه على الفور، فالاحتمالات كانت ضئيلة بأن الاستحمام في النزل سيجعلني في حالة ذهنية أكثر صفاء. ولكن الخشية مما يمكن أن أكتشفه هناك كانت تؤدي بي إلى إبطاء خطواتي. وكان احتمال أن أكون قد فقدت أكثر شخص يعرفني لا يقل إثارة للرعب بالنسبة لي عن احتمال أن ألتقي به وجها لوجه.

في الوقت الذي وصلتُ فيه إلى المدخل الأمامي لمنزل لوقا كنت متوترة لدرجة أن كل ما كان يمكنني القيام به هو أن أمنع نفسي من الهروب. ماذا لو كان قد قُتل على يد أحد القناصة الذين كانوا في الأزقة الخلفية، أو أنه أُحرق بشكل لم يعد ممكنا التعرفُ إلى جثته بسبب انفجار لغم في الحديقة؟ ماذا لو كان غاضبا مني لأنني تركتُ البلاد؟ ماذا لو لم يعد يحب بعضنا بعضا كما كنا في السابق؟ ضغطتُ على جرس الباب، ثم بدأتُ أصغي لأتبين ما إذا كان هناك وقع خطوات. لم أستطع سماع أي خطوات، ولكن بعد ذلك سمعتُ صوت القفل ثم فُتح الباب ليكشف عن بهو لطالما تجوّلتُ فيه مخلفة في أرجائه آثار الطين العالق في حذائي، وامرأة صغيرة البنية ترتدي نعالا قطنيا ورداء منزليا. كانت تلك جدة لوقا. كنا، لوقا وأنا، نزورها أحيانا في شقتها الكائنة في ذلك الشارع بعد عودتنا من المدرسة. حتى في أحلك أشهر ترشيد الاستهلاك كانت تتمكن من تمرير قطعة من الحلوى لنا. لكنها الآن بدتْ أكبر سنا بكثير، كما كان ظهرها أكثر انحناء. تحت ذلك الرداء المفتوح كانت تلبس بلوزة سوداء وتنورة من الصوف كانت ترفعها حتى تصل إلى ثدييها المترهلين. كان شعرها مربوطا بوشاح أسود. فقد كانت في حالة حداد.

Twitter: @ketab_n

- «جدتـي»، قلتُ لها بلهـاث، ولم أكـن أقصد أن أقـول ذلك بصوت عـال. نظرتْ إلـي مليا بحاجبين مرفوعين لاسـتخدامي ذلك المصطلح العائلي.

- «من أنتِ؟».

- «أنا، أهـ..».

- «ممنـوع التسـول»، قالـتْ، ثـم أغلقـت البـاب فـي وجهـي، فانسـحبتُ إلى أسـفل المدخل، حيث جلسـتُ وأنـا أتصبَّبُ عرقا، وبذلـتُ جهدي كـي لا أُصاب بالذعر. في القرى البوسـنية، التي ينحـدر منهـا أجـداد لوقا، عندما يدخل الإنسـان فـي حالة من الحـداد علـى أحـد أفـراد العائلة، فـإن هـذه الحالة قد تسـتمر لسـنوات. وفي حال كانت الوفاة مُحزنة للشـخص بشكل خاص، فإنه قد يبقى شـاحبا إلى الأبد. وقد سـمحتُ لنفسـي بالدخول فـي مثل هـذه الحالة نتيجة تخيلي ما يمكـن أن يكون قد حدث للوقا؛ كالموت نتيجة انفجار لغم أرضي، أو بسـبب سـوء التغذية. كمـا تخيَّلتُ جنازتـه، وتخيلتُ أيضا ذلك الحجـر الصغير الذي يدل على وجود رفاته في مقبرة ميروغوج.

هذه السلسـلة المَرضية من أحـلام اليقظة جعلتْ ظهور لوقا أمامـي على الرصيـف أمرا أكثر إثارة للذهـول. فانتصبتُ واقفة عندما لمحتُه على مسـافة مني في شـارع إيليكا، وشعرتُ بأنه كان ينظر إليّ مليا، في البداية كان ينظر بدافع الفضول العام الذي يوجِّهـه أحدهـم إلى شـخص جالس أمـام منزله، بعـد ذلك راح يحـدِّق بتلك الدرجة من التمحيص الذي يسـتخدمه الإنسـان عندما يحاول تحديد هوية شخص ما.

كان لوقـا طويـل القامـة وعريـض المنكبين، وهـذا كان يمثل

Twitter: @ketab_n

خروجا عن النحافة التي كانت تشكل قاسما مشتركا بيننا في السابق، لكن كان ممكنا التعرف عليه من جوانب أخرى، من خلال شعره الذي لا يزال سميكا وقاسيا، وأيضا من خلال ابتسامته الجادة التي كان يطلقها وهو مطبق الشفتين. لمحتُ في عينيه تلك اللحظة التي تعرَّف بها علي.

- «يا إلهي»، قال، ثم تعانقنا.

كانت ذراعاه تنضحان بقوة غير مألوفة. سحبتُ نفسي من بين ذراعيه عندما تذكرتُ فجأة بأنه كانت تفوح مني رائحة العرق والطعام الذي تناولتُه على متن الطائرة. بعد ذلك قبَّلني لوقا على الخدين ثم حمل حقيبتي ودخل بها إلى المنزل.

كانت عائلة لوقا في المطبخ، حيث كانت الجدة تحوك الصوف على الطاولة، في حين كانت والدة لوقا ترتدي مئزرا وتوزع البطاطا في الأطباق، أما والده الذي يرتدي زي الشرطة، والذي جاء إلى المنزل لتناول طعام الغداء، فكان يمسح قطرات الحساء العالقة في شاربه بقفا ذراعه.

- «استخدم منديلك»، قالت والدة لوقا.

- «أمي»، قال لوقا، فالتفت إلينا الثلاثة الحاضرون.

حدَّقت الجدة في وجهي، وقد أخذتها الحيرة من وجودي في المنزل. بدأ لوقا بقول شيء، لكن والدته تجاهلتْه وحضنتني بكلتا يديها.

- «آنا؟» قالت لي، ثم أضافت «هل هذه أنتِ؟».

- «أجل، هذه أنا»، قلت. ضمَّتني بقوة، في حين وضع والد لوقا يده الضخمة على كتفي.

- «يا إلهي».

Twitter: @ketab_n

- «آنا»، تمتمت الجدة، محاولة استقصاء من أكون.

- «حمدا لله على سلامتك»، قال والده.

- «سوف أجري بعض المكالمات»، قالت والدة لوقا.

- «آيلا، انتظري»، قلتُ لها، علما أنه لم يسبق لي أن ناديتُ والدة لوقا باسمها الأول، وقد تفاجأنا نحن الاثنتان من جراء ذلك.

- «ما الأمر يا عزيزتي؟» قالت وهي تضع سماعة الهاتف ثم ابتسمتْ لي ابتسامة مشجِّعة.

كنتُ أريد أن أسألها عن بيتر وماريna. لكنها كانت سعيدة. الجميع كانوا سعداء.

- «لا شيء»، قلت لها، ثم أضفتُ «ليس الأمر مهما».

جرَّ لوقا حقيبتي صاعدا بها الدَّرَج، ولكنه تجاوز غرفة النوم الإضافية، التي كانت مليئة بالأمتعة وبمجموعة غريبة من الأدوات المنزلية القديمة، مثل الأواني الفخارية المشطوفة، والمقالي الصدئة المصنوعة من الحديد الصب، وعلبة كرتون من ملاعق الطبخ المزوَّدة بشقوق لتصفية السوائل.

- «جدتي تقيم في هذا المكان حاليا».

تذكرتُ الملابس السوداء للجدة.

- «وماذا عن جدك؟».

- «لقد.. إنها في حالة حداد».

- «أنا آسفة».

- «لا بأس. كان طاعنا في السن. أعني، كنا نتوقع حدوث ذلك».

لم يسبق لي أن شهدتُ حالة وفاة بينما كنتُ أتوقع حدوثها،

Twitter: @ketab_n

لكنني كنتُ أشك في أن ذلك من شأنه أن يخفف من وقعها قيد أنملة.

- «مع ذلك»، قلتُ، مضيفة «هل هي بخير؟».

- «إنها قوية».

كان لوقا دائما رابط الجأش، ولكن البرود الذي تحدّث به عن جده كان مقلقا. خطر لي أنهم ربما اعتادوا على قول كلمة وداعا. أمسك بحقيبتي مرة أخرى وتوجّهنا إلى غرفته. بدت الغرفة كما كانت عليه، باستثناء وجود سرير أكبر حجما وجهاز كمبيوتر مكتبي.

- «يمكنكِ النوم هنا. سأذهب إلى الطابق السفلي».

- «أفضّل استخدام الأريكة»، قلتُ.

- «تصرفي بما يناسبك».

- «هل وصلتكَ رسالتي؟».

توجّه نحو الدُّرج الأسفل من مكتبه وأخرج منه كومة من المغلفات الملفوفة بشريط مطاطي والتي كُتبتْ عليها العناوين بخط يدي الرديء منذ نحو عشر سنوات.

- «وهل وصلتكِ رسالتي أنا؟».

أومأتُ برأسي بالنفي.

- «لكن تلك الرسائل قديمة. لقد كتبت لك رسالة الشهر الماضي، لأخبرك بأنني قادمة».

- «حسنا، لم أتلقَّ... آه، الرموز البريدية تغيرتْ كلها بعد الحرب. والكثير من أسماء الشوارع أيضا. قد تصل إلى هنا في نهاية المطاف. الأمر يستغرق منهم بعض الوقت لفرز الأشياء التي يرفضها نظام الكمبيوتر. وإذا لم تكتبي على المغلف

Twitter: @ketab_n

(الدرجة الأولى)، فإن الله وحده يعلم ما الذي يفعلونه بها. مهلا، لماذا توقفتِ عن الكتابة في العام 1992؟».

- «لا أدري. أعتقد أنني فقط شعرتُ بالخوف».

- «من أن مكروها قد حدث لي؟».

- «من أنك لن ترد على رسائلي»، قلتُ، على الرغم من أنني كنتُ خائفة أيضا مما كان سيقول في حال ردَّ على الرسائل.

في الخارج كان جميع الموجودين حول الطاولة الكائنة في الفناء الخلفي يتحدثون على نحو أسرع بكثير مما كنت أتذكر. كان لدى والدة لوقا، التي تنحدر من عائلة من الهرسك، واحدٌ وثلاثون من أبناء العمومة، وكانت توجه لهم الدعوة في كل المناسبات. قرابة النصف منهم حضروا بالفعل، وتجمهروا حول الفناء حيث جلسوا على كراس غير متطابقة تعود إلى عهود مختلفة. وحسب ما فهمتُ، فقد كان أبناء العمومة منخرطين في نقاش تأرجح بسهولة غريبة بين سلوك التبذير الذي يقوم به أعضاء الحزب الحاكم في البرلمان ونوعين مختلفين من الجبنة القابلة للدهن.

جلس لوقا قبالتي، وكانت تظهر على وجهه ابتسامة خبيثة كلما طالب أحد أفراد أسرته بجولة أخرى من الراكية، وهو نوع من البراندي الذي يُحضَّر في أحواض الحمام من قبل سيدات مسنات في الجبال ويُباع على جوانب الطرقات في زجاجات الكوكا كولا. الكحول جعلني أتعرق أكثر، في حين كانت درجة الحرارة ثابتة عند سبعة وثلاثين درجة على الرغم من حلول الغسق، وكنت قد أصبحتُ معتادة على تكييف الهواء. كل جرعة من البراندي كانت توقد النار في فمي لتنتقل الشعلة فيما

Twitter: @ketab_n

بعد إلى أسفل صدري. هل حقا شربتُ هذا الشيء عندما كنتُ صغيرة؟ وهل كان ذلك على سبيل العلاج؟ في حركة بدتْ وكأنها جواب على ما يدور في ذهني، ضرب ابن عم لوقا البالغ من العمر ثماني سنوات كأسَه على الطاولة وأطلق تجشؤا ناجما عن حالة السكر التي كان يعيشها.

عندما ضج الفناء بالضحك الحماسي للموجودين، قلتُ لنفسي إنه كان يجدر بي الذهاب إلى النُّزُل. عادت اللغة، التي كانت موجودة في ذهني لفترة طويلة في صيغة الماضي، إلى الحياة من جديد في الأحاديث المتداولة وفي الموجات المنبعثة من الراديو. وكلما تحدثتُ كان يتم تصحيح القواعد الطفولية التي أستخدمها. كانت الكلمات الإنجليزية تصعد إلى فمي تلقائيا فأبتلعها بصعوبة.

في هذا الوقت صار أبناء العمومة، الذين بدؤوا بشرب زجاجتهم الثانية من الراكية، يلقبونني بالفتاة الأميركية. تأمّلتُ تلك العبارة غير المستساغة بشيء من النفور، محاولة تركيب جملة سليمة نحويا كي أرد بها عليهم. لكن شعوري بالخجل أدى في نهاية المطاف إلى إغلاق جميع قنوات التفكير الإبداعي، فأذعنتُ وروّضتُ نفسي على تناول الطعام في صمت.

بعد ذلك صعدتُ إلى السطح وحاولتُ ألا أبكي.

- «ما الذي كنت أفكر به؟» قلتُ للوقا الذي كان قد لحق بي، ثم أضفتُ «لا أستطيع البقاء هنا».

أما لوقا، الذي كان دائما يتوتر عندما كنتُ أحزن، فقد انصرف. كنتُ أعلم أن السبب يعود فقط إلى أنه كان يحب أن يكون وحيدا عندما كان يشعر بالاستياء، ولذلك أراد أن يوفِّر

Twitter: @ketab_n

لي نفس المساحة من الخصوصية. ولكن بعد برهة، عندما وجد أني لم أهدأ، جلس بجانبي، واضعا ركبتيه بشكل ملاصق لصدره لكي يتمكن من تثبيت قدميه العاريتين على القرميد الذي يغطي السطح.

- «أنتِ فقط متعبة»، قال.

وضع ذراعه حول كتفي بتردد في البداية، ثم تركها تنزل علي بكامل وزنها.

- «أريد العودة إلى المنزل»، قلت له وأنا مدركة تماما أنه ليس لدي أدنى فكرة عن مكان وجود ذلك المنزل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(6)

في الصباح شعرتُ بأنني أفضل حالا. فقد أمضيتُ تلك الليلة بلا أحلام، حيث أدى الإجهاد الذي أصابني نتيجة السفر إلى أن أغط في نوم عميق في غرفة الجلوس الخاصة بلوقا، وذلك على الأريكة التي كان فرشُها البالي لا يزال يحتفظ بما يكفي من النسيج كي يترك شكلَ مربع على خدي. إنها نفس الأريكة التي كانت دائما موجودة لديهم، وكان ممكنا التعرف عليها بمنتهى التجرد، فهي لم تكن أكثر من أريكة قديمة في منزل صديق قديم.

ومع ذلك، عندما رأيتُ لوقا واقفا في المطبخ شعرتُ بالارتباك. قدَّم لي صحنا أثناء قيامه بإنزال صحن آخر من الخزانة، لكننا كنا نتصرف على نحو أخرق بعضنا مع بعض. فقد ابتعد بسرعة كبيرة في اللحظة التي ناولني فيها ذلك الصحن الفخاري الذي شعرتُ بأنه كان ينزلق من بين يدينا. وضعتُه بسلام على طاولة المطبخ ورحتُ أقلِّبُ الأرشيف الخاص بي من مواضيع المحادثة التي يمكن التعويل عليها، حيث بحثتُ في البداية عن شيء خفيف الظل، بعد ذلك صرتُ أبحث عن أي شيء فقط لأقوله.

Twitter: @ketab_n

دهنتُ النوتيلا على ما تبقى من خبز الأمس، بينما قام لوقا بتحضير إبريق من عصير سدفيتا الأصفر المتلألئ. في السابق كان يتم تنظيمنا ضمن طوابير في ساحة المدرسة، كمبادرة حكومية من قطاع الصحة، ثم تُقدَّم لنا أكواب صغيرة من هذا العصير، الذي هو عبارة عن مسحوق طباشيري تُضاف إليه فيتامينات ثم يُحرَّك في الماء، وذلك لضمان حصولنا على شيء ذي قيمة غذائية في الأسابيع التي كان يصعب فيها توفير الغذاء. لم يتوقعوا بأن جيلا كاملا سيصبح مدمنا على هذا الاختراع - عصير الليمون بالمنشطات - ولكننا أدمنّا بالفعل، وهو ما جعل منتجيه في نهاية المطاف الشركة الدوائية الأكثر نجاحا في البلاد.

وضعتُ الكأس على شفتيّ وشعرتُ بصوت رغوة العصير في فمي.

- «هذا ما كانت تفتقده حياتي»، قلتُ.

- «أليس لديهم سدفيتا في أميركا؟» سأل لوقا، ثم أضاف «كنتُ أعتقد أن لديهم كل شيء هناك».

- «لا يحتاجون إليه في أميركا، فهو غذاء خاص بالحرب. بالمناسبة...».

تذكرتُ الهدايا التي أحضرتها للوقا وعائلته، ومعظمهما من المنتجات الغذائية التي وجدتُها مثيرة عندما وصلت إلى أميركا لأول مرة.

- «لقد نسيت، أحضرتُ لكم بعض الأشياء من هناك»، قلتُ، ثم أضفتُ «ربما هي أشياء سخيفة».

Twitter: @ketab_n

- «هل جلبت لي هدية؟» قال لوقا بنبرة شبه عاطفية، وللحظة اعتقدتُ أنه ربما كان يسخر مني، ثم أضاف «أيمكنني الحصول عليها؟».

فتحتُ حقيبتي في غرفة الجلوس وأخرجتُ منها الأكياس البلاستيكية التي كانت تحتل ثلث مساحة الحقيبة. كان يوجد داخل الأكياس قميص يحمل عبارة (أنا أحب نيويورك)، وحبوب شوكولا إم آند إمز، وأكواب زبدة فول سوداني من ريسز ومرطبان زبدة فول سوداني أيضا من جيف، وثلاث علب من المعكرونة سريعة التحضير وجبنة. وقد شعرتُ بأني سخيفة وأنا أقدم له كيسا من الهدايا التي تقدَّمُ لولد صغير.

- «كنتُ قد قلَّلتُ إلى حدّ ما من شأن الأوضاع هنا. أنا متأكدة من أن كل هذه الاشياء متوفرة لديكم الآن».

- «رائع! ما هذا؟» قال لوقا.

أخرج مرطبان الجيف، وحاولَ أن يشمه من خلال الغطاء.

- «حقا لم تره من قبل؟ ولكن يوجد لديك هاتف محمول. وأنا أيضا لدي هاتف محمول في أميركا».

- «توجد لدينا هذه الهواتف لأن الحكومة لم ترغب بإصلاح خطوط الهواتف الأرضية التي دمَّرها القصف. مع أنه يمكنكِ أن تتصوري حجم الهوس الذي يتملك الجميع هنا»، قال لوقا، حيث كان يواجه صعوبة في التكلم لأن فمه كان مليئا بزبدة الفول السوداني. ثم أضاف «الناس سطحيون جدا. الجميع في هذا البلد السخيف يحصلون على رواتبهم اللعينة، ويبذرونها على الملابس المستوردة من أوروبا الغربية، ثم يبدؤون بالتذمر من عدم وجود المال لديهم. إنهم بلهاء».

Twitter: @ketab_n

- «أعتقد أن هذا ما يحدث عندما تكون منتجات ليفايز محظورة»، قلت.

عندما كانت الشيوعية في أوجها، كان الجينز رمزا للتمرد ومحاكاة الثقافة الأميركية. ولسبب ما هذه الهالة لم تتلاشَ حتى الآن.

- «إنه لأمرٌ سيئ للغاية لكوني لم أعلم بأنكِ سوف تأتين. كنتُ سأطلب منكِ أن تحضري لي بنطلون جينز».

- «آنا»، نادتني آيلا من غرفة في الدور العلوي، ثم قالت «تعالي إلى هنا».

- «كنتُ أعتقد أن الذين يهتمون بهذه الأشياء أغبياء»، قلتُ.

- «هذا لذيذٌ حقا»، قال لوقا وهو يغرف ملعقة أخرى من زبدة الفول السوداني.

شربتُ ما تبقى من عصير سدفيتا ثم صعدتُ إلى الدور العلوي. وجدتُ آيلا جالسة في غرفة نومها بين مجموعة من الجوارب غير المتطابقة.

- «هل لديكِ أي غسيل؟» قالت لي، ثم أضافت «قد تمطر السماء غدا، أريد نشر كل الغسيل الموجود لدي. تعالي، اجلسي».

جلستُ قبالتها واضعة رجلا فوق أخرى، والتقطتُ جوربين متطابقين من تلك الكومة.

- «آسفة إذا كان أبناء العمومة قد تصرفوا بفظاظة معكِ يوم أمس. لم أكن أتصور أن ذلك سيحدث».

لكنني كنتُ أعلم أن إقامة وليمة كبيرة على شرفي كان يشكِّل القدر الأقصى من الاحترام الذي يمكن أن تقدمه لي.

- «كانت سهرة رائعة»، قلتُ لها، ثم أضفتُ «كل شيء كان جميلا بما في ذلك الطعام».

Twitter: @ketab_n

- «إذن كيف تسير أمورك في أميركا؟ وكيف عائلتك؟».

في الحقيقة، كانت الأمور قد توترت بيننا. تحدثتُ مع لورا مرة واحدة فقط بعد أن كنتُ قد خاطبتُها بلهجة غاضبة. اتصلتْ بي عدة مرات، لكنني لم أُجب. فأرسلتْ لي جواز سفري. في نهاية المطاف أجبرتُ نفسي على الاتصال بها قبل أن أغادر البلاد بيوم واحد، حيث أعطيتُها تفاصيل رحلتي وطلبتْ مني بنبرة مستسلمة أن أنتبه لنفسي. ولكنني لم أكن أريد أن أخبر والدة لوقا بذلك.

- «لقد اهتموا بي جيدا»، قلتُ لها.

- «هل هم سعداء من أجلك، لكونكِ عائدة إلى وطنك؟».

- «إنهم قلقون بعض الشيء. لكنهم يتفهمون الأمر»، قلتُ لها، وكنتُ أرجو أن يكون ذلك صحيحا.

- «يبدو أنهم أهلٌ طيبون»، قالتْ.

جذبتْني نحوها وعانقتْني بشكل مزعج. كانت تفوح منها رائحة إكليل الجبل ومبيِّض الغسيل وشيء آخر كنتُ أتذكره إنما لم أستطع تحديد اسمه.

- «آنا!» كان لوقا يناديني كما بدا لي من الطرف الآخر للمنزل، ثم قال «هيا! سوف أتأخر».

بيد أنه لم يكن بإمكاني تأجيل الأمر أكثر من ذلك. فبعد أن نزلتُ إلى منتصف الدَّرج عدتُ أدراجي ومددتُ رأسي مرة أخرى من باب غرفة والدته.

- «هل تعلمين ما إذا كان بيتر ومارينا ..». توقفتُ، ثم أضفتُ «بخير؟».

تلاشتْ ابتسامة آيلا، وبدا عليها شعور بالخجل.

Twitter: @ketab_n

- «لا أعلـم»، قالـت، ثم أضافتْ «لم أحـاول الاتصال بهم منذ وقت طويل».

- «أنتِ متأكدة من أنك بخير؟».

بـدا لوقا حذرا ونحن نسـير نحو السـاحة العامـة، كما لو أن منظـر المدينـة قد يحثني علـى البُكاء. كنا نتحـدث بخليط من الكرواتيـة والإنجليزيـة، وهـي لغة ابتكرناها دون نقـاش، إذ كنتُ أقحـم بدائل من اللغة الإنجليزية على تركيبة الجملة الكرواتية بسـبب افتقـاري للمفـردات، ثم أجعـل تصريف نهايـات الأفعال وفقا لقواعد اللغة الكرواتية.

- «أنـا بخيـر»، قلـت، ثـم أضفـتُ «أعانـي فقـط مـن صدمة اختلاف الثقافة».

- «لا يمكن أن تحدث ثقافتك الأصلية صدمة ثقافية لديكِ».

- «نعم، يمكن».

فـي سـاحة المدينة كانت شـمس الصباح ترتد مـن عربة ترام إلـى أخرى بشـكل يـؤدي إلى حـدوث انكسـارات طيفية. شـعرتُ بأننـي بـدأتُ أنسـجم مع إيقاع المدينـة مرة أخـرى. كانت المباني لا تـزال ملونـة بالأصفر، وهذه من التركات التي خلَّفتْها سـلالة الهابسبورغ. وكانت توجد على أسطح تلك المباني لوحات إعلانية تـروِّج للكـوكا كـولا والبيـرة الكرواتية من نـوع أوجويسـكو، وقد كُتبتْ الأسـماء عليها بالحروف الحمراء والبيضاء المألوفة. وكان هناك مراهقون يرتدون بنطلونات مقصوصة إلى ما فوق الركب وأحذيـة كونفيـرس تغطي القدمـين وجزءا من السـاقين وكانوا يقفـون ضمن مجموعات تفـوح منها رائحة العـرق تحت أعمدة الإنـارة المصنوعة من الحديد المطاوع. وكان تمثال جيلاتشـيتش

Twitter: @ketab_n

وسيفه المسلول لا يزال منتصبا وسط الساحة، تماما مثلما تركته.

- «انتظر، أين هو؟».

- «أين ماذا؟».

- «جدار الألم».

كان جدار الألم قد تم بناؤه على مدار الحرب، حيث كانت كل لبنة فيه تمثل شخصا قُتل خلالها، وذلك إلى أن أصبح ذلك النصب التذكاري المكوَّن من الطوب والزهور والشموع يغطي الساحة بأكملها. وكنت قد وضعتُ لوالديّ طوبتين هناك، عندما عدتُ إلى زغرب، وكان ذلك بمثابة القبر بالنسبة لهما.

- «لقد نقلوه».

- «نقلوه؟ إلى أين؟».

- «إلى المقبرة. حدث ذلك منذ عدة سنوات، حيث قرر رئيس البلدية أن وجوده في الساحة العامة يسبب الكآبة، وأنه غير مناسب للسياحة».

- «من المفترض أن يكون مسببا للكآبة. فالإبادة الجماعية تسبِّب الكآبة!».

- «حدثتْ مشادات كبيرة حول هذا الموضوع»، قال لوقا، ثم أضاف «اللعنة، ذلك هو القطار الذي كان يجب أن نركبه».

وصلنا إلى موقف الترام في اللحظة التي انطلقت فيها عربة مليئة بالركاب، فبقينا وحدنا على رصيف المحطة.

- «يتعين علي إيصال بعض الاستمارات إلى الكلية التي أدرس فيها»، قال لوقا، ملوِّحا بالأوراق أمام وجهي، ثم أضاف «يمكننا الذهاب إلى المقبرة غدا إن شئت».

Twitter: @ketab_n

ولكنـي لـم أتمكـن من زيـارة والـديّ هناك، وشـعرتُ بالحزن يتسلل إليّ تدريجيا لمجرد التفكير في ذلك. فأخرجتُه عنوة من ذهني.

- «إنه لأمرٌ مضحك أن تصبح أنت في الكلّية»، قلت بدلا من ذلك.

- «حصلت على درجات جيدة».

- «أعني فقط أنك كبرتَ تماما».

- «مثلكِ»، قال لي، مضيفا «ماذا تدرسين؟».

- «الإنجليزية».

- «الإنجليزية؟ ألا تزالين غير قادرة على استيعابها؟».

- «ليس اللغة حصرا، بل الأدب وما شابه. ماذا عنك؟».

- «التمويل».

شـعرتُ بالخيبة مـن اختياره. كنت أتخيله فيلسـوفا أو عالما، يتخـذ من إحدى المكتبات أو المختبرات معتكفا له ليمارس مهنة تمكّنه من التمحيص في أدق التفاصيل مثلما كان يفعل دائما.

- «عندما كنتُ في الصف الثالث الثانوي، كان جميع البالغين يسـألونني مـاذا أريد أن أدرس فـي الجامعة. كنتُ أكـره التحدث عـن هذا الأمـر لذلك ابتكرتُ إجابة عملية جـدا لكي أتمكن من إسـكاتهم. ثـم عندما حان وقـت التقدم للجامعة، بـدتْ لي تلك الإجابة فكرة جيدة».

- «يبدو أنه تخصص مريح».

- «ليس مملا كما تظنين».

كان هناك رجلٌ حليق الرأس وغير حليق الوجه يسير مترنُحا علـى رصيف المحطة في اتجاهنا. كانـت وجنتاه غائرتين، وعيناه

Twitter: @ketab_n

تتنقلان بسرعة داخل محجريهما العميقين. كان يحك وجهه بأظفاره وهو يسير، حيث جعل كتفه يرتطم بكتف لوقا أثناء مروره بجانبه. كانت رائحة العرق والبول تفوح منه.

حاولت التركيز من جديد على حديثنا، لكن الرجل التف على عقبيه وعاد باتجاهنا مصوبا نظراته إلينا. ثم وضع يده على كتف لوقا.

- «هل لمستني؟» سأل الرجل.

قال له لوقا إنه لم يلمسه. دفع الرجل لوقا، وكرَّر السؤال مرة أخرى.

- «لا»، قال لوقا بنبرة أقوى، ثم أضاف «تابع السير في طريقك».

- «هل تريد القتال؟» قال الرجل وهو يتمايل، ثم أضاف «سأريك القتال على أصوله».

مدَّ يده إلى جوربه ثم وقف بسرعة، شاهرا سكينا مسنَّنة.

وقف لوقا أمامي بشكل يمكِّنه من حمايتي، ثم أفرد كتفيه.

- «فقط اهدأ»، كان يقول له مرارا وتكرارا.

ابتسم ذلك الرجل ابتسامة عريضة وأحكم قبضته حول مقبض سلاحه.

أمعنتُ النظر في رصيف المحطة الفارغ، متسائلة أين ذهب جميع الشهود. هل قطعتُ كل تلك المسافة كي أُطعن وسط ساحة المدينة وفي وضح النهار؟ كنت على يقين من أن شيئا رهيبا على وشك أن يحدث، ولكن الشعور بالذعر لم يدخل إلى قلبي. ووجدتُ نفسي أفكر في الخطوة المنطقية التالية. ففي نهاية المطاف كانت زغرب العنيفة هي المكان الذي أعرفه

Twitter: @ketab_n

أفضل معرفة. فكرتُ بطريقة أنقضُّ بها على الرجل من الجهة الجانبية وأطيح بالسكين من يده، ثم خططتُ كيف أتوجه إلى أقرب متجر يمكنني أن أطلب منه المساعدة في حال تعرَّض لوقا للأذى، وتخَّيلتُ الحوار الذي سيدور بيني وبين صاحب المتجر. ضغط الرجل بالجانب الكليل من السكين على خد لوقا.

لكن لم يحدث شيء. فقد وصل قطار ترام مليء بالركاب وخفف من سرعته إلى أن توقف. حينذاك ركضنا أنا ولوقا إلى أبعد عربة فيه واختبأنا داخلها حيث اختلطنا بالركاب مع انغلاق الأبواب خلفنا. حدَّق الرجل من مكان وقوفه على رصيف المحطة، ثم أعاد السكين إلى جوربه.

بدأ لوقا، الذي كان هادئا طوال تلك المواجهة، بالانفعال. فقد تشكَّلتْ خطوط العرق عند حدود شعره، فمرَّر الجزء الخلفي من يده المرتجفة على جبهته.

- «هل أفهم إذن أن هذا لا يحدث كثيرا هنا؟» سألت.

- «هل تتعرضين كثيرا للطعن من قبل المتشردين في نيويورك؟».

- «حسنا، لا».

- «سوف أشتري مسدسا»، قال.

كان يتنهَّدُ بطريقة توحي بأننا ركضنا لأكثر من مجرد بضعة أمتار. البقعة التي ضغط بها ذلك الرجل بالسكين على وجهه كانت مخدوشة، لكن ذلك لم يؤدِّ إلى تهتك الجلد.

- «هذا لن يفيد في شيء»، قلت.

كان الترام يسير في الاتجاه الخطأ، وقد اجتزنا ثلاث محطات قبل أن نلاحظ ذلك.

Twitter: @ketab_n

كانت كلية الاقتصاد ذلك المكعب الذي تخيَّلتُه، حديثة وبلا نوافذ، وتُشكِّل نموذجا لكل الجوانب الكئيبة التي تنطوي عليها الهندسة المعمارية الشيوعية. وقفتُ في البهو بينما كان لوقا يدور بين المكاتب وسط فوضى بيروقراطية. وجدتُ كشكا للكمبيوتر، فتحتُه وانتظرتُ إلى أن أصبح الاتصال بالإنترنت جاهزا، ثم تفحَّصتُ البريد الإلكتروني الخاص بي. كانت هناك رسالة من لورا التي -لكونها غير معتادة على البريد الإلكتروني- كتبتْ مجمل رسالتها في السطر المخصص للموضوع، وتقول في الرسالة: (هل وصلتِ إلى هناك؟ هل أنت في أمان؟ مع خالص حبي، أمك).

كتبتُ لها: (مرحبا يا أمي. أنا هنا في زغرب. أقيم مع بعض أصدقاء عائلتي). تذكَّرتُ الرجل الذي قابلناه في رصيف المترو، لكنني أضفتُ: (أنا في أمان تام، لا داعي للقلق. سأكتب لكِ مرة أخرى قريبا).

لم يكن هناك شيء من برايان. فقد تواصلنا مرات قليلة فقط بعدِ شجارنا، عبر رسالة نصية روتينية: (هل أنت بخير؟ هل يمكنني القدوم للحصول على نسختي من كتاب «المنزل الكئيب»؟ حظا موفقا في الامتحانات النهائية). وفي ليلة الرحلة كتبتُ له رسالة أخرى لأقول له إنني ذاهبة إلى كرواتيا، وإنني آسفة على الأذى الذي سبَّبتُه له، وآمل بأن نتمكن من التحدث في وقت قريب.

فتحتُ رسالة جديدة، وكتبتُ فيها: (مرحبا. كيف كانت حفلة التخرج؟ أردتُ فقط أن أعلمك بأني وصلتُ إلى هنا بسلام، وأني أفكر بك). لكني أغلقتُ النافذة دون أن أرسلها. ربما لم يكتب لي

Twitter: @ketab_n

رسالة لأنه لم يعد يريد أن يتحدث معي بعد الآن.

ذهبتُ إلى الحمام ووجدتُ ذلك النوع من المراحيض التي كنتُ قد نسيتُها فعليا، والتي كانت عبارة عن حوض من السيراميك مثبَّت داخل حفرة في الأرض. عدَّلتُ وقفتي، وحاولتُ إعادة ضبط ملابسي بطريقة تُمكِّنني من قضاء حاجتي، لكن يبدو أنني فقدتُ تلك المجموعة من المهارات التي تشمل التوازن وقوة الإرادة. لذلك استسلمتُ، مفضلة الانتظار حتى نعود إلى المنزل.

- «لو كنتِ ترتدين تنورة لكانت الأمور أسهل بالنسبة لكِ»، قال لوقا عندما أخبرته بالأمر. كانت كلماته تنضح بنوع من الإقصاء الذكوري الذي وجدتُه مخيفا.

- «متى رأيتني أرتدي تنورة؟».

- «أنا متأكد من أنه أصبحت لديك ملابس جديدة في مرحلة معينة».

- «لماذا أنت هكذا؟».

- «كيف؟».

- «لا أدري. مختلف».

سار بخطوات بطيئة عندما غادرنا الكلية.

- «آسف»، قال، ثم انحرف مقتربا من حافة الرصيف، فأمسكتُ بذراعه وسحبتُه إلى الخلف كي أبقيه على المشى. ثم أضاف «أعتقد أني مرتبك قليلا».

- «بسبب ماذا؟».

- «ها قد عدتِ. وهناك الكثير من الفوضى».

- «هذه الفوضى تخصني أنا».

- «لا تخصكِ أنتِ وحدك»، قال، ثم أضاف «لا يمكنكِ أن

Twitter: @ketab_n

تدَّعي بأن الحرب كانت مأساة شخصية خاصّة بك. هذا غير ممكن هنا».

رأيتُ عينيه تومضان كما لو أنه كان يلعب البوكر ويفكر بالأوراق التي يجب عليه أن يلعبها.

- «كيف أسرتك؟».

- «إنهم أناس لطفاء» قلت، ثم أضفتُ «إنهم من أصول إيطالية. أقصد إنهم أمريكيون، ولكن..».

- «فهمتُ».

- «راهيلا أصبحت في الحادية عشرة من عمرها، وهي تعتقد أنها أميركية. الجميع هناك يعتقدون ذلك. يطلقون عليها اسم راشيل».

- «راشيل»، قال، مجرِّبا نطق هذا الاسم بلهجته، حيث كان حرف الراء ثقيلا. ثم أضاف «لكن هي لا تعتقد ذلك حقا، أليس كذلك؟».

- «هي تعلم»، قلتُ، ثم أضفتُ «لكنها لا تشعر بالأمر».

وفجأة اخترق صوتُ رقيقُ الهدوء المخيِّم بيننا.

- «هاي! لووووقا!!!» قالتْ إحداهنَّ، ثم أضافت «انتظر!».

سمعتُ طقطقة الكعبين، فتوقفنا عند اقتراب الفتاة. كان شعرها الأسود المسَّد والممشَّط يتمايل بإيقاع متوافق تماما مع إيقاع مشيتها. كان حذاؤها الجلدي اللامع المدبب من الأمام بارزا من تحت أطراف بنطلون الجينز الذي ترتديه. بدا لي أنها تنتمي إلى حقبة زمنية لم أستطع تحديدها بالضبط.

- «كيف سارت أمورك؟» كانت تقول له وهي تنظر إليّ. فنظرت إلى الأسفل نحو الشبشب المطاطي الذي كنتُ أنتعله.

Twitter: @ketab_n

- «دانييلا، هذه آنا، صديقة قديمة منذ أيام المدرسة الابتدائية».

- «سعيدة بلقائك»، قلتُ لها، وشعرتُ بابتسامة مزيفة ترتسم على وجهي عندما طبعتْ قبلة على كل خدّ من خديّ بقوة مبالغ بها.

- «وأنا أيضا سعيدة بلقائك»، قالت دانييلا، وبادلتني نفس الابتسامة المزيفة.

تحدثتْ هي ولوقا عن التسجيل للدراسة في فصل الخريف، في حين تأملتُ بشرتها الزيتونية، حيث كانت نفس البشرة التي كانت تمتلكها والدتي وراهيلا. تذكَّرتُ الفتيات في باحة المدرسة واللاتي كنَّ يسخرنَ من الملابس المستعملة التي كنتُ أرتديها، ويتهكَّمن على بشرتي المنمَّشة التي ورثتُها من والدي، حيث كنَّ ينعتنني بالتشيكية أو البولندية. وتساءلتُ ما إذا كانت هذه الفتاة واحدة منهن. شعرتُ بالارتياح عندما فتحتْ هاتفها للتحقق من الوقت ثم قالت إنه يتعين عليها أن تذهب. وكانت قد رتَّبتْ مع لوقا خططا غامضة لتناول القهوة معا، ثم غمزتْه أثناء مغادرتها.

- «من أجل ماذا كان كل ذلك؟».

- «ماذا؟».

- «ذلك»، قلت له، وأنا أغمز برموشي.

- «إنها فتاة كنتُ أواعدها»، قال وهو يخفي ابتسامته حول الانطباع الذي أخذتُه عنها. ثم أضاف «ليست بهذا السوء. إنها في الواقع فتاة ذكية إلى حدّ ما».

- «كنتَ تواعدها؟».

Twitter: @ketab_n

- «أجل، حيث إنني لم أعد أواعدها على الإطلاق».

- «إنها تبدو ذكية»، قلتُ ونفختُ صدري.

- «ما علاقتك أنتِ بالأمر؟».

فكرتُ: بالفعل ما علاقتي بالأمر؟ كانت مزعجة، أجل. ولكن ربما كنتُ أشعر بالغيرة فقط لأنه لم يكن وحيدا مثلما أصبحتُ أنا.

- «ماذا عنكِ؟ هل لديكِ صديق؟».

- «كان هناك شاب في حياتي. ولكني حاليا في إجازة من المواعدة».

مع اقترابنا من محطة الترام، قلت له:

- «أليس من الأفضل أن تركب الترام وأنتَ لا تحمل سلاحا؟».

- «دعينا نتناول البوظة أولا».

استسلمتُ للمزيد من الاستجواب ونحن نتناول البوظة بالكستناء من إناء مشترك. حدَّثتُه عن الأعمام وكيف أنني تعلمتُ الظهور بمظهر الأمريكية.

- «لكن لا أفهم، لماذا لم تخبري الناس الحقيقة؟».

- «هناك الكثير من الأسباب. في الأغلب لأنهم لم يكونوا يريدون سماع الحقيقة. ولكن أيضا لأني لم أستطع تصور طريقة للتغلب على الأمر دون التخلص منه».

- «هذا جنون»، قال لوقا، ثم أضاف «ما كنتُ لأتمكن من إبقاء هذا الأمر طي الكتمان لمدة عشر سنوات».

- «تعودتُ على ذلك».

- «إذن لماذا عدتِ؟».

- «حسنا يا فرويد»، قلتُ له، ثم ضربتُ ملعقتي في الإناء تأكيدا على انزعاجي، وقد كرهتُه، لبرهة وجيزة، لأنه كان على حق.

Twitter: @ketab_n

عندما عدنا إلى منزل لوقا جلسنا أمام التلفزيون؛ حيث كانت هناك قناتان جديدتان، ما جعل مجموع القنوات التلفزيونية يصل إلى أربع، واستغرقنا في مشاهدة مسلسل مكسيكي نظرا لأن والدة لوقا كانت تمنعنا من تغيير القناة، ثم انتظرنا كي تغيب الشمس. ولكن رطوبة الجو كانت تزداد كلما اقترب النهار من نهايته، وبدأتُ أتذكر لماذا سكان زغرب يهربون دائما من المدينة في فصل الصيف.

- «انتظروا»، قالت والدة لوقا وهي تصب حساء الخضار فوق أطباق ضحلة من البطاطا المهروسة. ثم أضافت «سمعتُ أن هناك موجة حرّ قادمة».

- «أليست هذه هي موجة الحر؟» قلتُ.

نظرت والدة لوقا إليّ وابتسمتْ، حيث بدتْ لي من خلال تلك الابتسامة وكأنها تقول لي: لقد ذهبتِ منذ وقت طويل جدا.

- «ما رأيكم بمكيف هواء محمول؟» قلت، ثم أضفتُ «في نيويورك يركّب الناس وحدات شبّاك صغيرة».

ولكن هذا الاقتراح قوبل بنظرات مليئة بالرعب من قبل الجميع.

- «التكييف يسبب الإصابة بحصى الكلى»، قال لوقا. كنت أتذكر تدريجيا تلك اللحظات الدنيوية -تلك اللحظات التي كانت حتى الآن تفضي إلى ذكريات أكثر إيلاما- ذكريات الطفولة المحكومة بالخرافة الجماعية: لا تفتح نافذتين مقابل بعضهما، لأن مرور الهواء بينهما يؤدي إلى إصابتك بالالتهاب الرئوي. لا تجلس عند زاوية الطاولة، لأنك بذلك لن تتزوج أبدا. إشعال سيجارة من الشمعة مباشرة يؤدي إلى مقتل أحد البحارة.

Twitter: @ketab_n

لا تقص أظفارك يوم الأحد. وإذا كنتَ تشعر بألم، ضع البراندي المعروف بالراكية على مكان الألم.

حاولت أن أتذكر خرافة أمريكية معروفة. كنتُ قد تعلمتُ بعضا منها من خلال الأعمام، كالخرافة التي تقول بعدم جواز ملامسة الحذاء لطاولة المطبخ، لكن جميع تلك الخرافات كانت مستوردة من العالم القديم. ربما يعود السبب إلى أن دولة المهاجرين تلك لم تصل بعد إلى مرحلة المزج بين الأجزاء غير المرغوب فيها من ثقافات أولئك المهاجرين. أو ربما لأن الحياة هناك لم تكن صعبة بما فيه الكفاية لحث الكبار على الإيمان بالسحر.

أخيرا، وبعد حلول الظلام، كان الجو أكثر برودة في الخارج مما هو عليه داخل المنزل. في قرابة التاسعة وصل والد لوقا إلى المنزل، وأجهز على ما تبقى من الحساء، ثم خلد إلى النوم على الفور أمام التلفزيون.

- «هل تريدين الخروج؟» قال لوقا.

كنت متشوقة لكي أشعر بنسيم الليل، حيث توجهتُ نحو الخزانة وبدلتُ حذائي بالصندل المنزلي، الذي يُعتبر من المتطلبات الأساسية في المنازل البوسنية.

- «ألا تريدين تغيير ملابسك؟».

- «آه، تقصد الخروج إلى مكان عام؟».

- «هناك صالة ديسكو جديدة افتُتحتْ مؤخرا قرب يارون»، قال، ثم أضاف «لم أذهب إلى هناك حتى الآن. أعني، إذا كنتِ تريدين...».

- «دعني فقط أغيِّر قميصي أو أرتدي شيئا ما».

Twitter: @ketab_n

ذهب لوقا إلى المرآب وملأ إطارات دراجة والدته القديمة بالهواء في حين قمتُ بجر حقيبتي إلى الحمام، حيث جرَّبتُ كل القمصان الموجودة عندي لأرى أيها سيبدو أجمل تحت الأضواء الخافتة. نظرتُ في المرآة، فشعرتُ بدفقة أخرى من الخجل تسري في جسدي. ربما كان ذلك بسبب صديقة لوقا السابقة والماسكارا التي كانت تضعها والحذاء المدبب الذي كانت ترتديه. أو ربما لأني كنتُ فقط متعبة من شكلي المتعرق. جمعتُ شعري في أعلى رأسي، وقمتُ بتثبيته بكل ما أملك من دبابيس في محاولة مني للتوصل إلى تسريحة مقاوِمة للرطوبة.

- «هل أنتِ غارقة هناك؟» ناداني لوقا من خلال الباب.

فتحتُ الباب بسرعة بالغة، حيث كنتُ على وشك أن أجرحه في جانب وجهه.

- «رائع»، قال عندما خرجتُ إلى المطبخ، ثم أضاف «هيا بنا».

لم أركب دراجة منذ سنوات، وكلما بدلتُ السرعة كان المقود يهتز ويلتوي في قبضتي. في البداية ضحك لوقا عندما كنتُ على وشك الاصطدام، ولكن في الوقت الذي وصلنا فيه إلى النادي كنتُ أشعر بالإحباط، وقد نظر إليّ بشيء من الشماتة. ما مشكلتي؟ قلتُ لنفسي بينما قام لوقا بربط دراجتينا بشجرة. مع أنني أمضيتُ نصف حياتي وأنا أقود الدراجة في هذه الشوارع، فإني الآن كنتُ بالكاد أستطيع توجيهها.

- «لنحضر مشروبا»، قال لوقا، ثم أمسك بمعصمي وسحبني نحو الباب، متجاوزا الدور.

- «ماذا تفعل؟».

- «قدِّمي لهم جواز سفرك».

Twitter: @ketab_n

سلَّمتُ جواز سفري إلى الحارس، الذي تأمَّله كما لو أنه كان تحفة أثرية، مُمررًا أصابعه على طول الختم الوطني المثلَّم الموجود على الغلاف، ومتفحِّصا الصفحات لرؤية ما نوع الطوابع الأخرى التي اشتريتُها. ثم أعاده لي وأَذِن لنا بدخول النادي.

- «السياح يملكون المال»، أوضح لوقا.

من الداخل، كان النادي مصبوغا باللون الأرجواني ومليئا بدخان السجائر وبالإيقاع النابض لأغنية هيب هوب تمت إعادة توزيعها، وكانت تحظى بشعبية في أميركا العام الماضي. وفوق رؤوسنا كانت هناك مراوح صناعية تحرك الهواء الذي تفوح منه رائحة العرق لتوزعه في شتى أرجاء الصالة ثم تخرجه من أبواب الفناء الخلفي.

دخلنا بين الحشود متجهين نحو الشرفة، حيث كان الجو أكثر هدوءا وكان بإمكاننا سماع بعضنا. وخلف البار الخارجي، كان النادل، الذي لم يكن يرتدي قميصا، يقف مديرا ظهره إلى الكاونتر ومنكبا على عمله فوق الخلاط. كان جسمه يلمع كما لو أنه قد دُهن بالزيت.

- «هاي! توميسلاف!» نادى لوقا.

- «هاي»، التفت توميسلاف وأمسك بلوقا من فوق البار معانقا إياه عناقا مصحوبا بالتربيت على الظهر كما يفعل الرجال عادة. وكان يلبس حلقة ذهبية عملاقة في إحدى أذنيه.

- «كيف حالك؟ ماذا يمكنني أن أحضر لك؟» طلب لوقا البيرة، فقام توميسلاف بنزع غطاء الزجاجة على جانب الكاونتر وقدمها له.

- «ومن هذه السيدة الجميلة؟».

Twitter: @ketab_n

حتى في الضوء الخافت كان بإمكاني أن أرى وجه لوقا يحمر خجلا.

- «إنها في الحقيقة، امممم، آنا»، قال وهو يأخذ جرعة كبيرة من البيرة، ثم أضاف «يوريتش».

حدَّق توميسلاف بي، بعد ذلك شعَّ وجهه بومضة إدراك مفاجئة.

- «آنا؟ ألم نكن معا في المدرسة الابتدائية؟ هذا لا يُصدَّق».

تبادلنا التحيات الروتينية، حيث سأل كل واحد منا الآخر عن أحواله، وأكدنا لبعضنا بأننا كنا، على الرغم من الصعاب، بخير تماما.

- «ماذا ستشربين؟».

- «سآخذ نفس الشيء».

- «سأحضر المزيد من الجهة الخلفية»، قال، ثم اختفى وراء ستارة سوداء.

- «سمعتُ أنه يعمل هنا»، قال لوقا. ثم هزَّ رأسه قليلا وأضاف «لقد حدث له أمرٌ رهيب».

- «هل تقصد أخاه؟ ذاك الذي قُتل بطريقة بشعة؟».

- «هذا ليس أسوأ ما في الأمر»، قال لوقا مضيفا أن والديّ توميسلاف، بعد مقتل شقيقه، سيطر عليهما الحزن، حتى إنهما نسيا أن يطعماه في بعض الأحيان. وبعد بضع سنوات، حيث كانت الحرب قد وضعت أوزارها، وبدا أن الأمور بدأتْ تعود إلى وضعها الطبيعي، وصل توميسلاف إلى المنزل قادما من المدرسة ليجد والده مستلقيا على ظهره في حوض الاستحمام. كان قد طعن نفسه ثلاث مرات في الصدر وكانت عيناه ما تزالان

Twitter: @ketab_n

مفتوحتين. كانت الورقة التي كتبها مبللة ولا يمكن قراءتها، والشيء الوحيد الذي أجمع عليه المحققون هو أنه لابد أن يكون الرجل ممتلئا بقدر استثنائي من الغضب حتى يختار تلك الطريقة من الانتحار. ولكن المحيِّر أكثر في الأمر هو أن تلك العينين هما اللتان جعلتاه يتغير. ففي تلك اللحظة من الاكتشاف، رأى توميسلاف مستقبله في نظرات الموتى.

عندما أصبح توميسلاف في السنة الأولى من المرحلة الثانوية، كانت والدته قد تنقلت في جميع أنحاء المدينة لتعيش مع صديقها، في حين تُرك هو وشقيقته ليعيشا وحدهما مع شبح والدهما الغاضب حتما، أما إيجار المنزل فكانا يدفعانه من خلال راتبه التقاعدي. وكلما سأله لوقا أو أي من زملائه الآخرين الموجودين معه في المدرسة عن أحواله، كان يؤكد أن الأمور على ما يرام، بل إنها جيدة، لأنه كان يستطيع مواعدة الفتيات كلما أراد ذلك، كما أنه أصبح طاهيا ممتازا مع أنه لم يكن كذلك.

- «لكنه ليس بخير؟» قلتُ.

- «بالطبع هو ليس كذلك. كان واحدا من أذكى الطلاب في صفنا والآن هو مجرد نادل فقير يعمل بشكل غير قانوني».

ظهر توميسلاف مجددا ومعه صندوق بيرة، حيث بدأ بوضع الزجاجات في الثلاجة الكائنة تحت الجزء العلوي من البار.

- «آسف، إنها دافئة قليلا»، قال، واضعا زجاجة بيرة في يدي، ثم أضاف «هذه على حساب النادي. حمدا لله على سلامتك». ثم غمز بعينه، أما أنا فأضفتُ سطرا آخر إلى لائحتي الحسابية غير المرئية التي تحمل اسم (أيتام الحرب).

Twitter: @ketab_n

صبَّ توميسلاف ثلاث جرعات من الفودكا، وضربنا الكؤوس ببعضها. بعد ذلك تم استدعاؤه إلى الخدمة من قبل فتاتين شقراوين تضحكان بصوت مسموع، فتركني أنا ولوقا لكي نستمتع بالبيرة التي أمامنا. كنتُ أستطيع الشعور بالفودكا وهي تحتدم في أسفل بطني وتؤدي إلى احمرار خديّ.

- «مهلا، هل..». توقف لوقا، حيث بدا مترددا، ثم أضاف «تريدين الرقص؟».

لحقتُ به إلى الداخل نحو حلبة الرقص، وللحظة اشتقتُ لبرايان. إذ مضت فترة طويلة لم أرقص خلالها مع أي شخص آخر سواه. أما الآن فقد كنتُ أنا ولوقا حريصين على ألا يلامس أحدنا الآخر، ولكن الصالة كانت تغصُّ بالراقصين فانضغطنا على بعضنا بسبب الازدحام. في المرة الأولى انتفضتُ مبتعدة عنه، إذ شعرتُ بالخجل وكأن الجميع كان يراقبني علما أن المكان كان مزدحما ومظلما، حيث كنتُ منشغلة بجسدي أكثر من اللازم، كما لم أكن أعلم ما الذي أفعله بذراعيّ. لم أكن يوما راقصة بارعة، وكنتُ أحاول عادة أن أغطي على ذلك بالضحك والمزاح. أما الآن فكنتُ أجد عزاء في حقيقة أن لوقا كان أسوأ مني، فقد كان يعض شفته السفلى بدافع التركيز، وكان دائما متأخرا نصف ثانية عن الإيقاع. مع ذلك، في المرة التالية التي لامسنا فيها بعضنا، فإننا مكثنا قليلا قبل أن نبتعد. كان هناك شيءٌ لطيف في ذلك الشعور، ولكن عندما نظرتُ إلى لوقا، لم أتمكن من قراءة وجهه. تساءلتُ ما الذي كان يفكر به، ثم تذكرتُ برايان مرة أخرى وشعرتُ بالذنب.

Twitter: @ketab_n

- «هل تريدين كأسا أخرى من البيرة؟» قال لوقا بعد أن انحنى نحوي، مقرِّبا وجهه من وجهي.

- «بالتأكيد»، قلتُ.

توجَّه نحو البار، بينما وقفتُ وحدي أتمايل مع أنغام الموسيقى. وعندما عاد ربَّت على ظهري وكأني أحد أصحابه، فأخذتُ جرعة كبيرة من الزجاجة وشعرتُ بأن لوقا القديم عاد مرة أخرى.

استيقظتُ على الأريكة في جوف الليل وأنا منقطعة الأنفاس. وكنا، لوقا وأنا، قد عدنا إلى المنزل في وقت متأخر. واستنادا إلى لون السماء كان يمكنني القول إني نمتُ لمدة ساعة أو ما يقارب ذلك. تسللتُ إلى المطبخ وفتَّشتُ المكتب إلى أن وجدت دفتر العناوين. عثرتُ على عنوان بيتر ومارينا، حيث كانت بياناتهما مكتوبة بخط آيلا المائل. وإلى جانب اسمهما رسمتْ نجمة، علما أنه لم تكن هناك علامات أخرى بجانب أي اسم آخر موجود على الصفحة. لم أُبدِ اهتماما كبيرا بعنوانهما عندما كنت صغيرة، ولكن اسم الشارع كان مألوفا. بدأتُ في الاتصال برقم هاتفهما، ولكني توقفتُ قبل أن أكمل. ارتديتُ الجينز والحذاء الرياضي، وتسللتُ جانبيا من خلال الباب الأمامي، ثم انطلقتُ على دراجة والدة لوقا.

لم يسبق لي أن خرجتُ في زغرب وحدي أبدا في هذه الساعة. كانت السماء زرقاء داكنة والطرق فارغة، وكانت هذه الحالة من الخواء تبعث على الهدوء والاستغراب في آن معا. كنتُ أحيانا أمر بجوار مخبز، حيث إن المخابز هي المحلات الوحيدة التي تبقى أضواؤها مشتعلة، فأشمُّ رائحة خبز الغد. كان الهواء البارد يرد شعري إلى الخلف، وكنتُ أشعر بالراحة أكثر وأنا

Twitter: @ketab_n

علـى الدراجة. كانت بنايـة بيتر وماريـنا على بعـد بضعة أميال، لكن الطريق كان مسـطحا فقدتُ الدراجة بسـرعة، حيث لم أكن أتوقـف إلا للتحقق مـن العنوان الذي كنتُ قد كتبتُه على الجزء الداخلـي من معصمي. كانوا يعيشـون في الطابق الثاني، لذلك تركـت الدراجـة فـي البهو، وكلي أمـل بألا يكون أحدٌ مسـتيقظا لسرقتها، ثم صعدتُ الدَّرَج.

عندما وصلتُ إلى الرقم 23 بدأتُ أشعر بالتوتر. لماذا تصورتُ أن هذه فكرة جيدة؟ نقرتُ على الباب، بشكل خفيف في البداية، ثـم بقـوة أكبر. وفي نهاية المطاف صرتُ أطرق بصوت عال إلى أن ظهر رجلٌ في المدخل المجاور، حيث لم يكن يرتدي سـوى النعال والسروال الداخلي.

- «اهدئي».

- «اعذرني يا سـيدي»، قلتُ، باذلة كل ما أسـتطيع لاستخدام اللغـة الرسـمية بالشـكل الأمثل. ثـم أضفتُ «آسـفة لإيقاظك، ولكن هل تعلم ما إذا كان آل توميتش في المنزل؟».

- «من أنت؟».

- «أنا آنا. أنا صديقة قديمة».

- «حسـنا، لـم يعيشـوا فـي هذا المـكان منذ فتـرة طويلة! آل كوفاتش هم الذين يعيشـون هناك. لديهم ثلاثة أطفال، يثيرون الضوضاء بشكل رهيب».

- «كم مضى على مغادرة آل توميتش هذا المكان؟».

- «منذ نحو عشر سنوات».

- «هل تعرف إلى أين ذهبوا؟»

- «انتقلوا إلى منزل خاص بجد أحدهم. قد يكون ميميتسـا

Twitter: @ketab_n

أو تيسكا أو شيء من هذا القبيل. حسنا، لا أعرف شيئا عن بيتر. فقد كان في الحرب. هل لكِ أن تقولي من أنتِ مرة أخرى؟».

- «حسنا..».

- «اللعنة، انسي الأمر»، قال، ثم دخل منزله.

عندما وصلتُ إلى الدور السفلي دفعتُ الدراجة باتجاه الشارع وانطلقتُ نحو إيليكا، حيث كان الذين ينهضون في وقت مبكر بدؤوا للتو بالاستيقاظ.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(7)

كانـت فتـرة ما بعد الظهـر من اليوم التالي شـديدة الرطوبة لدرجة أننا كنا بالكاد نتحرَّك من أماكننا.

- «أنا لا أفهم كيف تمكنتم من استيراد ووكر وتكساس رينجر، ولم تسـتوردوا تكييف الهواء»، قلتُ، مشـيرة إلـى التلفزيون. بدا لوقـا للحظـة وكأنه يريـد أن يخنقني، لكنه لـم يُجب. كان الجو حارا بشكل يجعل الإنسان يمتنع عن الشجار.

كان لوقـا ووالـده يتجـولان في المنزل بملابسـهما الداخلية. وكان لوقـا هزيلا ورشـيقا، حيث كانت عضلاته المتناسـقة تتموج وهـو يذرع غرفـة الجلوس جيئة وذهابـا. تابعتُـه بنظراتي، وكان طولـه بطول برايـان تقريبا. سـاقاه أنحف، لكـنّ كتفيه أعرض، وبشـرته أكثر دُكنة. كان جسـده جميلا، بل من النوع الذي ترغب فيه المرأة، وقد راقني النظر إليه، كما كان يمكنني أن أشعر بعينيّ وهمـا تراقبـان معدتـه أثنـاء مروره. لكـن الجوانـب الأخرى من لوقا كابتسـامته الصغيرة وشعره الأسود السلكي المنتصب بشكل عمـودي.. بقيـت على حالهـا. في تلك الجوانب لـم يكن يتجاوز العاشرة من عمره بالنسبة لي.

أمـا معـدة ميـرو فكانت متدلّية فـوق زنّار سـرواله الداخلي،

Twitter: @ketab_n

فقد كانت عبارة عن كتلة من اللحم الشاحب الذي يتناقض بشكل صارخ مع السُّمرة العميقة لساعديه اللذين كانا دائما مكشوفين بسبب طبيعة زي الشرطة الصيفي. كان يتصبب عرقا من أماكن لم أكن أعرف أن الإنسان يمكن أن يتعرق منها، وكان العرق يتجمع في طيات بأماكن من جسده لم يكن ينبغي أن يكون فيها طيات. كان المنزل ممتلئا برائحة الأجساد.

- «كنتُ أفكر»، قلتُ، محاولة الظهور بمظهر غير المكترث. ثم أضفتُ «هل تريد الذهاب إلى مكان ما؟».

- «لتناول البيتزا مثلا؟».

- «إلى تيسكا».

- «تيسكا. أأنتِ متأكدة من أنك تريدين سلوك ذلك الطريق، في الشارع الجنوبي؟».

كان هناك طريق رئيسي واحد فقط يصل شمال البلاد بجنوبها. وكان المرء يحتاج إلى يوم كامل بالسيارة للذهاب من زغرب إلى سبليت، بعد ذلك يتعين عليه سلوك عدة طرق فرعية أخرى حتى يتمكن من الوصول إلى تيسكا.

- «سأكون بخير».

- «سمعتُك تغادرين الليلة الماضية».

- «لم أستطع النوم. ذهبتُ فقط في جولة بالدراجة».

أستطيع القول إنه كان يعلم بأنني أكذب، لكنه رأى التاريخ يتأجّج في مقلتيّ، فتجنّب الخوض في هذا الموضوع.

- «سأرى ما إذا كان يمكنني الحصول على السيارة».

في الصباح بدأ لوقا حملة توسل مع والدته كي تسمح لنا بأن نستعير سيارة العائلة، وهي من نوع رينو 4. عندما كنا أطفالا

Twitter: @ketab_n

كنا نتمتع بهامش أكبر من الحرية مقارنة بالأميركيين البالغين من العمر عشر سنوات، لكن الآن كان الأمر معكوسا على نحو غريب؛ فقد كان لوقا وجميع طلاب الجامعة الآخرين يعيشون في منازلهم، تحت رعاية أهلهم.

في النهاية لم يكن واضحا بعد ما إذا كنا قد حصلنا فعلا على الإذن بأن نأخذ السيارة، ولكننا تصرَّفنا كما لو أن هذا الأمر قد تم بالفعل، حيث قام لوقا بأخذ المفاتيح من المسمار الذي كانت معلَّقة به على الحائط. كان الصدأ يغطي معظم تلك السيارة، التي كانت ذات يوم بيضاء اللون. وضعنا في صندوق السيارة ملابس وأباريق ماء وبطانيتين برتقاليتين وساطورا من مخزن المعدات، ثم غادرنا دون أن نقول وداعا، وذلك تحسبا من أن يتم منعنا من الذهاب.

توقفنا عند البقالة للتزود بالمؤونة. ملأنا عربة بعبوات الحليب - من النوع الذي يأتي ضمن علب كرتونية لا تحتاج إلى تبريد - وأكياس من حبوب الإفطار وجبن القريش ورغيف طازج من الخبز الأسمر. خلال أول فصل شتاء يمر علينا بعد بدء الحرب، حيث كان والداي قد قُتلا وكنا جائعين، اقتحمنا، لوقا وأنا، هذا المتجر ذاته وجمعنا بعض علب الحساء المجفَّف ثم نقلناها إلى ممر الأغذية الخاصة بالحيوانات الأليفة، الذي لم يكن يراقبه العمال. بعد ذلك رحنا نمزِّق التغليف الموجود عليها بأسناننا، ثم جلسنا نتشارك في تناول إحدى تلك العبوات، التي كان طعمها مالحا وتفوح منها رائحة البصل. في بداية العام 1992، لم يكن هذا الأمر يُعتبر سرقة في كرواتيا. حدقتُ في وجه لوقا بحثا عن دليل يوحي بأنه يتذكر تلك الحادثة،

Twitter: @ketab_n

لكن يبدو أنه على الأرجح زار هذا المتجر مئات المرات منذ ذلك الحين. قاد العربة نحو بوابة الخروج، حيث دفعنا قبل أن نخرج.

بعد بضع دقائق، وقبل أن نصل إلى مدخل الطريق السريع، خرج لوقا من الطريق ودخل في موقف السيارات الخاص بالمدرسة الثانوية الفنية.

- «هل تقودين؟» قال.

- «نعم. مع أني لا أقود الجير العادي».

ترجَّل لوقا من السيارة، فانتقلتُ للجلوس في مقعد السائق من فوق حاجز التحكم الموجود في المنتصف. أوضح لي لوقا بأن ذراع الجير يهتز كالأرجوحة، وأن الأمر مرتبط بالحفاظ على توازن الضغط.

- «اضغطي على الدواسة الموجودة على اليسار حتى تلامس قدمك أرض السيارة».

ضغطتُ على الدواسة الخطأ، فاندفع المحرك بعنف.

- «الدواسة الأخرى على اليسار».

كانت السيارة من النوع القديم الذي يوجد فيه صمام خنق يدوي، وقد مدَّ جسده من أمامي لكي يرفع ذراع التنفيس حتى يتراجع صوت الاختناق في المحرك. درتُ بالسيارة داخل الموقف دون إبطاء، ثم نقلتُ السرعة إلى الأول والثاني ثم الثالث.

- «حسنا»، قال، مشيرا لي كي أخرج إلى الطريق الرئيسي، ثم أضاف «أصبحتِ جاهزة».

- «ماذا أفعل؟» صرختُ.

لمحتُ إشارة مرور حمراء على منحدر حاد، وعندما تغيَّر الضوء رفعتُ قدمي عن المكابح، فبدأت السيارة تعود إلى الخلف

Twitter: @ketab_n

بشكل غريب. ضغطتُ على الدواسة مرة أخرى حتى وصلتْ قدمي إلى أرض السيارة.

- «فقط اضغطي قليلا على دواسة البنزين».

السائقون الموجودون خلفي بدؤوا يطلقون أبواق سياراتهم. رفعتُ قدمي عن الدويرياج على نحو أسرع من اللازم، فبدأت السيارة تطلق صوت فرقعة، ثم هدأتْ. تجاوزنا أحد السائقين من على كتف الطريق. مدَّ لوقا يده وأطفأ محرك السيارة، ثم طلب مني إعادة تشغيلها، ولكني لم أفعل سوى التحديق في وجهه حتى اشتغل الضوء الأحمر مرة أخرى.

- «اهدئي»، قال لي بطريقة هادئة لكنني وجدتُها مستفزَّة.

- «اللعنة عليها»، قلتُ.

أدرتُ المفتاح بقوة لتشغيل السيارة. أطلق المحرك صوت عويل عندما ضغطتُ على دواسة البنزين عند التقاطع. أدى ذلك إلى انطلاق المزيد من الأبواق من السيارات الأخرى، فتوقفتُ.

- «كنتِ تقودين بشكل جيد. يجب أن تتعلمي. لا يمكنني أن أقود السيارة طوال الرحلة».

- «لم يكن ذلك جيدا».

تنهَّد لوقا، ثم قال لي «أنتِ غير صبورة»، ولأن ذلك كان صحيحا، فإني شعرتُ بالألم من تلك الكلمة أكثر مما لو وجَّه لي إهانة أشد قسوة. بعد ذلك تبادلنا الأماكن.

- «ستتولين القيادة بعد أن نخرج من زغرب»، قال، ثم شغَّل الراديو.

عندما صرنا على الطريق السريع أصبحتُ أكثر هدوءا. بدأتُ بالقيادة مرة أخرى، ولكن في ظل عدم وجود لافتات للوقوف أو

Twitter: @ketab_n

إشارات مرور كان الأمر أسهل. خلعنا أحذيتنا وألقينا بها في المقعد الخلفي، ثم أنزلنا النوافذ، وفسحنا المجال للهواء كي يتدفق عبر السيارة. كان الهواء ساخنا، لكنه على الأقل يتحرك. كانت لوحة العدادات تهتز على أنغام خليط من أغاني التكنو الشعبية التي كانت تغزو موجات الأثير في البلاد. كانت عبارة عن مزيج من الألحان الإسلامية التقليدية والمتوسطية التي رُكِّبتْ فوقها إيقاعات من موسيقى الهاوس الصاخبة، حيث أصبحت هي الموجة الجديدة من موسيقى البوب في فترة ما بعد الحرب. وبما أنها كانت بعيدة كل البعد عن الأناشيد القومية التي عرفناها في طفولتنا، فقد كانت بمثابة «الهدنة الثقافية»، كما أسماها لوقا، لكونها تمثل محاولة لإعادة جمع القوميات المنفصلة بعضها مع بعض.

- «أحب الأغاني الجديدة»، قال لي وهو يداعب مفتاح التوليف لتنقية الصوت أثناء تجاوزنا آخر ضاحية من ضواحي زغرب. ثم أضاف «إنها موسيقى عبقرية حقا. فجميع الناس في المرقص يسكرون ويتمايلون على أنغام هذه الموسيقى التي يعتبرها الجميع نابعة من تراثهم».

عندما أصبحنا خارج زغرب بدأ الجانب الريفي يطغى بسرعة على المشهد، كوجود الأغنام والدجاج وصفوف الذرة الواقعة على طول الطريق، وكان من الصعب تمييز مزرعة عن أخرى أو سلسلة مزارع عن سلسلة أخرى. حدثني لوقا عن نهاية الحرب وعما كان يفعله كل صديق من أصدقاء المرحلة الابتدائية، أما القصص التي حكيتُها فكانت تدور عن راهيلا والمدارس الثانوية في أميركا ومدينة نيويورك.

Twitter: @ketab_n

نظـرتُ إلـى السـاعة؛ كنا نقـود السـيارة منذ بضع سـاعات. وأظهـرتْ لافتات الطرق التي كانت آثـار الرصاص ظاهرة عليها بأننا كنا نقترب من المكان الذي يتفرَّع فيه الطريق نحو سارايفو. كنتُ متوترة وانعطفتُ تماشيا مع اللافتة التي تشير نحو المنتزه الوطنـي لبحيـرات بليتفيتـش. لاحظ لوقا ذلـك ولكنه لم يقل شيئا. كانت بليتفيتش تشتهر بجمالها، حتى خارج كرواتيا، ولم يسـبق لـي أن زرتُ ذلـك المكان، لذلك كان من السـهل جدا إيجاد مبرر للتوقف فيها.

فـي المنتـزه أخرجـتُ آلة التصويـر الخاصة بي مـن صندوق السـيارة وعلَّقتُها على صدري بواسطة حزامها الضخم. تحدثنا أثنـاء مرورنا من البوابة الأمامية دون أن ندفع، حيث قالت المرأة التي تحرس الكشـك بأنها شـعرت بالارتياح لمجرد سماع شخص يتحـدث الكرواتية. وأضافت أنها قد تمضـي يوما كاملا من دون أن تلتقـي بكرواتـي آخر، حيث كانت تمضي سـاعات بحالها وهي تتحدث بلغة الإشـارة والإنجليزية الركيكة مع السـياح القادمين من إيطاليا وفرنسا. وقالت أيضا إنها كانت تفضل السياح الألمان لأنها كانت تجيد التحدث قليلا باللغة الألمانية.

- «الجميـع يتعلـم الألمانيـة فـي المدرسـة حاليـا لأن الألمـان سارعوا إلى الاعتراف بنا كدولة»، قال لي لوقا.

لم تؤدِّ مداخلة لوقا إلى التخفيف من حماس حارسة المنتزه علـى الإطـلاق، حيـث تابعـت حديثها وقالـت إن مشـكلة الألمان تتمثل في أنهم وقحون إلى حدّ ما، وأن جميعهم يرتدون ملابس تشـبه ملابـس الكشّـافة. ثـم أضافت إنـه في كل الأحـوال يجب علينا أن ندخل إن كنا نرغب بذلك، لأنه من السـخيف أن يتعين

Twitter: @ketab_n

على الكروات أن يدفعوا ليتمكنوا من رؤية المنتزه الخاص بهم.

- «في إحدى المرات، حيثُ كانت الحرب قد انتهت للتو، ذهبتُ برفقة والدتي إلى ألمانيا لزيارة شقيقتها»، قال لوقا عندما اجتزنا البوابة ووصلنا إلى الممر الرئيسي. «كنت في الخامسة عشرة من عمري حينذاك، وكنتُ أرتدي قميصا رُسِمَ عليه العلم الكرواتي، وهو من إصدارات أكاديمية الشرطة. وفي مطار فرانكفورت جاء رجل إليّ وسألني ما إذا كنتُ كرواتيا»، أضاف.

- «هذا لا يبشر بالخير»، قلتُ.

- «قلتُ له نعم، فقال لي إنه يعيش في ألمانيا منذ وقت طويل، ولكنه من أصل كرواتي أيضا، وعبَّر عن أسفه لما مررتُ به خلال الحرب. ثم قدَّم لنا علبة من الشوكولاته باهظة الثمن وانصرف»، قال.

- «كان ذلك الشيء الجيد الوحيد الذي تلقيتُه حتى الآن لمجرد أني كرواتي»، أضاف لوقا.

- «أعتقد أن القصة التي سأحكيها لك تحدث معي لأول مرة»، قلتُ.

ثم سردتُ له قصة جرت معي، حيث قلتُ له إنني كنت ذات مرة في مترو الأنفاق، وحدَّقتُ طويلا في شاب وفتاة يتحدثان باللغة الصربية، فوقفتُ هناك بطريقة لا بد أنها كشفتْ لهما بأنني أفهم ما يقولانه.

- «أتتحدثين اللغة الصربية؟» قال صديق الفتاة باللغة الصربية.

- «بل اللغة الكرواتية»، قلتُ له.

- «آه»، قالا بصوت واحد.

Twitter: @ketab_n

مـدَّ صديقهـا يده لـي، وتصافحنا . أمضينا بضـع دقائق في حديث ودي لا جدوى منه، حيث ترجلتُ من القطار عند المحطة التاليـة، التي لـم تكن محطتي. لم يتمخض عن ذلك اللقاء أي شـيء جيد؛ فهما بـدا عليهما الارتباك، أما أنـا فقد تأخرتُ عن الصف.

مررنـا، لوقا وأنـا، بجانب لوحة مذهَّبة وموضوعة في الأرض كُتـب عليها (في ذكرى جوزيب يوفيتـش). كان منتزه بليتفيتش في قلب الحرب حتى قبل أن تبدأ الحرب، فقد كانت هذه المنطقة مـن أولـى المناطق التـي تم الاسـتيلاء عليها لأن الصـرب كانوا يريدون الحصول على منفذ إلى البحر عبر البلاد. خلال عملية الاستيلاء التي عُرفتْ فيما بعد بالفصح الدامي، حصل اشتباك بين قوات الشرطة الكرواتية والصربية، حيث قُتل ضابطٌ من كل جانـب، وقـد تم تأبين الضابطـين اللذين قُتلا فـي تلك العملية كشـهدَين. كان ذلـك قبل بـدء الغارات الجوية بأشـهر، ولكن من الناحية الفنية، فإن أول قطرة دماء أُريقتْ في تلك الحرب كانت هنا.

لـم تكن هنـاك مناظر جميلة عنـد أطراف المنتـزه، فقد كنا لا نـزال علـى ارتفـاع عال ويتعـين علينا النزول حتـى نصل إلى الماء. تفحَّصنا الخريطة التي أعطتنا إياها السيدة الموجودة عند الشباك، ثم قررنا السير في طريق من شأنه أن يجعلنا نمر بأكبر شلال ماء.

وقد أشار الكتيِّب إلى أن جميع البحيرات سُمِّيتْ تيمُّنا بأناس أسطوريين كانوا قد غرقوا فيها.

- «تُرى ماذا كانوا يطلقون عليها قبل غرق كل هؤلاء الناس؟»

Twitter: @ketab_n

قال لوقا، واضعا الورقة في جيبه الخلفي.

- «ربما لا شيء. ليست هناك حاجة للتمييز فيما بينها».

- «لماذا كانوا جميعا يغرقون في كل الأحوال؟ إنها مجرد بحيرة، وليست ملتقى لتيارات قوية يمكن أن يعلق فيها الإنسان».

- «هل كان والدك يعرف الرجال الذين قاتلوا هنا؟».

- «هاه؟».

- «أقصد رجال الشرطة الذين قتلوا في يوم الفصح الدامي».

- «يا إلهي، لقد نسيتُ هذا الأمر. هل هذا يعني أني أصبحتُ على شفير الخرف؟».

- «البلاد كلها أصبحتْ على شفير الخرف»، قلتُ.

كنتُ أقصد المزاح في قولي ذلك، لكنني قلتُها بنبرة يشوبها التردد فلم يضحك لوقا.

- «لنذهب وننظر إلى المياه. لا بد أن هناك سببا يدفع كل هؤلاء الألمان لكي يتجولوا في ساحة معركة حزينة وصغيرة كهذه».

- «لا، لم يكن يعرف ذلك الضابط»، قال لوقا، ثم أضاف «أعتقد أنه كان من زاغورا».

وصلنا إلى حافة جرف ثم نظرنا إلى الأسفل نحو تلك البحيرات ذات المياه الفيروزية المذهلة. كانت قد بُنيت فوق المياه الضحلة جسور خشبية للمشاة، أما صوت الشلالات فقد طغى على الثرثرات غير المفهومة للغات الأجنبية. كان جمال المكان واضحا إلى درجة يكاد يكون مدعاة للقلق، ولربما غرق الناس هنا لأنهم كانوا يريدون ذلك، أو على الأقل لأنهم سمحوا لأنفسهم بالاستسلام لتلك الزرقة التي لا يُسبر غورها. لم يتأثر جماله

Twitter: @ketab_n

قيد أنملة بما جرى من سفك للدماء، وكان من السهل رؤية كيف كان يتمكن السياح من إخراج كل ذلك التاريخ من أذهانهم.

وجدنا مكانا منعزلا في أسفل الوادي يمكننا من خلاله أن نضع أقدامنا في الماء. كانت إحدى اللافتات تحمل تحذيرا في عدة لغات مفاده أن لمس الماء غير مسموح، لكن لوقا لم يبدُ مكترثا للقوانين، أما أنا فقد اكتسبتُ جرأة من خلال تلك المرأة التي تقطع التذاكر عند البوابة، والتي وصفت المكان بأنه مُلْكي. كانت المياه صافية ودافئة، وشاهدتُ كيف لامستْ إحدى الأسماك كاحل لوقا، حيث جفل من جراء ذلك، ثم تظاهر بأنه يسعل ليوحي لي بأنه لم يلاحظ ما حدث. ضحكتُ ثم شغَّلتُ الكاميرا.

كانت كاميرا للتصوير الفوري، وهي من النوع الذي تخرج منه الصور تلقائيا، وقد اشتريتُها من سوق خيري قبل أن ألتحق بالجامعة. اشتريتُها من منطلق الرغبة في أن أصبح مثيرة للاهتمام، وكانت غاردنفيل قادرة على إخراج هذا النوع من اليأس القابع داخل الإنسان. كانت مسننات الكاميرا تحدث صوت أزيز، في حين بدا لوقا مندهشا من تلك الضوضاء الآلية وسط الضوضاء العشوائية للمياه المتدفقة.

«ما هذا؟» قال وأنا ألتقط إحدى الصور.

كانت الكاميرا تُخرج الصورة على شكل مربع من فتحتها الأمامية. تجسَّد طيف لوقا، الذي كان فاغر الفم وواسع العينين أسودهما، على خلفية زرقاء رائعة. رفعتُ الصورة إلى الأعلى، فسخر من الأمر.

– «هذه تمثل أميركا.. بمنتهى الدقة»، قال.

Twitter: @ketab_n

لم يكن الرد الذي كنت أتوقعه منه، وكنت أعلم أنه كان يقصد الاستهزاء.

- «لا، ليست كذلك!» قلت، متخذة موقفا دفاعيا. ثم أضفتُ «إنها قديمة. الناس هنا أيضا كان يوجد لديهم كاميرات تصوير فورية».

- «أتكلم بجدية، ما الشيء الذي من شأنه أن يوفر إشباعا فوريا للرغبات أكثر من هذا؟» ثم نقر الصورة بطرف إصبعه، وأضاف «يمكنك أن تشعري بالحنين إلى الماضي في غضون ثلاث دقائق».

- «ليس الأمر كذلك. هذه الصورة فريدة من نوعها. من المستحيل نسخها. إنها أشبه بعمل فني».

- «عمل فني؟» قال لوقا، ثم أخذ الصورة وبدأ يهزها.

- «هذا لا يجدي نفعا في الحقيقة. هز الصور هو من الخرافات».

توقّف وسلمني الصورة. سحبنا أقدامنا من المياه وتركناها تجف على الخشب المتشقق. ثم وقفتُ ووضعتُ الكاميرا في جيبي. تذكّرتُ سيبالد وصوره؛ ربما كانت تلك هي الوسيلة التي يستخدمها لتجنب مزالق الذاكرة.

- «على أي حال، هذه الصور هي من أجل راهيلا»، قلت له، ثم صعدنا من الوادي وعدنا أدراجنا إلى السيارة والطريق والساحل.

كان عقل لوقا مكانا سحيقا لم أكن أستطيع سبر أغواره، مع أن المسار الذي كانت تتخذه محادثاتنا كان مألوفا. كان استعداده

Twitter: @ketab_n

للفصل بين الأشياء، التي كنتُ أفضل الإبقاء عليها موحَّدة، يُشعرني بالافتتان والانزعاج على حد سواء، تماما مثلما كان يفعل عندما كنا صغارا.

- «الشيوعية هي الفاشية، في جميع تطبيقاتها العملية»، كان يقول لي في هذه اللحظة. ثم أضاف «هل يمكن أن تذكري لي بلدا شيوعيا واحدا بلا ديكتاتور؟» ولكنني كنت أفكر بريبيكا ويست، وكيف أن الناس الذين التقتهم في يوغوسلافيا إما قتلوا جميعا وإما تم استعبادهم، حيث خاضت هذا النقاش نفسه في بداية الحرب العالمية الثانية. كانت كرواتيا على الجانب الخطأ من التاريخ آنذاك، حيث كانت ألعوبة في يد الألمان والإيطاليين، وقد قامت بدورها في قتل الأبرياء. هذا أكثر شيء كنتُ أكرهه، فقد كنتُ أكره كوني لا أستطيع توجيه غضبي نحو مثل هذه الخلفية المظلمة.

- «هذا صحيح»، قال لوقا، عندما ذكرتُ له الحزب الفاشي في الأربعينيات. ثم أضاف «ولكن قبل ذلك كانوا يجعلوننا نتضور جوعا. لم يكن بمقدورنا امتلاك الأراضي. الشباب يقاتلون من أجل هذه القضية منذ آلاف السنين. ومعظم أولئك الشباب أُعدموا عندما جاء تيتو إلى السلطة. هذه هي الحقيقة».

كان يتحدث بشيء من الحزم، وقد شعرتُ بالارتياح عندما تخطى الحديث أشباح الحكومات السابقة ليدخل في رحاب الأخلاق الأكثر اتساعا. بدأنا بفولتير (وقد كان لوقا معجبا بالهجوم البارع على العقيدة الدينية، نظرا لأن الدين يشكل المحرِّض الرئيس للتوترات العرقية لدينا في رأيه)، ثم ناقشنا فوكو (الذي كانت رؤيته غير الأخلاقية للسلطة تُغضب لوقا)،

Twitter: @ketab_n

أمـا أنا فكنتُ أشـعر طوال الوقـت بأن التعليم الـذي تلقيتُه في المدارس الأمريكية جعلني إلى حدّ كبير غير مؤهلة للخوض في نقـاش فلسـفي من هذا النوع. بدا لـي أن لوقا قد قرأ على الأقل أجـزاء من الكتـب المؤثرة خلال المرحلة الثانويـة، أما أنا فظللتُ أراجـع مـا حفظتُه من منهاج نظرية النقد الذي كان مقررا علي عندمـا كنـتُ طالبة مسـتجدة. فتوقفـتُ ومددتُ يـدي لإحضار الخريطة من علبة القفازات.

- «مـا الـذي تبحثـين عنه؟» قـال لوقا، ثم أضـاف «ما عليكِ سوى اتباع اللافتات التي تشير نحو دوبروفنيك».

تجاهلتُـه وواصلـتُ تتبـع الأماكـن علـى الخريطـة بإصبعي طـوال الطريـق، مـع التحديق بطـرف عيني لأتمكن مـن قراءة أسماء أصغر القرى.

وضع لوقا ذراعه فوق حضني، ليحجب الخريطة عني.

- «آنا. انظري إليَّ».

- «ماذا؟».

- «أنـا هنـا، سـأذهب معك حيثمـا تريدين، ولكـن لا يمكنكِ تجاهلي بهذا الشكل».

- «لستُ..».

- «مهما يكن. ربما أستطيع المساعدة».

- «لا توجد لدي هنا خطة شاملة».

- «كان يمكننـي أن أطلـب مـن والـدي أن يزودنـي بالمعلومات القديمـة أو بأشـياء من هذا القبيـل. ليس مطلوبـا منكِ إلا أن تكوني صادقة معي».

- «أعلم، أعلم».

Twitter: @ketab_n

- «هذا وعد؟».
- «أعدك»، قلتُ.

كنت أعلم أنها كذبة حتى في لحظة خروجها من فمي. كان لا يزال هناك شيء واحد لم أخبره به، ولم أكن قد أخبرتُ به أحدا قط.

- «حسنا»، قال، ثم أضاف «إلى أين تريدين الذهاب؟».

أشرتُ نحو جزء من الطريق يوجد فيه منحنى يشبه عصا البومرانغ، ثم أعدتُ تشغيل السيارة.

عندما عدنا إلى الطريق شعرتُ بما يشبه الدوار من شدة الترقب. لقد تصورتُ عودتي إلى هذا المكان مئات المرات، إنها العودة التي كنتُ أخشاها وأتوق إليها، ولكن لم يكن من بين كل تلك التصورات أني سأشعر بالضعف الشديد إلى هذا الحد. تأملتُ المشهد بحثا عن أدلة، ولكن إما أنه ما من شيء كان مألوفا، وإما أن كل شيء بدا كما هو. مررنا بحقول ضيقة من شجر الصنوبر الأسود والدردار، حيث كان بعضها أخضر ينبض بالحياة، في حين كان بعضها الآخر مسودا وعاريا بسبب حرائق الغابات. أحكمتُ قبضتي على عجلة القيادة وضغطتُ بقدمي بقوة على دواسة البنزين. كنت أستطيع رؤية لوقا يراقبني من زاوية عينه.

- «ماذا تفعلين؟».
- «لا شيء».
- «هل تريدين مني أن أقود السيارة؟».
- «أنا بخير».

كان صف الأشجار يصبح أكثر كثافة ونضجا، إلى أن أصبح

Twitter: @ketab_n

جانبا الطريق السريع مليئين بأحزمة سميكة من شجر البلوط الأبيض.

- «أنا لا أمزح يا آنا، أنتِ تسيرين بسرعة كبيرة، ورجال الشرطة سيطلبون رشوة مضاعفة إذا رأوا رخصتك الأمريكية».

ألقيتُ نظرة على إبرة عداد السرعة التي كانت ترتعش ولكني لم أبطئ من سرعتي.

- «لو تتوقفين فقط فإني أستطيع..».

- «لا أريد أن أتوقف هنا».

لفت نظري طريقٌ فرعي صغير محجوب بالكامل تقريبا بسبب النمو المفرط للأعشاب. مددتُ رقبتي لأشاهده فوجدتُ أنه ينحدر بشكل حاد نحو الوادي. احتجَّ لوقا مرة أخرى، ولكني أسكتُّه. بدأتْ معدتي تتقلب، فحاولتُ أن أتجاهلها. ربما كان هناك الكثير من القرى في هذا الوادي، والتي يوجد لها الكثير من الأفرع الصغيرة المتعرجة التي كانت تتبع نفس المنحنى.

ثم، بعد بضع دقائق كانت هناك انعطافة قاسية في الطريق الرئيسي، وكنت أعلم ماذا سيحصل.

- «يا إلهي».

- «ماذا؟».

ضغطتُ على المكابح بقوة وانحرفتُ نحو كتف الطريق. توقفنا على العشب الكائن على جانب الطريق، فيما كانت رائحة بطانات المكابح المحترقة تندفع نحونا عبر النوافذ المفتوحة.

- «ماذا تفعلين يا آنا! هل جُننتِ؟».

«لا»، كانت الإجابة الصحيحة، وهي الإجابة التي أردتُ أن أقولها، ولكن بدلا من ذلك خرجتْ مني عبارة «على الأرجح»

Twitter: @ketab_n

ثم خرج من صدري صوتٌ مصحوب بحشرجة ودموع. تنهَّد لوقا ووضـع إحـدى يديه على ركبتـي، وبكيـتُ ذلك النوع مـن البكاء الـذي يكـون مصحوبا بشـهقات خانقة، والذي لـم أبكه مذ كنتُ على الجانب الآخر من هذا الطريق نفسه، قبل عشر سنوات.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

III
المنزل الآمن
(1)

أحسستُ بحرقة في عينيّ. استقرّت الشمس في الأفق فمشيتُ نحوها. تفرَّع الطريق أمامي. كان الطريق الرئيسي كبيرا ومستويا، أما الطريق الأصغر فكان غير مُعبَّد وينحدر نحو السهول. كان هناك عمود لولبي من الدخان يتصاعد من الوادي، يومئ لي بإصبعه الناعم. لم يقل الطريق الكبير شيئا. لحقتُ الدخان، فقادني إلى وسط قرية تقع في شارع صخري تصطفُّ المنازل على جانبيه. ثمة امرأة ملفوفة بشال أرجواني تقدِّم ما تبقى لديها من فتات الخبز اليابس إلى دجاجات هزيلة في فناء منزلها. شعرتُ بأنها كانت تنظر إلي، لكنني واصلتُ المشي. اقتربتُ منها، ارتخى فمها عندما شاهدتني؛ مخلوقٌ صغير عائد من الموت ومغطى ببقع الدم وغارق في السوائل الجسدية لأشخاص آخرين. اقتربتْ مني ونادتْني. توقفتُ في منتصف الشارع.

جاءت إليّ وجثتْ أمامي، ثم سألتني عن اسمي، ومن أين كنتُ، وما الذي حدث. حاولتُ أن أحدِّد من خلال لهجتها ما إذا

Twitter: @ketab_n

كانت صربية أم لا، وما إذا كان التحدث إليها آمنا. لم أستطع تحديد ذلك، فحسمتُ أمري معتبرة أن الأمر لم يعد يهم في الحقيقة، حيث لم يكن هناك مكان آخر ألجأ إليه، وأنه يمكنني أيضا الإجابة على أسئلتها. لكن في مكان ما على الطريق الذي سلكتُه كان جسدي قد أقسم على التزام الصمت؛ فقد تحدثتْ هي مطوّلا، لكني بقيتُ ساكتة. أمسكتْ بيدي، فتقيأتُ على الإسفلت. أمسكتْ بذراعي في نهاية المطاف وأخذتني إلى منزلها. اهتمتْ بي وغسلتْ معصميّ لتزيل الدم عنهما. لم تستخدم سوى الماء البارد، ولكن جروحي كانت ملوثة وتؤلمني. اغرورقت عيناي، ولكن لم يخرج منها أي دموع.

في الأسبوع الأول كنتُ أجلس على أرضية المطبخ وأدير ظهري إلى الحائط في حين كانت ركبتاي تبقيان ملاصقتين لصدري. كنتُ أُحصي المربّعات الموجودة في مفرش الأرض، وأحدق في الشق الكائن في ساق طاولة الطعام، وأحكُّ معصميّ الملفوفين بالشاش. لم تكن عيناي ترفّان إلا ما ندر، في حين كنتُ أتنقّل بطريقة عرجاء وآلية. في الليل كنتُ أنام في نفس المكان، مفترشة الأرض وملتفة حول نفسي على شكل عقدة.

كان ابن هذه السيدة، وهو صبي يكبرني بعدة سنوات، يغادر المنزل في وقت مبكر صباح كل يوم ويعود بعد حلول الظلام. كان يتجول بحذائه العسكري، ويتحدث باستمرار عن (المنزل الآمن). لم أكن قد سمعتُ بهذه العبارة من قبل، فاعتقدتُ أنها الملجأ الخاص بالقرية من القصف. لم يتحدث هذا الولد إليّ على الإطلاق، وعندما كان يمشي، فإنه كان يترك مسافة كبيرة بينه وبين الركن الذي كنتُ أجلس فيه كما لو أنه كان لدي مرضٌ

Twitter: @ketab_n

معـد. وقد شـعرتُ بأنه يوجـد لدي فعلا مثل هـذا المرض. كانت تلـك السـيدة تقدم لي المـاء في كوب من الألمنيـوم بالإضافة إلى الخبـز مع الزيـدة، ولكن كان من الصعـب أن آكل. حتى التنفس كان بالنسـبة لي عملية شـعورية. في المـرات القليلة الأولى التي انطلقـتْ فيها صفارات الإنـذار الخاصة بالغارات الجوية حاولت المـرأة إقناعي بالذهاب معها إلـى الملجأ، ولكني بقيتُ في الزاوية الخاصـة بي. ولم تكـن التفجيرات التي جرت في ذلك الأسـبوع الأول ذات أهمية؛ فقد كنت مُخدَّرة من الخوف.

كان لدى تلك المرأة زوار يدخلون منزلها تحت ذرائع مختلفة، وكانـوا يمعنـون النظـر بـي من أطـراف عيونهـم، ولكنهـم كانوا يتحدثون كما لو أنني لم أكن موجودة على الإطلاق.

- «ربما هي غبية فقط»، قال أحدهم.

- «ربما هي بكماء».

- «لا، ليسـت غبية»، قالت المرأة، التي كشـفتْ تلك المحادثات عن أن اسـمها كان درينكا. ثم أضافتْ «المشـكلة لا تكمن في عدم قدرتهـا علـى التكلم، بل فـي أنها لا تريد القيام بذلك وحسـب. أستطيع أن أجزم بذلك».

- «يبدو لي أنها تلقت صدمة»، قالتْ إحدى السيدات المسنات الأكثر لطفا، ثم أضافتْ «رأيتُها كيف كانت ملوَّثة بالدماء عندما عثرتِ عليها».

في نهاية المطاف تلاشـت تدريجيا تلك الغرابة التي أحدثها وجـودي، وأصبحـتُ أطّلـع على الأحاديـث التي كانـت تدور بين النسـاء، حيـث تحدثـوا عن تلـك العائلة المكونة مـن خليط من الصرب والكروات والتي كانت تعيش في ذلك الشـارع ثم اختفت

Twitter: @ketab_n

بين ليلة وضحاها، كما تحدثوا عن ابنة جارهم الذي يسكن على مقربة منهم، حيث كانت حاملا مع أنها لم تكن تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها.

كان سلاح الجو في الجيش اليوغوسلافي قد سحق القرية في بداية الحرب كجزء من مهمته الرامية إلى تكوين ممر لصربيا إلى البحر. بعد ذلك، قامت مجموعة صغيرة من المتمردين التشيتنيك - بعضهم من القرويين أنفسهم - بالسيطرة وتولي زمام الأمور. كان التشيتنيك يقومون بجولات متناوبة بين هذه القرية وعدة قرى أخرى على طول امتداد الطريق السريع، حيث قاموا باعتراض المساعدات الإنسانية والإمدادات العسكرية الكرواتية والسيطرة على المستوطنات وتحويلها إلى محطات استراحة للقوافل الخاصة بهم. لقد قرروا عدم قتلنا، أو على الأقل عدم قتلنا جميعا، أو تأجيل هذا الأمر، وذلك لكي لا تتوقف الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلسي عن إرسال المساعدات الغذائية. وعندما كان التشيتنيك في المدينة، فإنهم أقاموا مقر قيادة لهم في مبنى المدرسة الكائن في وسط القرية، حيث كانت فتحات المبنى تُغلق باستخدام فتلة معقدة من حبال البانجي. ومن خلال صرخات النساء، كان الجميع يعلم ما الذي يجري في داخل ذلك المبنى.

- «الآن سوف تلدين لنا جنديا صربيا صغيرا»، قالوا لابنة الجار بعد أن اغتصبوها.

وعندما جاءت ذات مرة لتستعير الدقيق، حدَّقتُ في ذلك القميص البني المتسخ الذي كان مشدودا حول بطنها الآخذ في التضخم.

Twitter: @ketab_n

خرجتُ من المنزل لأول مرة عندما حصل انفجار أدى إلى نفوق الدجاجات. في تلك الأيام كان الجيش الشعبي اليوغوسلافي يقصف القرية بشكل متقطع، حيث بدا ذلك كما لو أنه عن طريق المصادفة تقريبا. وقد أسفرت الانفجارات الأولية عن أضرار متوقعة كانهيار بعض المباني وتحطم الزجاج، ولكن الخطر الحقيقي كان يكمن في انقشاع الدخان. فالقنابل التي تسقط كانت تطلق أعدادا هائلة من الكرات المعدنية الصغيرة. وكان العالم الخارجي يسميها «القنابل العنقودية». أما نحنُ فكنا نسميها زفونتشيشي، أي أجراس عيد الميلاد. لم تكن تشبه الألغام الأرضية التقليدية أو الأفخاخ السلكية التي توضع بهدف القتل في مناطق الاشتباك. كانت أجراس عيد الميلاد هذه تعلق بين الأشجار وقرميد الأسطح، كما كانت تختبئ بين بقع العشب؛ إذ كانت تسقط بشكل عشوائي، مثل البَرَد القابل للاحتراق. وكانت تمتاز بأنها صبورة، حيث كانت تعوِّض عن صغر حجمها من خلال عنصر المفاجأة. وبالفعل فاجأت الدجاجات، حيث هزَّ الانفجار الأرض، فقفزتُ وخرجتُ أركض من الباب الأمامي. كانت عيناي تؤلماني بسبب الشمس، وبما أني كنتُ أعرج على ساقيّ فقد بذلتُ جهدا مضاعفا كي ألحق بدرينكا وابنها. خلف المنزل كانت هناك سحابة من الريش المتساقط، فحاولتُ أن أشيح بوجهي عن ذلك المشهد.

معظم القرية كانت تقع في شارع واحد، وكانت المنازل متشابهة في الأسلوب والحجم. وحجارة البناء الإسمنتية المكشوفة تشكل الواجهة السائدة في تلك الجبال، وقد اختيرتْ لتحميلها رسالة تقول «نحن أقوياء وباقون». ولكن وجود القرميد الرمادي، الذي

Twitter: @ketab_n

كان يبدو غير مكتمل على الدوام، فكان يوصل رسالة مضادة مفادها «نحن فقراء». والآن بعد أن أصبحت مليئة بشظايا القذائف، فقد بدت تلك المنازل المثقّبة أكثر كآبة. وكانت توجد خلفها قطع متفاوتة الحجم من الأراضي الزراعية الممتدة على طول الوادي، والتي كانت تشكّل رقيما مرقّشا بالأخضر والبني، وهي عبارة عن حقول محروقة من القمح والذرة. وعند دوار المرور تقع المدرسة التي استولى عليها التشيتنيك كما تقع الكنيسة الكاثوليكية، التي تركوها وحدها، ربما لأنه كان هناك جدارٌ مفقود منها. وكان هناك أيضا مكتب للبريد وسوق، علما أن الاثنين لم يكونا يعملان كما ينبغي. كانت هناك شاحنة مصفّحة تتولى نقل مساعدات الأمم المتحدة، من دقيق وحليب مجفف ودهون نباتية، إلى مكتب البريد (علما أنه ما من أحد كان يستطيع أن يجزم ما إذا كان قد رأى شخصيا قوات فعلية لحفظ السلام)، وكان حصولنا على تلك المساعدات من عدمه يتوقف على الأسبوع الذي نحن فيه، فإذا كان أسبوع وجود التشيتنيك لم نكن نحصل على شيء.

في الملجأ كنتُ أرى الجميع في وقت واحد، حيث لاحظتُ أن القرويين كانوا يرتدون زيا موحدا بمختلف أطياف اللون الزيتوني. وكانوا جميعا يتأملون قميصي الملطّخ بالدماء بنفس القدر من الاهتمام. كما كان بعض الناس يرتدون أزياء موحدة طُبعت عليها عبارات باللغة المجرية، وهي من مخلفات ثورتهم التي أطلقوها منذ عقود مضت، ولكن معظمهم كانوا يكتفون بارتداء أي مزيج من الألوان الخضراء التي كانوا يستطيعون ملاءمتها مع بعضها. بعد ذلك، عندما عدنا إلى المنزل، قدّمتُ

Twitter: @ketab_n

لـي درينـكا أصغر زي أخضر اللون موجـود لديها، وهو عبارة عن قميص وبنطلون سـميك القماش توجـد رقعة فوق ركبته، حيث كانت هذه الملابس قد أصبحت صغيرة على ابنها.

- «الآن بما أنك ستخرجين من المنزل»، قالت.

سلَّمتُها ملابسي على مضض كي تغسلها. كنتُ أريد أن أطلب منهـا ألا تتخلـص منهـا. لكن يبدو لي أنها فهمـتْ، فهي لم تكن تريد أن تكون مبذِّرة؛ ولذلك لم تقم برميها.

عندما بدأتُ أخرج من المنزل، تعلمتُ الجري. ليس ذلك النوع الممتـع مـن الجري الـذي يحتوي علـى القفز، والـذي كنتُ أقوم بـه عندمـا كنتُ ألعب كرة القدم أو المطـاردة مع أصدقائي، ولكنه نسـخة مبسَّطة ومليئة بالأدرينالين من المشي العادي الذي كنتُ أقوم به. وما إن بدأتُ بهذا الأمر حتى صرتُ أركض إلى كل مكان؛ إلـى مضخة المياه، وإلى مكتب البريد للحصول على المسـاعدات الغذائيـة مـن الأمم المتحـدة، وإلـى الملجأ الكائـن تحت الأرض. عندما يناور الإنسان أثناء انتقاله من المنزل إلى الملجأ، قد يبدو منطقيا في البداية أن يسلك خطا مستقيما قدر الإمكان، وذلك ليتمكـن من الوصول بأسـرع طريقة ممكنة. بيـد أني كنتُ دائما أركض في خطّ متعرج بشـكل عشـوائي، وذلك اعتقادا مني بأني بذلك سـأتمكن مـن قلب الاحتمـالات الإحصائيـة لاصطدامي بلغم أرضي عبر ابتكار مسـار غير متماسـك، حيـث كنتُ أتصور، مثلمـا يتصور سـائر الأطفال في عقليتهم الأنانيـة، بأنني كنتُ المسـتهدف الرئيسـي. كنت أخشـى مـن أن أحد الجنـود قد رآني أتظاهـر بالمـوت في الغابة، وأنه سـيقوم بإكمال مـا بدأه في حال رأى بأنـي لا أزال على قيد الحياة وبصحة جيدة. لكني بعد فترة

Twitter: @ketab_n

مـن الوقت لاحظـتُ أن الآخرين أصبحوا يركضـون في خطوط ملتويـة أيضـا. وعندمـا صعد التشـيتنيك إلى سـطح المدرسـة وراحـوا يطلقون الرصاص رشـا على طـول الطريق، كان واضحا بـأن أنانيتنـا كان لها ما يبررها. ففي مـكان ما من ذلك الفضاء الميّت الكائن بين البيت والملجأ تحوَّل المدنيون إلى جنود.

بعـد بضعـة أيام من نفوق الدجاجات، تحدث ابن درينكا معي للمرة الأولى.

- «أنا داميـر».

كنت أعرف اسمه مسبقا، لكنها كانت المرة الأولى التي يتحدث فيها إليّ بشكل مباشر، فأومأتُ له برأسي كما لو أنه قال لي شيئا جديدا.

- «يمكنكِ أن تأتي معي إذا أردتِ».

سـلَّمني قميـص كاكـي وقبعة تمويه، ثم خرج مـن الباب دون أن يتحقـق ليـرى ما إذا كنـتُ قادمة. كان القميـص كبيرا وتفوح منـه رائحـة العرق، ولكني مع ذلك ارتديتُه. مع مضي الأسـابيع أصبحـتُ أحـب داميـر، وأحب طريقتـه الواثقة في السـير حول المنزل، وثرثرته الحماسـية عن «منزله الآمن»، والذي، حسـب ما اسـتنتجتُ، لـم يكن يشـبه الملجأ. فهل يُحتمل أنـه يدعوني إلى هنـاك؟ وضعـتُ القبعة على رأسـي وضغطتُ عليهـا بإحكام، ثم لحقتُ به إلى الشارع. انحنى أثناء سيره في أحد الأزقة ودخوله من الباب الجانبي لمنزل مليء بالثقوب التي أحدثها الرصاص.

كان المنـزل الآمـن يومـا ما مجرد منزل عـادي، وإن لم يتكلم أحـد قـط عـن مالكيـه أو مـاذا حـلَّ بهـم. عندمـا أصبحنـا في الداخل، بدأتْ عيناي تتحسسان. كانت الغرف معتمة، والمصاريع

Twitter: @ketab_n

مغلقـة، وكان المكان بأكمله مغلفا بسحابة مـن النيكوتين. كان داميـر يتحدث مع حراس الباب الأمامي، حيث بقيتُ قريبة منه قدر الإمكان دون أن أشكِّل مصدر إزعاج، ورحتُ أتأمل المنزل بعد أن أصبحتُ أرى بوضـوح أكثـر. علـى الجدران كانـت هناك صور لنساء عاريات وقد دُهنت أجسادهن بطبقة من الزيت إلى جانب صورة شخص عريض الحاجبين بارز الأنف حتى أنا تعرَّفتُ إليه على أنه الجنرال أنتي غوتوفينا، الذي غدت صورتُه بسرعة رمزا للمقاومـة الكرواتيـة. كما رُسمتْ الشـعارات القومية المتشـددة على كل سـطح أملس، كالجدران والأبواب وأسـطح أثاث المطبخ، وكان من بينها شعار za dom spremni، أي (من أجل الوطن مسـتعدون). وقـد حُطِّم الأثاث، باسـتثناء كرسـي واحد مكسـو بالجلد الأحمر موضوع في منتصف المطبخ، حيث لم يسبق لأي شخص أن جلسَ عليه. كنا نطلق عليه اسم كرسي غوتوفينا.

تبعتُ داميـر عندما صعد الدَّرج إلى الطابـق العلوي، كانت هناك غرفة واحدة كبيرة بدتْ مُضاءة على نحو غريب، وذلك إلى أن أدركتُ أن جزءا من السقف كان مفقودا.

- «انتظري هنا»، قال لي، فشعرتُ بالتوتر.

شـاهدتُ داميـر يقتـربُ من رجل هـرِم يرتدي نظـارات بالغة السـماكة لدرجـة أن العدسـات كانـت ناتئـة مـن إطاراتهـا. كانا يتحدثـان بصـوت منخفـض في حـين وقفتُ في المدخـل. وعلى الرغـم من بـرد الشـتاء القارس، الذي كانت شـدته فـي الداخل تعـادل مـا كانت عليه في الخارج، وذلك بسـبب السـقف المفقود، فـإن الرجـل كان يرتدي فقط الجينز وقميصـا داخليا بلا أكمام كشـفَ عن ذراعيه اللذين كانت تغطيهما قروح يابسـة. نظر إليَّ

Twitter: @ketab_n

الرجل عندما كان دامير يتحدَّث معه، ثم رفع يده باتجاهي وأومأ لي كي آتي. سمعتُ ركبتيه تصدران صوتا عندما انحنى إلى مستوى نظري.

- «ما اسمكِ؟» قال لي.

- «آه، إنها لا تتكلم»، قال دامير.

- «لا تكترثي لذلك. نحن لا نبحث عن أشخاص يلقون الخطابات. بل نحتاج إلى أناس يعملون. وأستطيع أن أرى بأنك فتاة قوية».

خلف النظارات بدتْ عيناه ضخمتين ودائريتين مثل عينَي الحشرة، وكنتُ أشك ما إذا كان يستطيع أن يرى أي شيء على الإطلاق، ولكن راق لي عندما وصفني بأني قوية فابتسمتُ قليلا.

- «تبدين مُغامِرة، أليس كذلك؟» قال لي بعد أن جذبني من طرف قبعتي.

لم أكن أعرف ما علاقة ذلك بأي شيء، ولكني أردتُ أن أحظى بمحبة القائد، فأومأتُ له برأسي. مدَّ لي يده المليئة بالعُقد البارزة، فضربتُ كفي بكفه على نحو متردِّد.

- «حسنا، اتفقنا يا إنديانا جونز»، قال لي، ثم أعاد نفسه إلى وضعية الوقوف مرة أخرى.

- «لِمَ لا تذهب وتدرِّبها مع ستالون؟» قال واضعا يده على كتف دامير.

- «حاضر يا سيدي»، قال دامير، الذي أنزل رشاش إي كي من مكانه على رف القبعات قبل أن يأخذني إلى الجزء الخلفي من الغرفة، بعيدا عن النوافذ.

كان المنزل الآمن مأهولا بالعناصر الزائدين عن الحاجة من

Twitter: @ketab_n

كبار السن والمراهقين على حدّ سواء، فقد كانوا إما من الذين تقدَّم بهم العمر ولم يعودوا صالحين للتجنيد وإما من الأولاد أمثال دامير الذين كانوا عمليا لا يزالون صغارا على القتال. وقد استبدل سكان المنزل الآمن أسماءهم الحقيقية بأسماء مستوحاة من أبطال أفلام الحركة الأميركية. فقد كان المنزل يحتوي على اثنين يحملان اسم بروس (بروس لي وبروس ويليس) وآخرين يحملون أسماء مثل كورليوني وبرونسون وسنايك بليسكين وسكارفيس وفاندام وليوناردو ودوناتيلو (وقد سارع هذان الأخيران للتأكيد بأنهما سُمِّيا بهذين الاسمين نسبة لسلاحف النينجا وليس للرسامَين المعروفين)، كما كان هناك العديد من الرجال من المدينة المجاورة الذين يُعرفون بالولفرينز. وعلى الرغم من أنه لم تكن لدي معرفة كافية بالأفلام لفك شيفرة هذا النظام، فإن هذه الأسماء المستعارة كانت عادة تُمنح بالتصويت، وكانت إلى حد ما تشير إلى رتبة حاملها. فقد حصل دامير، لشجاعته في إحدى العمليات التي شارك بها في الماضي، على اللقب الذي يتمناه الكثيرون، وهو رامبو. وقد كنتُ الفتاة الوحيدة هناك.

في الزاوية وجدنا ستالون، وهو ولدٌ بعمري تقريبا، كان ملفوفا بأحزمة من الذخيرة ويرتدي رقعة على إحدى عينيه لحاجة طبية غير محددة.

- «ما اسمك؟».

- «إنها إنديانا»، قال دامير، ثم أضاف «سوف تكون معك الآن».

- «إنديانا جونز؟» قال وقد بدا معجبا بالاسم، ثم أضاف «من أين أنتِ؟».

Twitter: @ketab_n

نظرتُ إلى دامير، لكنه كان قد ذهب.

- «أنت لا تتكلمين؟» سأل.

هـزززتُ رأسـي بالنفي. رفع يديه وبدأ سلسـلة مـن الإيماءات المتزامنة مع كلامه.

«هل أنت صمّاء؟».

هززت رأسي بالنفي مرة أخرى.

- «أخـي أصـم»، قال، ثم أشـار إلـى رامي مدفـع موجود عند النافذة الجانبية، وقد كان الشخص الوحيد في ذلك المنزل الذي يناسب عمره للخدمة العسكرية النظامية.

- «يحمل لقب تيرمنيتور»، أضاف.

كانت الأرض المحيطة بستالون مليئة بالرصاص والخراطيش المتناثرة هنا وهناك. نظّفتُ مكانا بجانبه وجلستُ.

- «حسنا» قال، ثم أضاف «هذه هي الطريقة التي يمكنك بها القيام بالأمر».

منـذ ذلك الحين بـدأتُ بإعادة تحميل الذخيـرة في المخازن. كانـت أصابعـي صغيـرة ورشـيقة، ومثاليـة تمامـا لملء أمشـاط الذخيـرة. كنتُ أجلس على الأرض مع سـتالون وسـط أكوام من الذخائـر التـي أقـوم بفرزهـا وتحميلهـا. وكان يتـم تهريب تلك الذخيـرة، كمـا قال سـتالون، عبر المجـر أو رومانيـا أو جمهورية التشـيك، وهـي دول كانت تعرف ما الذي يعنيه إسـقاط حكومة شيوعية، وكانت على استعداد لتجاهل الحظر المفروض من قبل الاتحاد الأوروبي.

وكان ستالون مسؤولا أيضا عن تشغيل جهاز اللاسلكي للنطاق الترددي المدنـي، حيـث كان يتلقى مقاطع الشـيفرة المبتورة من

Twitter: @ketab_n

المعاقـل الأخرى للمنـزل الآمن في جميع أنحـاء المنطقة، وينبه القائد عن مشـاهدات طيران الجيش الشـعبي اليوغوسـلافي أو عن نشاط التشيتنيك في المدن المجاورة. أحيانا كنا نلتقط البث من جهاز الشـرطة الكرواتية، وكنتُ آخذ إحداثياتهم ثم أشرحها على الخريطة الموجودة على الجدار الخلفي. وعندما كنا نلتقط ترددهم، كان سـتالون دائما يرسـل لهم نداء استغاثة ليرى ما إذا سيأتون لإنقاذنا، ولكننا لم نكن نتلقى منهم أي رد.

- «لا بد أنهم مشـغولون» كان ستالون يقول، ثم يعيد تعديل الرقعة الكائنة فوق عينه.

كان سكان المنزل الآمن عبارة عن وحدة جيش بسيطة التكوين لكنهـا تفي بالغرض المطلوب، حيـث كان معظمهم يخرجون في مهمات تستمر لعدة أيام متواصلة، ولم يكن يبقى في المقر سوى عدد بسيط لحماية المدينة. كنا نملأ أكياسا كبيرة بالذخيرة لكي يأخذهـا الرجـال معهـم في رحلاتهـم، وبعد أن ننتهـي من كافة أعمـال التوضيب كنت أجـري في كافة أرجاء المنزل لأقوم بتوزيع أحزمـة الذخيرة الجديدة وجمع الذخيرة الفارغة من باقي رُماة المدفعية.

مع أن المنزل كان مكونا من ثلاثة طوابق، فإننا لم نكن نستخدم سوى الدور العلوي تقريبا؛ فقد كان من الأفضل أن يكون مكاننا مرتفعـا، وأن نطلـق النار مـن زاوية متجهة نحو الأسـفل. كانت الغرفة تفتقر إلى التحف التي نشاهدها عادة وقت السلم، ولكن الأجـزاء التـي بقيت من السـقف كانت شـديدة الانحدار لدرجة أنه كان واضحا بأننا كنا في علِّية. كان أفضل رماة مدفعية لدينا يتمتعون بميزة الوقوف عند النافذة الأمامية الناتئة من السقف

Twitter: @ketab_n

المائل، لذلك كانوا أول ناس أقوم بإعادة تزويدهم بالإمداد، بعد ذلك يأتي دور الرماة الذين يقفون عند النافذة الجانبية، ثم حراس الأبواب، الذين كانوا الناس الوحيدين الموجودين في الطابق الأرضي.

مثل أي مكان آخر في القرية، لم يكن يوجد في المنزل الآمن مياه جارية أو كهرباء، وكان الطابق الأول الذي أُغلقت جميع منافذه مظلما بشكل كامل في جميع الأوقات. وكان تقديم الإمداد للحراس واستخدام الحمام السببين الوحيدين اللذين يدفعاني للنزول إلى الطابق السفلي. فقد كانت الغرف المعتمة الموجودة في ذلك الطابق الأجزاء الأكثر إثارة للرعب من المنزل، ولذلك كنتُ أؤدي كلتا المهمتين بسرعة فائقة.

كان الحمام الفعلي قد تعرَّض للقصف في إحدى الغارات الجوية، فتم إغلاقه بالألواح الخشبية واستبداله بحمّام رديء تم إنشاؤه في غرفة تعليق المعاطف، مع تجهيزه بدلو ومصباح يدوي وورق تواليت يحمل اسم الأمم المتحدة. وكل من كان يثير غضب القائد خلال اليوم كان يتم تكليفه تلك المهمة الكريهة المتمثلة في إفراغ الدلو في المساء.

عندما كنا نعود كل ليلة من المنزل الآمن؛ أي بعد أن تتولى الدفعة الثانية مهامها، كان دامير يجلس قبالة والدته على طاولة المطبخ لاحتساء شوربة الجذور ولعب الورق. وعندما نكون في المنزل الآمن أبقى مشغولة، وأشعر بأني أقوم بعمل مفيد، ولكن في الليل كنتُ أشتاق لوالديّ، وأعيد شريط لحظاتهم الأخيرة في رأسي. في ذلك الشهر الأول لم أكن في حالة حداد تماما. بل كنتُ أشعر بأن ذهني ضبابي ومنفصل عن الواقع، حيث كان

Twitter: @ketab_n

مزدحما بأفكار كنت أعلم بأنها لم تكن صحيحة مع أني كنتُ أواصل التفكير فيها؛ فكنتُ أقول لنفسي إنني في حال بذلتُ جهدا كافيا في العمل، قد أتمكن من استعادتهما مرة أخرى.

على مدى أيام كنتُ أجد صعوبة في ابتلاع الخبز، بينما أراقب من مكاني على الأرض كيف كانت درينكا ودامير يتلمسان أوراق اللعب تحت ضوء الشموع، حيث كانا يتسابقان لتكوين أكوام من تلك الأوراق التي أصبحت زواياها بالية. كنتُ أشعر بأني معلَّقة بين الحياة والموت، كما لو أن الانضمام إليهما كان يعني أني تخليتُ عن عائلتي. ومع ذلك، في كل مساء كنتُ أجد نفسي أقترب أكثر نحو الطاولة، حيث كان ظلي يتمدد تحت ضوء الشمعة الخافق، وذلك إلى أن جلستُ في نهاية المطاف وبدأتُ ألعب. لم يظهر عليهم بأنهم تفاجؤوا من انضمامي إليهم. حكى دامير نكتة سيئة فضحكت درينكا عليها، في حين شعرتُ بابتسامة تشق طريقها في داخلي. كان وجهها الأسمر يتوهج بلون ذهبي تحت الإضاءة الخافتة.

في الليلة التالية جلستُ على الطاولة عند وقت تناول العشاء أيضا، وتناولتُ الحساء والخبز مع المربى. وقبل أن تقوم درينكا بإطفاء الشموع، فرشتْ ملاءة على الأريكة ونادتني كي أنام عليها. شعرتُ بأن عمودي الفقري تمدَّدَ مثلما لم يفعل خلال الأسابيع التي نمتُ فيها بوضع منكمش على أرضية المطبخ، فمددتُ ذراعيّ فوق رأسي وتوغلتُ عميقا بين وسائد الأريكة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(2)

كان قــد مضــى على بدئي العمل في مقــر المنزل الآمن بضعة أســابيع عندما ظهرت الفتيات. كانت تلــك الفتيات، ومعظمهن فــي ســن المراهقة، في مهمة اســتطلاعية في المنطقــة الجنوبية، لكنهن تعرَّضن لكمين خلال المعركة التي شــنها الجيش الشعبي اليوغوســلافي خارج مدينة كنين. وها هنَّ قد عدن وفي حوزتهن آخــر الأخبــار من البلدات المجــاورة. صعدنَ إلــى العلية، والطين بــاد عليهن والأنظار مشــدودة إليهن، ثم بدأن بقــراءة قائمة من الأســماء المدونــة على لفافة خاصــة بأوراق التســلُّم. ومن خلال ردود أفعــال ســكان المنزل الآمن، اســتنتجتُ أن تلــك كانت قائمة بآخر المصابين أو المفقودين من الجبهة.

وبعد الانتهاء من قراءة الأســماء، سيطرتْ كلمة «فقط» على الحديث الذي دار فيما بعد، والذي كان عبارة عن تأملات موجَّهة إلى حاملة القائمة:

- «سيكون بخير. هل هو فقط مفقود، وليس مجروحا؟».
- «يقــول الإعــلان إنــه أُطلقــت عليه النــار فقط. ولــم يُقتل بالضرورة».
- «ربما جرح سطحي فقط».

Twitter: @ketab_n

تفحصتْ قارئة القائمة ورقتها في محاولة منها لتقديم بعض الردود الإيجابية على سيل الأسئلة التي تُوجَّه إليها. كنتُ دائما أعتقد أن والد دامير في الجيش، ولكن دامير لم يذكره، كما لم يظهر اسمه ضمن القائمة أثناء وجودي هناك.

عندما بدأ الناس يثورون تدخَّل القائد وأخذ الورقة. بعد ذلك طواها على شكل أكورديون مائل وحاول أن يضعها في جيب قميصه الأمامي قبل أن يدرك أنه لم يكن يرتدي قميصا فحشرها داخل حزامه بدلا من ذلك.

- «الأولاد جميعهم بخير»، قال بحزم، فتفرَّق الجميع وعادوا إلى مواقعهم.

- «من أنتِ؟» قالت إحدى الفتيات عندما جاءت لتأخذ مشط ذخيرة جديدا.

كانت ترتدي قبعة عسكرية فوق شعرها الكستنائي الطويل، وكانت أصابعها تعبث بالاثنين وهي تتحدث.

- «هذه إندي»، قال ستالون، وقد اعتاد على دوره كمتحدث باسمي. ثم أضاف «إنديانا جونز». بعد ذلك التفتَ إليّ وقال بصوت منخفض «هذه ريد سونيا. إنها المسؤولة عن الفتيات».

حدث خلافٌ فلسفي في المنزل الآمن حول ما إذا كان يجب أن تتخذ الفتيات أسماء مستعارة خاصة بالإناث حصرا أم لا. رأى البعض أنهم لا يريدون أن يكون اختيارهم لأسماء الشخصيات القوية محصورا فقط بجنس تلك الشخصيات، في حين قالت ريد سونيا إن هناك الكثير من بطلات أفلام الحركة اللامعات واللاتي كنَّ في الحقيقة أقوى من نظرائهن من الرجال، ولا سيما أنهن كن يضطررن للقتال وهن يرتدين سراويل أضيق

من تلك التي يرتديها الرجال.

- «إنـدي»، قالـت بتجهـم، والسـبب يعود بلا شـك إلى جنس الاسم المستعار المنسوب إليّ.

- «حسـنا، فات الأوان لتغييره. ولكن أحسنتِ صنعا في هذا»، أضافـت منوهة بآخر الجهـود التي بذلتُها فـي تنظيم الذخائر، حيـث كنـتُ أفرز الطلقات بناء على نوع الخرطوشـة ثم أضع كل نـوع في أصيص زهور فخاري منفصـل. رفعتُ لها إبهامي تعبيرا عـن إعجابي بما قالته، بعد ذلك ربطـتْ ضفيرتها التي جدلتها خلال حديثها معنا، ثم ذهبتْ لتعيد تعبئة الأسلحة بالذخيرة.

أدى فرز الذخائر إلى جعل العمل في المنزل الآمن أكثر سلاسة، ولكن الفتيات الأكبر سنا جميعهن لديهن بنادق هجومية خاصة بهنّ، فبدأتُ أشعر بالانزعاج. قلتُ لنفسي إني أثبتُّ بأنني عاملة جيدة، وأريدُ أن أحارب مثل أي شـخص آخر. في الأسـبوع التالي خـلال الاجتماعـات الصباحيـة، عندمـا تمَّ إصدار أسـلحة إلى المجندين الجدد من القرى المجاورة، وقفتُ في الصف مع البقية، ووضَّبتُ شعري تحت قبعتي، آملة بأن تكون القذارة التي وضعتُها على وجهي قد غطّت كل ملامح الطفولة. نظر إليّ القائد مليا، وقال إن الأعداد المتوفرة لا تكفي للجميع. ولكن في اليوم التالي أصابـت قذيفـة هاون المبنـى فأحدثت فتحة جديـدة في الجدار الجنوبـي. حينذاك طلب القائد من سـتالون ومنـي بأن ننبطح على الأرض، حيث كرهتُ ذلك الشـعور المألـوف بالعجز. حاولتُ رفع رأسي لكنني لم أستطع أن أرى سوى الأحذية. سقط أحدهم بجانبي، ولم أسـتطع تجديد هويته، فانطلقت النار من سـلاحه تلقائيـا عندما اصطـدم بالأرض. صمَّ أذنيَّ صـوتُ طنين أجوف

Twitter: @ketab_n

ومتذبـذب، أعقبه صوت هدير كصـوت المياه المتدفقة. كان الرجل ينزف على شكل دفقات من رقبته، فأغمضتُ عينيّ مرة أخرى.

بعد ذلك جلسـتُ ونظرتُ حولي. كان سـتالون بجانبي، يضع كمه على جرح في جبهته، ويقول شـيئا لم أسـتطع سماعه. كنتُ لا أزال أسـمع صـوت رنين فـي أذني. أخذتُ البندقيـة من الرجل الميـت الممـدد إلى جانبـي، وهو مـن الولفرينز، ثم وضعتُ رأسـي داخـل حمّالتهـا. لـم يلحـظ أي شـخص مـا فعلـتُ. كان هناك ثلاثـة رجـال آخريـن علـى الأرض، بلا حـراك. طلبـتْ مني ريد سـونيا أن أقوم بقص ملاءة أحد الأسـرّة إلى مربعات، ثم أغلقتْ عيون الرجال الميتين وغطّت وجوههم بالقماش. كان الشـخصان اللذان يحملان اسـم بـروس يقومان بجمع الأسـلحة، كالبنادق والسـكاكين والقبضات الحديدية، التي أصبحتْ متوفرة مؤخرا. وضعـتُ البندقيـة على ظهـري وعرفتُ منذ تلـك اللحظة بأنها أصبحتْ لي.

قـام الرجـال أصحـاب البنية الأقوى بسـحبِ الجثث أسـفل الدرج ثم تركوها مسجّاة خلف المنزل بانتظار حلول الظلام حتى يتمكنوا من نقلها إلى المقبرة في الطرف البعيد من القرية. عند الغسق خرجنا، ستالون وأنا، في مهمة استطلاعية وأحصينا عدد الإصابـات في صفوف التشـيتنيك. ركلنا جثث القتلى، وفتشـنا جيوبهم بحثا عن الذخيرة.

علّمنـي دامير كيف أفكّك رشـاش إي كـي وأعيد تركيبه، حيث شـرح لي عن القبضة الأمامية، وحجرة الغاز، وسـيخ التنظيف، والمغلاق (المكبس أولا)، والإطار، ومخزن الطلقات.

بعـد ذلك يأتي دور «التحقق مـن الأداء» والذي يعني تلقيم

Twitter: @ketab_n

البندقية على سبيل التجربة، وهي آخر خطوة في إعادة التركيب، ولكن أي شخص ينهي خطوة التحقق من الأداء كان يتعين عليه أن يعلن ذلك بصوت عال كصيحة المنتصر، وهي صرخة المعركة التي تسبق الرشقات الأولى لإطلاق النار. كانت عملية التفكيك بروتوكولا لا يتغير أبدا، وقد وجدتُ العزاء في التكرار.

سمح لي الرجال الكبار في السن أن أتولى الحراسة أثناء تناولهم الغداء. وبما أن قامتي القصيرة لم تكن تمكنني من إطلاق النار إذا كانت قدماي على الأرض، فإني كنتُ أصعد إلى حافة النافذة وأركع داخلها. كنتُ أطلق النار نحو مبنى المدرسة على أي شيء مموه يتحرك داخل النوافذ، أو فوق مستوى الأرض على الجانب الآخر من الشارع، بعد ذلك كنتُ أقفز من النافذة وأنحني إلى الأرض تحسبا من أن يكون أحد التشيتنيك محترسا بشكل كاف كي يرد مباشرة على مصادر النيران. مع كل رشقة كنتُ أتخيل بأني قتلتُ ذلك الجندي ذي الأسنان البنية، الذي طعن والدي في مؤخرة ركبته ثم ضحك. كنتُ أستعذب تلك القوة التي بدت وكأنها تنتقل من حجرة نار ذلك السلاح إلى أوردتي مباشرة.

الرزوح تحت احتلال التشيتنيك كان يشكل توازنا دقيقا. ففي حالة السكر الدائم التي كانوا يعيشونها، كانوا يكتفون بالاغتصاب والنهب، في حين كانت شهيتهم للإبادة الجماعية ترتوي عبر قنص سكان المنزل الآمن وقتل المسافرين بين الحين والآخر على جانب الطريق مثلما حدث مع والديّ. كان الخطر المتمثل في قتل عدد كبير منا، والذي سيتحتم عليه خسارة الوجبات التي تقدمها الأمم المتحدة، كافيا لردعهم عن شن أي

Twitter: @ketab_n

هجمات على نطاق واسع. ولكن الجيش الشعبي اليوغوسلافي، الذي كان يضيِّق الخناق على المنطقة، أرسل تعزيزات، وتلك التعزيزات لم تكن قد سئمت المكان بعد، كما لم تكن راضية بتبادل إطلاق النار وهي مرتاحة داخل مبنى المدرسة. كان لديهم رواتب وزي رسمي وأسلحة أفضل وسلسلة قيادة تعمل على قدم وساق. وبما أنهم كانوا نسبيا متحررين من تأثير الكحول، فإنهم كانوا مستعدين للهجوم.

كنت أقف عند نافذة العلّية لحراسة المكان برفقة تيرمنيتور عندما رصدنا صفا من العربات المصفّحة، كانوا قرابة العشر، ولكن من الصعب تحديد العدد بدقة بسبب وجود منحنى في الطريق. كانت الشاحنات خضراء، وليست تابعة للأمم المتحدة، وعندما نظرتُ إلى تيرمنيتور وجدتُه يقوم بحركات إيمائية على نحو جنوني. عبرتُ العلّية بسرعة لإحضار ستالون، الذي، لدى رؤيته إشارات أخيه، صاح، «يا للهول! الجيش الشعبي اليوغوسلافي! إنهم قادمون في الشارع!» أصبحت الشاحنات أقرب الآن، وكان بإمكاني رؤية النجوم اليوغسلافية الحمراء على أبوابها.

- «لنتحرك!» قال القائد، فاندفع كل من كان بلا بندقية نحو البنادق الزائدة المعلّقة على رف القبعات.

التفتُّ نحو القائد لأرى تعليماته التالية، ولكن سمعنا من الطابق السفلي صوت إطلاق النار، وارتداد شظايا الزجاج المكسور، في حين كان حراس الأبواب يصرخون.

- «إنهم هنا»، قال ستالون.

هبطنا الدرج الخلفي غير المستوي بسرعة ثم خرجنا من

Twitter: @ketab_n

الباب الخلفي، ودخلنا عبر الزقاق الترابي المرصوص الذي يقع بجانب السوق، ثم خرجنا إلى حقول القمح. كانت سيقان السنابل تنحني تحت وطأة رؤوسها، التي كان قسمٌ منها متعفنا بينما كان القسم الآخر محملا بالقمح، وذلك لأن المزارعين هجروها بعد بدء القصف، ولكن حتى في وضعيتها المنحنية كانت تلك السنابل أطول مني، ولم يكن بإمكاني أن أرى شيئا سوى القمح في كل الاتجاهات. تساءلتُ أين ذهب ستالون. ثم من بين أحد صفوف القمح الجانبية رأيت دامير يندفع نحوي.

- «تتمتعين بالسرعة، أيتها الفتاة»، قال عندما لحق بي. بعد ذلك أمسكني من القبعة الموصولة بقميصي ودفعني إلى اليسار بقوة. ثم أضاف «لكن ليس لديك دراية بالاتجاهات».

أحدث أخمص بندقيتي كدمة في الجزء الخلفي من ساقي عندما ركضنا.

كانت هناك مجموعة من جنود مشاة الجيش الشعبي اليوغوسلافي القادمين من الجهة الأخرى للحقل. وكان عددهم لا يقل عن عشرين، حيث كانوا يركضون ضمن تشكيل مستقيم كالسهم. تجمدتُ في مكاني من الدهشة عندما بدأت الأمتار الفاصلة بيننا تقل تدريجيا؛ مئة، خمسة وسبعون، خمسون، ولكن دامير دفعني أمامه وأطلق وابلا من الرصاص باتجاههم. من زاوية نظري رأيتُه ينزل على الأرض، لكنه صاح «لا تتوقفي!» لذلك واصلتُ الركض، ثم قمتُ بانعطافة حادة نحو القطاع الأوسط للحقل. عصفت الرياح بوجهي بقوة، فبدأ أنفي يسيل وعيناي تدمعان. مرَّرتُ كمي فوق وجهي، ثم أطلقتُ العنان لساقيّ إلى أن أصبحتُ لا أشعر بالأرض، حيث بدا لي وكأن

Twitter: @ketab_n

الجاذبية قد تلاشت من تحت أقدامي.

في وسط الحقل ألقيتُ بنفسي تحت جرّار، ثم لملمتُ جسدي إلى أن أصبحتُ مثل كرة مضغوطة، وغطيتُ وجهي بيديّ. كان هناك إطلاق نار وصراخ من كل زاوية، وحاولت التركيز في الاستماع لعلّي أميز الأصوات التي أعرفها. تذكّرتُ دامير وانتظرتُ ذلك الحزن، الذي بات مألوفا بالنسبة لي، كي يهيمن علي، ولكني لم أجد سوى الغضب بدلا من ذلك. بيد واحدة تحسّستُ الأرض بحثا عن بندقيتي وشعرتُ بالارتياح لأني وجدتُها هناك بجانبي.

- «اصرخوا إذا كنتم تستطيعون!» دوّت هذه الصرخة في أرجاء القرية مع قيام من تبقى من سكان المنزل الآمن بتمشيط الحقول بحثا عن ناجين.

- «اصرخوا إذا كنتم تستطيعون!».

باستثناء صرخة النجدة، كان الهدوء مخيما بشكل مخيف على ذلك الجزء الغريب من المساء الذي كان ضوء النهار فيه لا يزال طاغيا على الظلام بالرغم من غروب الشمس. مرّرتُ يدي فوق وجهي وجسدي لأتفقد ما حصل، وكانت المعجزة أني لم أُصب بأي أذى باستثناء أنه كان هناك دمٌ على معصميّ، والذي كان سببه أن الندوب الناجمة عن الأسلاك الشائكة فُتحت من جديد عندما سقطتُ على الأرض. انتظرتُ، وركّزتُ انتباهي لالتقاط أية أصوات واضحة تدل على أن عناصر الجيش الشعبي اليوغوسلافي لا يزالون موجودين، كما راقبتُ مرور الأحذية. ولكن لم يكن هناك شيء، لذلك زحفتُ على مرفقيّ وخرجتُ من تحت الجرّار. خطر لي أنه لم يسبق لي أن رأيتُ جرّارا من

Twitter: @ketab_n

مسافة قريبة كهذه، وللحظة أدهشتني ضخامة حجمه، فقد كان الإطار وحده أطول مني. ولكنّ تجدُّد صرخة النجدة كان كفيلا بإرجاعي إلى وضعية الجندي.

هرولتُ عائدة على الطريق الذي أتيتُ منه لأبحث عن دامير، ووجدتُ مجموعة من سكان المنزل الآمن مقرفصين حول جثة كنت أعلم أنها لا بد أن تكون له.

- «إندي!» قال بروس ويليس عندما لاحظ وجودي، ثم أضاف «لا، لا تنظري. فقط اذهبي إلى المنزل وقولي لدرينكا كي تعدّ سريرا له».

- «إنها لا تتحدث»، قال سنايك.

- «حسنا إذن ستقوم بتلك الحركات الإيمائية اللعينة. فقط اذهبي!».

وقفتُ على رؤوس أصابعي في محاولة لإلقاء نظرة على وجه دامير، وذلك لمعرفة ما إذا كان بروس يقصد سرير مرض أم سرير موت. لكن دامير كان محجوبا عن الرؤية من قبل الرجال المصطفين حوله.

- «مهلا!» قال بروس، فعدتُ نحوهم بسرعة.

- «اجعلي البندقية أمامك وأنتِ تسيرين، على الأقل إلى أن تكوني قد خرجتِ من الحقل»، أضاف.

أومأتُ برأسي موافقة، ثم رفعتُ الرشاش فوق رأسي، معدلة وضع الحمّالة المفتولة حول كتفي.

كان دامير محقا، فإدراكي للاتجاهات كان سيئا، وبما أن الرجال قد سلكوا الآن طريقا مختلفا عن الطريق الذي يؤدي إلى المنزل الآمن، فقد فقدتُ الدليل الذي كنتُ أستند إليه.

Twitter: @ketab_n

سرتُ على طول صفّ من القمح، ولكن ذلك جعلني أتوغل أكثر داخل الحقل. اعتقدتُ أنني سمعتُ صوت حفيف من الجهة الأمامية. كنت قد تدرَّبتُ على التفكيك والتركيب مرات عديدة لدرجة أن تلقيم البندقية أصبح مسألة تكرار آلي لحركة روتينية أكثر منه عملية تتطلب تفكيرا واعيا. سحبتُ المقبض إلى الوراء على طول حامل المغلاق، ثم تركتُه، فسمعتُ صوت النقر الذي يشير إلى دخول طلقة في حجرة النار. كل من كان في الجوار لا بد أنه سمع ذلك أيضا، لأن صوت الحفيف عاد مرة أخرى، تلاه صوتٌ لا لبس فيه يدل على أن شخصا كان يركض وهو يرتدي الحذاء العسكري. حاولتُ مناداة ستالون، ولكن لم يخرج مني أي صوت.

عندما أصبح قريبا مني، تجمدتُ في مكاني. لم يكن ستالون، بل كان رجلا يمشي وهو يلتفتُ حوله، وكان متجها نحوي مباشرة. كانت لحيته غير مكتملة ويرتدي سترة خضراء لا يوجد عليها أي شارة تشير إلى انتمائه للجيش الشعبي اليوغوسلافي. في الوقت الذي التفتَ فيه ورآني، كنا قريبين جدا من بعضنا لدرجة أنه كان بإمكان أيّ منا أن يلمس الآخر. بدا الشعور بالصدمة واضحا عليه عندما رأى حجمي الصغير والبندقية التي أحملها. شعرتُ بأنه كان يمعن النظر بي، محاولا أن يقرر ما الذي يجب القيام به، وللحظة لمحتُ شعوره بالتردد، ثم ما لبث أن انقضى ذلك الشعور. مدَّ يده نحو سلاحه، فأغمضتُ عينيّ وضغطتُ على الزناد.

سقط الرجل أرضا وراح يتلوّى ويصدر صوت اختناق. لقد أصبْتُه في الجزء العلوي من بطنه، أو ربما في أضلاعه. على

Twitter: @ketab_n

الأرجح كان يكبر دامير ببضع سنوات فقط، حيث كانت آثار حب الشباب لا تزال واضحة على عظام وجنتيه.

كان الدم ينفذ من خلال قميصه ويتجمع بجانبه. ولكنه كان لا يزال مستيقظا، حيث كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما، وقد بدا عليه الشعور بالغضب والتشوش. كان يحاول التحدث ولكن كلامه كان مبهما، ولم أستطع فهم أي شيء إلى أن توقف عن الكلام وراح يردد فقط عبارة «أرجوك» مرارا وتكرارا.

لم أكن أعلم ما الذي يجب علي فعله بعد، لذلك مررتُ من فوقه وتسللتُ بين سنابل القمح، بحثا عن طريق أعود من خلاله إلى المنزل.

عندما وصلتُ إلى مطبخ المنزل ناديتُ درينكا، ولكن حبالي الصوتية أصدرت أنينا مصحوبا باهتزازات تنم عن قلة الاستخدام. استدارت ونظرتْ إليّ مليا، في محاولة منها لتحديد ما إذا كنتُ قد تكلّمتُ فعلا. رأيتُ عينيها تركّزان على شيء ما، فأدركتُ أنني كنت مغطاة بالدماء، التي كان بعضها مصدره معصماي، ولكن معظمها كان بسبب الدماء التي تدفقت من الجندي الذي أطلقتُ عليه النار. سعلتُ وحاولت التكلم مرة أخرى؛ فكان صوتي أقوى هذه المرة.

- «أصيب دامير»، قلتُ.

- «أين هو؟» قالت بعد أن قفزت من مكانها على الكرسي.

- «إنه الجيش الشعبي اليوغوسلافي. لقد تمكنوا من إصابته»، شعرتُ بحرقة في حلقي وأنا أقول ذلك. ثم أضفتُ «سكان المنزل الآمن سيحضرونه إلى هنا. طلبوا مني أن أخبرك كي تستعدي».

Twitter: @ketab_n

- «أستعد؟ ماذا يعني ذلك؟».

- «لا أعلم».

أوعـزتْ درينـكا لـي كـي أخلـع ملابسـي. ارتديتُ ثـوب النوم الخـاص بها فـي حين تولّت هي فـرك الدم لإزالته عن ملابسـي بعد أن وضعتها في دلو على أرضية المطبخ.

كان دامير قد أصيب بطلق ناري في الفخذ، وكانت الرصاصة لا تزال موجودة في الداخل. وقد تطلّبَ أن يقوم اثنان من سكان المنـزل الآمن بملـه لأنهم كانوا يحاولون إبقاء سـاقه في وضعية مستقيمة. عندما وضعوه لأول مرة على سريره، كنتُ لا أزال غير قـادرة على تحديد ما إذا كان على قيد الحياة. لكن عندما قامت درينـكا بقـص البنطلون في مكان الإصابة وسـكب الكحول على الجرح، فإنه انتفض مستيقظا وبدأ يصرخ.

- «الحمد لله»، قلت.

حدق بروس ويليس في وجهي، ثم حاول مداراة دهشته حين رآني أتكلم.

جلـس بـروس ويليس وبـروس لي معنا لبضع سـاعات، حيث طمأنا درينكا بأن دامير سيكون على ما يرام. وقالا إن القائد قد بـدأ بتوجيه نداءات إلـى القرى المجاورة عبر الإذاعة لاسـتدعاء الطبيـب. فكرتُ بالجندي الذي أطلقتُ عليه النار، وتسـاءلتُ ما إذا كان قد تم إنقاذه أو ما إذا كان لا يزال في الحقل، ينزف حتى الموت.

كان دامير يئن ويتعرق أثناء نومه، وقد سـهرتُ برفقة درينكا طـوال الليل ونحن نحدق فـي وجهه بانتظار قدوم الطبيب. كان يهـذي باسـتمرار بكلمات غيـر مفهومة عن جده وعـن البطيخ،

Twitter: @ketab_n

في حين كانت درينكا تضع رأسه في حضنها وتسكب جرعات البراندي في فمه.

- «اسمعي»، قالت لي في صباح اليوم التالي عندما علَّقتُ بندقيتي على كتفي وربطتُ حذائي ربطة مزدوجة. ثم أضافت «إذا قلتِ لي من أين أنتِ أستطيع أن أساعدك على العودة. لا بد أن أحدا ما في انتظارك».

حدَّقتُ إليها من فوق الطاولة إلى أن استأنفَتِ المشي من جديد وراحتْ تذرع المكان جيئة وذهابا. تخيَّلتُ كيف سيبدو عليه الأمر في حال قرَّرَ الطبيب بتر ساق دامير أمامنا، وهو مستلق في سريره. كما تخيَّلتُ لوقا وهو يطرق باب شقتنا، وكيف سينفد صبره ويستبد به القلق لأن أحدا لم يفتح له الباب. وتراءت لي دراجته المتألقة بلونها الأحمر. وفكَّرتُ أيضا بذلك الرجل الذي أطلقتُ عليه النار دون أن أشعر بالأسف على الإطلاق. بعد ذلك ذهبتُ إلى المنزل الآمن.

لم يكن هناك أحدٌ لحراسة الباب. كان المنزل مدمرا من الداخل، فقد مزِّقت الملصقات وأُزيلتْ عن الجدار، باستثناء زواياها المغطاة بشريط لاصق، والتي أصرَّتْ على التشبث بالإسمنت. بدا وكأنه قد أُضرمتْ النار في كرسي جوتوفينا. ركضتُ على الدَّرج نحو الطابق العلوي، حيث وجدتُ القائد يرسل إشارة استغاثة عبر الجهاز اللاسلكي للنطاق الترددي المدني. وباستثناء بروس ويليس وبروس لي وشخص ثالث من السلاحف، فقد كان المكان خاليا.

- «ستالون؟» تمكنتُ من نطق الاسم مع أن صوتي كان لا يزال يفتقر إلى المرونة. بدت الدهشة على القائد، لكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه.

Twitter: @ketab_n

- «لا يزال عدد كبير من الرجال بخير. وسيبقون في منازلهم ليوم أو يومين على سبيل النقاهة»، قال.

-«ستالون؟» قلتُ مرة أخرى، وقد لاحظتُ محاولة القائد للتهرب من الكلام.

- «ستالون مفقود»، قال. «وقد خرج شقيقه للبحث عنه»، أضاف.

تجمَّدتُ في مكاني، وقد تلاشت دفعة واحدة كل القوة التي كنتُ قد اكتسبتُها على مدى الأشهر الماضية، كما لو أنها تسربتْ عبر قدميّ.

- «لا تقلقي بشأن ذلك الآن. أخبريني عن دامير»، قال لي.

شرحتُ له بأن ساق دامير متورِّمة ويخرج منها شيء أصفر اللون. ثم أضفتُ «إنه يحتاج الى المساعدة؛ يحلم بجده المتوفي».

- «يجب أن تذهبي إلى البيت يا إندي، وتهتمي بدرينكا الآن. سيصل الطبيب إلى هناك قريبا».

وقفتُ هناك دون أن أتحرك، وهو ما ظنَّه القائد خطأ على أنه احتجاج.

- «هذا أمر»، قال لي. لذلك لملمتُ نفسي وذهبت.

في غرفة دامير تم إنزال الستائر، وقد تحرَّكَ بينما كنتُ أجلس على حافة سريره، حيث كنتُ ألهو بالبندقية عبر ضغط وتحرير الذراع الواقي للقبضة الأمامية.

- «أنتِ لا تقلين أهمية عن أي ولد تقريبا»، قال دامير، وقد استعاد وعيه لبرهة وجيزة من ضباب الحمى والبراندي.

كانت هذه مجاملة منه. لكن حجم ساقه كان يعادل ضعف حجمها الطبيعي، وكان يوجد فيها صديد. أسندتُ البندقية على

Twitter: @ketab_n

رفُ الكتب، ثم عدتُ إلى الركن الخاص بي من أرضية المطبخ.

خطر في بالي أن أحكي لدرينكا القصة بأكملها؛ من أين أتيتُ وما الذي حدث، لكنها كانت تعكف على تمزيق ملاءات الأسرَّة لتحويلها إلى ضمادات، كما كانت مشغولة البال. وفي اللحظة التي بدأت فيها بالاعتقاد بأنني استجمعتُ الشجاعة الكافية كي أبدأ بالكلام، أطلَّ من نافذة المطبخ الكائنة فوقي وجهُ شاحب. فانتصبتُ واقفة على قدميّ وأطلقتُ صرخة.

- «بست، إندي، افتحي!» همس صاحب الوجه من خلال الزجاج. نظرتُ مرة أخرى، وقد بدت العينان الكبيرتان مألوفتين الآن. ففتحتُ الباب.

- «كيف حاله؟» سأل القائد.

- «إنه على قيد الحياة»، قلت.

- «آه، جوزيف، جيدٌ أنك هنا»، قالت درينكا من داخل الصالة.

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها شخصا آخر ينادي القائد باسم آخر. ولكن وجهها اكفهرَّ عندما اقتربتْ منه.

- «أين الدكتور هوزيتش؟».

أخفض القائد عينيه.

- «بصراحة، آه، لم نستطع العثور عليه».

- «ماذا تعني؟ كان يُفترض بك أن.. قلتَ إنك ستحضر طبيبا».

- «آخر شيء سمعناه عنه هو أنه وصل إلى بلاتو، ولكن ذلك كان منذ بضعة أيام».

- «حسنا إذن، يُفترض به أن يصل إلى هنا خلال فترة قصيرة، أليس كذلك؟».

Twitter: @ketab_n

- «درينكا»، قال القائد وقد بدا صوته عاطفيا إلى حدّ ما في هذه اللحظة. ثم أضاف «ليس لدينا وقت».

شق القائد طريقه مارا بقربنا واتجه نحو المطبخ، حيث وضع رأسه داخل الخزائن وبدأ يبحث داخلها محدثا ضجيجا. وعندما أخرجه كان يحمل سكينا للتقشير وملقطا للسَّلَطة.

- «نحن بحاجة لإخراجها»، قال.

انهارت درينكا وجلستْ في كرسي مجاور، فالتفتَ القائد نحوي.

- «هل يمكنك أن تغلي بعض الماء؟» قال.

لم يكن الصراخ الذي صدر عن دامير يشبه صوت البشر؛ فقد كان أجش وينضح بقدر أكبر من اليأس حتى مقارنة بتلك الصرخات التي دوَّتْ في الغابة. وقفتُ في مدخل غرفة نومه وبدأتُ أنظر، مُحاولة ألا أنظر إلى درينكا عندما أمسكتْ بذراعي دامير وثبتتْهما على السرير، في حين كان القائد منحنيا فوق ساق دامير تحت ضوء الشمعة. وضعتُ يديّ على أذنيّ وعدتُ مسرعة إلى المطبخ كي أغلي المزيد من المياه.

كانت أسطوانات الغاز شبه فارغة. هل يجب علي الذهاب إلى المضخة، أو أنتظر لأرى ما إذا كانوا يحتاجون إلي هنا؟ بعد ذلك مباشرة خرج القائد واتجه نحو المطبخ. أومأ برأسه نحو المياه المتبقية، فقمتُ بسكبها على يديه الملوثتين بالدم في الحوض. مسح كفيه على سرواله الجينز، في حين وقفتُ محدقة بانتظار الأمر التالي الذي سيصدره لي. لكن القائد وضع يده على كتفي.

Twitter: @ketab_n

- «الأمـور بخيـر يا إنـدي»، قال، مـع أنه كان ينظـر من فوق رأسي. ثم أضاف «يمكنك أن تستريحي. لقد أبليتِ بلاء حسنا».

ارتدى نظارته ثم خرج في الظلام.

غلبنـي النعاس فنمتُ على الأرض، بعد ذلك اسـتيقظتُ وأنا أشعر بالبرد. التفتُّ يمينا ويسارا، ثم تسللتُ من باب غرفة دامير، حيث كانت درينكا نائمة في كرسي قرب سريره. بدتْ أكبر سنا في تلك اللحظة، حيث كانت بشـرتها شـاحبة في ظل غياب مسـحة الدفء التي كان يضفيها عليها الشال عندما تلفُّه حول وجهها. مرَّرتُ أصابعي برفق على ذراعها فانتفضتْ مستيقظة.

- «زغرب»، قلتُ لها، لكنها بدتْ مشوشة.

- «أنا من زغرب»، أضفتُ.

بدا اسم مدينتي أجنبيا بالنسبة لها. وقفتْ درينكا وقد بدتْ عليها الحيرة، ثم تعثرتْ عندما رافقتني نحو الأريكة.

- «حسنا»، قالت، واضعة بطانية فوقي. ثم كرَّرت «حسنا».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(3)

انتشر خبر دامير، وفي اليوم التالي امتلأ المنزل بنساء القرية اللاتي جئن لعرض المساعدة. وقد أحضرن معهن الحساء والمناديل ومرطبانات البراندي وكعك الحرب، وهو عبارة عن أقراص صلبة ومسطحة مصنوعة باستخدام ربع الكمية المعتادة من الخميرة وكانت خالية من السكر. كنتُ أجلس في زاويتي، محاولة الاستماع لأخبار الإصابات الأخرى في المنزل الآمن، ولكن منذ أن بدأتُ بالتكلم صارت درينكا تخفِّض صوتها إلى مستوى الهمس عندما أكون موجودة، وحذت النساء الأخريات حذوها. اعتقدتُ أنهن سيقمن باسترجاع الأحداث الأخيرة، ويخططن لما يجب القيام به عندما يعود الجيش الشعبي اليوغوسلافي، ولكن بدلا من ذلك شعرتُ بهنَّ يحدقن بي بشكل جانبي ويتبادلن أوراقا نقدية مجعدة من فئة الدينار.

عند غروب الشمس قامت درينكا بإحصاء المال. وأخذت آخر بيضتين مسلوقتين كانتا قد بقيتا من الدجاجات النافقة، ثم وضعتْهما في كيس من البلاستيك إلى جانب رغيف خبز، وبعد ذلك ربطتْ أطراف الكيس بإحكام. يبدو أننا كنا سنغادر. أحضرت لي قميصي القديم، فارتديتُه، ثم ارتديتُ فوقه البلوزة التي أعادها دامير لي.

Twitter: @ketab_n

بينما كانت درينكا ترتدي حذاءها، تسللتُ إلى غرفة دامير.

- «شكرا لك»، قلتُ وسط الظلمة.

تمتم دامير بشيء ثم تحرَّك بطريقة توحي بأنه يريد أن يتقلَّب في فراشه، ولكن ساقه كانت مربوطة بالسرير، فتوقف عن تلك المحاولة دون مشاكسة تُذكر.

- «تصبح على خير»، قلتُ له، ثم أغلقتُ باب غرفته.

كانت السماء مظلمة والجو شتويا وملبدا بدخان غارة سابقة؛ مع ذلك كان هذا الجو سيبدو جميلا لو أن الغارة وقعت في مكان آخر. أمسكتْ درينكا بيدي، ووجهنا نظراتنا نحو الأرض لتوخي الحيطة في كل خطوة نخطوها، ثم سرنا بين الأعشاب الطويلة حتى وصلنا إلى المنزل المجاور. كانت هناك سيارة ذات لون أزرق باهت في مدخل المنزل، وهي السيارة الوحيدة التي أتذكر أني رأيتُها في القرية. نقرتْ درينكا نقرة خفيفة على الباب الأمامي للمنزل، فظهر فانوسٌ في نافذة الطابق العلوي. قامت فتاة تكبرني بقليل بفتح الزجاج وإلقاء حزمة من المفاتيح، ثم أغلقَت المصاريع بسرعة. نقلتْ درينكا ذراع تغيير السرعة إلى المنتصف لفك تعشيق المسننات، ثم انطلقنا من المدخل باتجاه الشارع. خرجنا من القرية والمصابيح الأمامية مطفأة. أطلقت صفارات الإنذار الخاصة بالغارات الجوية دويا وداعيا أثناء انعطافنا نحو الطريق الكبير الذي كنتُ قد أتيتُ منه، فسحبتُ قلنسوة البلوزة التي كنتُ أرتديها - وهي بلوزة دامير - ثم وضعتُها فوق عينيّ، خشية أن أرى سيارة عائلتي أو الجنود أو أشباح الغابة.

كانت الحافلة موجودة في المحطة، حيث كانت تتحرك ببطء ونفثات الدخان المنبعث من عادمها تلبِّد الهواء الجليدي.

Twitter: @ketab_n

سلمتْني درينكا الحقيبة واصطحبتني حتى وصلتُ إلى السلّم. كانت الحافلة تعبق برائحة تشبه رائحة اللحوم الفاسدة، فحاولتُ أن أمنع نفسي من التقيؤ. من الخارج كانت الحافلة أشبه بحافلة سياحية نظامية، كتلك التي تعمل خلال الصيف على الطريق الواصل بين زغرب والساحل، ولكني الآن لاحظتُ أن الصفوف الثلاثة الأولى من المقاعد تعج بحقائب الظهر المموهة، في حين كان السائق يرتدي زي شرطة غير كامل، كما كانت هناك بندقية مثبَّتة بشكل بارز على لوحة القيادة.

- «إنها ذاهبة إلى زغرب»، قالت درينكا، مسلِّمةً السائق أول رزمة من الدنانير.

- «عند الانتقال إلى حافلة أخرى تأكّد من ركوبها الحافلة المناسبة»، أضافت، مسلِّمةً إياه رزمة أخرى ثم مرَّرتْ أصابعها فوق خدي قبل أن تترجل من الحافلة.

جلستُ بجانب رجل يرتدي زي الشرطة الكرواتية. اشتغَل المحرك، وبدأت الحافلة تتحرك ببطء إلى الأمام، في حين وقفتْ درينكا لتراقبني وأنا أغادر، واضعة شالها فوق وجهها لتتجنب استنشاق الأدخنة المتصاعدة من العادم.

مع تلاشي القرية في الأفق ورائي، أسندتُ رأسي على النافذة، حيث شعرتُ باهتزازات المحرك التي كانت تتسلل عبر الزجاج لتصل إلى جمجمتي. لم أحفظ اسم المكان الذي كان قد آواني وحاولتُ أن أبحث وسط الظلام عن لافتة في الطريق تحمل اسمه. وتساءلتُ ما إذا كنتُ أستطيع العثور عليه مرة أخرى في حال أردتُ ذلك، أو ما إذا كنت سأتعرف عليه عن طريق البصر أو عبر شعور كامن في أعماق معدتي.

Twitter: @ketab_n

- «هناك جثث في الجزء الخلفي، كما تعلمين»، قال الجندي الجالس إلى جانبي.

- «ماذا؟».

نظـرتُ إليه. كان شـابا أحمر الشـعر، ويوجـد على طول فكه صفٌ من البثور.

- «جثث. في المقاعد الخلفية. أناسٌ ميتون».

- «مـا الذي يجعلك تخبرهـا الآن بهذا الأمر؟» قال الجندي الجالس في الجهة المقابلة.

- «إنها الحقيقة!».

- «لكنها مجرد طفلة صغيرة. إنها مجرد فتاة».

- «إنهـا ترتـدي زيا ميدانيا»، قال، مشـيرا إلى ملابس دامير. «أنتِ من جنود المنزل الآمن، أليس كذلك؟ لقد سمعتُ عنكم أيها الرجال»، أضاف.

- «تبدو في الثامنة من عمرها!».

- «حسنا؟» قال الجندي الأول.

- «القبضـة الأمامية وحجرة الغاز وسـيخ التنظيف والمغلاق والإطار والمخزن ثم التلقيم للتأكد من سلامة الوظائف»، قلتُ.

بـدت الدهشـة واضحـة فـي عيـون الجنـود، ولكـن الجندي الجالس بقربي تظاهر بعدم الاهتمام.

- «أترى؟ على كل حال»، قال، ثم التفتَ إليّ مرة أخرى وأضاف «تلـك المقاعد الموجودة في المؤخرة كلها يوجد فيها قتلى. آمل أن نتمكـن مـن الوصول إلى الشـمال قبـل أن تصبح الرائحة أسـوأ حالا».

- «هلا توقفت؟» قال الجندي الآخر.

Twitter: @ketab_n

- «إنها ليست طفلة صغيرة على الإطلاق»، قال.

أرجع رأسه إلى الوراء، متظاهرا بالنوم، ولم يلتفتْ إلى أيّ منا خلال الفترة المتبقية من الليل.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي في زغرب ولم أكن أتذكر أننا انتقلنا إلى حافلة أخرى. لقد كان يوما حارا على غير العادة، إذ بدتْ شمس الشتاء قريبة وقاسية. خلعتُ البلوزة الخارجية ووضعتُها في حقيبة درينكا، ثم وقفتُ أحدِّق في ذلك الموقف القذر لمحطة الحافلات وقد تملَّكني شعور بالارتباك. سلكتُ المخرج المطوَّق بسلسلة معدنية والمخصص للأفراد المصرح لهم فقط لكي أتجنب الحشود في المحطة ثم خرجتُ إلى زقاق سرتُ فيه حتى وصلتُ إلى جادة درجيتشا.

بدتْ زغرب سليمة من الأذى نسبيا، وقد أبهرني حجمها وصخبها، حيث شعرتُ بأني غير قادرة على مواكبة الحركة المستمرة للمدينة. رأيتُ عائلات تسير مع بعضها ويرتدي أفرادها الملابس المصنوعة من الكاكي والجلد اللامع، وأدركتُ أنهم ربما كانوا يغادرون الكنيسة، وأن ذلك اليوم هو يوم الأحد. بدا مفهوم الزمن المقسَّم إلى وحدات، تتكون الواحدة منها من سبعة أيام، بدا شبه غريب بالنسبة لي في تلك اللحظة، كما لو أنه لم يسبق لي أن التزمتُ التقويم. تساءلتُ كم من الوقت مضى على مغادرتي المدينة، وما إذا كان عيد الميلاد قد فاتني أم لا. فكرتُ في المدرسة وهالني أن كل شخص كنتُ أعرفه كان بلا شك لا يزال يذهب إليها كل يوم من دوني.

المدينة التي كنتُ أسميها مدينتي، والتي كنتُ أعتبرها منطقة حرب عندما غادرتُها، بدت الآن مختلفة تماما. بدتْ زغرب وكأنه

Twitter: @ketab_n

قد أُعيد طلاؤها بالكامل، حيث كانت ألوانها أكثر تألقا، في حين بدا الزجاج داخل كل نافذة أكثر لمعانا.

حدَّقتُ في عائلة كان أفرادها يعبرون الشارع، وسمحتُ لعيني أن تطيلا النظر إليهما على نحو مبالغ به، نظرت الأم إلى قميصي القذر بنفس النظرة المتعالية الذي ينظر بها الناس عادة للمتسولين الغجر. لثانية واحدة فقط تمنيتُ لو أنه كان لا يزال في حوزتي بندقية، لكان مجرد حملي لها سيمنعها من النظر إليّ بتلك الطريقة، ولكني شعرتُ على الفور بالخجل من تلك الفكرة. كنت بحاجة لمواصلة المشي. ذهبتُ إلى منزل لوقا.

عندما قرعتُ جرس الباب، أجاب لوقا، وقد علتْ وجهَه واحدةٌ من ابتساماته الجامحة والنادرة. اجتاز الدرجات الأمامية في قفزة واحدة، ثم انطلق لسانه بسيل من الأسئلة: أين كنت؟ وما الذي أبعدكِ كل هذه الفترة؟ حينذاك شعرتُ بأن حنجرتي بدأتْ تجف وتضيق. خشيتُ من أن صوتي سيخذلني أو يتخلى عني كليا، كما حصل من قبل.

واصل لوقا الثرثرة خلال صعوده الدَّرج عائدا في اتجاه باب غرفته، ولكنني وجدت أن قدميّ ترفضان أن تطاوعاني. التفتَ للوراء بسرعة لكي يستعجلني، فرأيتُ وجهه يتغير في لحظة كانت بالتأكيد هي اللحظة التي نظر بها أخيرا إلى وجهي. شاهدتُ كيف عادت الجدية إلى عينيه عندما تفحَّصَ البقع الكائنة على قميصي.

- «آنا»، قال، ثم أضاف «أين والداك؟».

- «في المنزل»، قلتُ بصوت متهدج.

لكنه رمقني بنظرة ثاقبة جعلتني أنفجر في البكاء. شعرتُ

Twitter: @ketab_n

بأن ركبتيّ ترتخيان، فأمسك بذراعي ووضعه على كتفيه ثم صعد بي الدرج نحو غرفته، حيث أجلسني على حافة السرير.

- «اخلعيه»، قال، مومئا برأسه نحو قميصي.

- «لا».

- «اخلعيه!».

جذبتُ القميص وأخرجتُه من فوق رأسي، فمدَّ يده ليأخذه مني دون أن ينظر إلي. ناولتُه إياه، فرماه على الأرض، ثم راح ينقِّب داخل خزانته الخاصة إلى أن وجد بديلا مقبولا.

- «ابقي هنا»، قال لي، ثم سمعتُه ينادي والدته.

عاد لوقا برفقة والدته التي كانت تسير خلفه، ثم التقط قميصي الملطَّخ بالدم عن الأرض وسلَّمها إياه. لم أبكِ على الإطلاق عندما كنتُ في القرية، ولكن الآن بعد أن بدأتُ في البكاء، تبيَّن لي أن التوقف صعب. ظللتُ أبكي حتى بدأ أنفي ينزف، وجلس لوقا ووالدته بجانبي بينما كنتُ ممدَّدة على السجادة ووجهي إلى الأسفل، حيث أنشبتُ أصابع يدي بقوة بين أليافها إلى أن شعرتُ بوخز في يدي. وكلما حاول شخصٌ أن يلمسني كنتُ أنفر منه، ولكن في نهاية المطاف سيطر عليّ التعب، وعندما مدَّت والدة لوقا يدها نحوي لم أجفل. أنزلتْ راحة يدها على منحنى ظهري فبثَّت الاستقرار والهدوء في داخلي، وعندما نفدت دموعي استسلمتُ للنوم.

استيقظتُ وأنا ممددة على الأرض فحدَّقتُ في الصباح من خلال الكوة الكائنة في سقف غرفة لوقا. كانت والدة لوقا نائمة على كرسي هزّاز، وكان لوقا في سريره متكئا على الجدار المقابل. كانت حنجرتي متخرشة وعيناي منتفختين ما جعل ردة فعلهما

Twitter: @ketab_n

بطيئة. وعندما وقفتُ تحركتْ والدة لوقا، ثم استيقظتْ عندما لامس جبينها الجدار. نظرتْ إليّ، كنتُ محتارة، ليس لسبب مجهول، بل لأنني كنتُ غير قادرة على تذكر سبب وقوفي في منزلها في الساعة السادسة صباحا بوجه منتفخ وآثار الدم لا تزال بادية علي. فركتْ صدغيها، ثم لحقتُ بها عندما نزلت الدرج وتوجهتْ نحو المطبخ.

جلستُ على كرسيّ صغير بجانب طاولة المطبخ ورحتُ أراقبها وهي تتنقل بين الثلاجة وفرن الغاز.

- «أنتِ لستِ مضطرة لكي تحكي لي أية تفاصيل»، قالت لي بحذر. ثم أضافت «لكن أنا بحاجة لمعرفة بعض الأشياء، لأتمكن من تقديم المساعدة. يمكننا في البداية أن نجرب فقط الأسئلة التي يمكنك الرد عليها بنعم أو لا؟».

أومأتُ برأسي موافقة.

- «حسنا. كنتم ذاهبين الى ساراييفو؟».

أومأتُ إليها مرة أخرى.

- «هل وصلتم الى هناك؟».

أومأتُ.

- «هل راهيلا بخير؟».

أومأتُ برأسي موافقة ورجوتُ من الله أن يكون ذلك صحيحا.

- «إذن، في طريق العودة؟» استرسلتْ في طرح الأسئلة.

لم أحرك رأسي.

- «كان هناك جنود؟».

أومأتُ بالإيجاب.

- «هل تعرضوا لكِ بالأذى؟».

Twitter: @ketab_n

- «لا»، قلت.

- «هل تعرضوا بالأذى لوالديكِ؟».

حدقتُ بصمت.

- «هل هما بخير؟».

حدَّقتُ بقوة أكبر.

- «هل سيعودان قريبا؟».

- «لا».

- «هل.. سيعودان؟».

هززتُ رأسي بالنفي. جلستْ والدة لوقا وأصدرتْ صوت حشرجة غريبا.

- «ماذا أفعل؟» همسَتْ.

كانت تسأل نفسها، لذلك لم أحاول الإجابة. وبعد لحظات نزل والد لوقا الدَّرج مسرعا، وهو يثبِّت الدبابيس في زيه العسكري. تقوَّس حاجباه الكثيفان عندما رآني.

- «اشتقنا لكِ يا صغيرتي»، قال، وبعد أن تأمَّل أنفي الملوث بالدم، التفت إلى زوجته وقال لها «هل كل شيء على ما يرام؟».

- «لا»، قالت، مضيفة «ليس كل شيء على ما يرام».

- «هل تريدين مني أن أتصل بوالديها؟».

مدَّ يده ليحضر دليل الهاتف، ولكن والدة لوقا رمقته بنظرة حادة، فتوقَّف مباشرة. تنهَّد، ثم بلَّلَ منديلا وراح يمسح الدم المتجمد من تحت أنفي.

- «اتصلي ببيتر»، قال.

تحسَّس مفاتيحه ثم انطلق ليتولى تدريب الجنود الجدد.

قامت والدة لوقا بتسخين الماء على الغاز، فأخذتْه إلى حوض

Twitter: @ketab_n

الاستحمام وألقيتُه فوق رأسي. كان دافئا بما فيه الكفاية، ففركتُ نفسي حتى أصبح لوني ورديا، في حين استحال لون المياه عند قدميّ إلى الرمادي.

لم يذهب لوقا إلى المدرسة وبقي في المنزل، فلعبنا بالورق على أرض المطبخ. كانت والدة لوقا على الهاتف طوال اليوم، تتحدث بهدوء وتلف السلك الحلزوني للسماعة حول إصبعها جاعلة إياه أكثر حلزونية.

- «سيأتي بيتر لاصطحابك في الصباح»، قالتْ لي عندما أقفلتْ سماعة الهاتف بشكل نهائي قبل العشاء.

- «ألا يمكنني البقاء معكم؟».

- «أنت دائما موضع ترحيب يا حبيبتي. لكن بيتر هو والدك بالمعمودية، لذلك قانونيا ..».

- «أعلم»، قلتُ، وقد انتابني شعورٌ بالندم لأني سألتُها.

نمتُ بجوار لوقا في سريره خلال تلك الليلة. كنتُ سعيدة بوجوده إلى جانبي، ولكن الفراش، الذي كنتُ دائما أشعر بالغيرة لأنه لا يوجد لدي مثله، بدا الآن يابسا وقاسيا، فأحسستُ بالحنين إلى أريكتي.

- «إذن؟» قال لوقا، واضعا إحدى ذراعيه عليّ.

سردتُ له القصة بالتفصيل الممل، حيث رويتُها كما لم أستطع أن أفعل أمام والدته، وكما لم أفعل أمام أي شخص آخر. حكيتُ له عن الحاجز والغابة وكيف خطّطتُ مع والدي لخداع الجنود، وحدّثتُه عن جنود المنزل الآمن، وعن القائد صاحب العينين الجاحظتين وكيف أنه أطلق عليّ اسم إنديانا. أخبرتُه أيضا عن دامير، وعن الحافلة المليئة بالجثث، وصولا إلى اللحظة التي

Twitter: @ketab_n

وصلتُ فيها إلى باب منزله. كما أخبرتُه عن بندقيتي.

- «القبضة الأمامية وحجرة الغاز وسيخ التنظيف والمغلاق والإطار والمخزن ثم التلقيم للتأكد من سلامة الوظائف»، قلتُ له، وكرر لوقا ورائي، محاكيا حركات يديّ.

- «أنت سريع».

- «هل قتلتِ أي شخص؟».

كان الجندي الذي أطلقتُ عليه النار في الحقل الجزء الوحيد الذي استبعدتُه من القصة التي رويتُها له.

- «لا أعلم»، قلتُ، وهذه كانت الحقيقة من الناحية الفنية.

التزمنا الهدوء مرة أخرى، ولكن كان يمكنني أن أشعر بأنه كان لا يزال مستيقظا، وبقينا على تلك الحالة نصغي إلى صفير رياح الشمال وأعيننا مفتوحة دون أن نتمكن من رؤية أي شيء بسبب الظلام.

اتصل بيتر ليقول إنه في الطريق إلينا. كانت والدة لوقا تتنقل بين الغرف تمسح الغبار عنها وترتِّبها، أما أنا فكنتُ أتبعها في كل مكان.

- «ما الأمر؟» قالت.

- «أريدكِ أن تعيدي لي قميصي».

- «لا أعتقد..».

- «أرجوكِ».

أخرجت القميص من الدُّرج الأسفل لمكتبها كما لو أنها كانت تعلم بأنني سأطالب به.

- «مع ذلك، ربما لا يجدر بك ارتداؤه»، قالت، ثم سلَّمتني إياه.

Twitter: @ketab_n

أومأتُ برأسـي موافقة ثم وضعتُه في الحقيبة البلاسـتيكية إلـى جانـب بلـوزة دامير. فـي هذا الوقـت كان قد تم غسـل ذلك القميص بوساطة أيد كثيرة، ولكن البقع كانت لا تزال عليه.

كان بيتر لائقا بدنيا نتيجة خدمته في الجيش، وكان شـعره قد بدأ ينمو بعد التسـريحة القصيرة، أما ذراعه فكانت مربوطة بدعامة بلاسـتيكية سميكة، والتي اعتقدتُ أنها كانت السبب في عودتـه المبكـرة. انحنى علـى ركبة واحـدة لكي يعانقنـي، ثم بدا وكأنـه كان يجد صعوبة في التوقـف عن معانقتي، حيث حملني بذراعه السـليمة، وظل ممسـكا بي بتلك الطريقة إلى أن وصلنا إلى السيارة.

كانتْ والدة لوقا تقف في المدخل بيدين مكتوفتين من شـدة البرد.

- «شكرا لكِ»، قال لها بيتر.

- «شكرا»، قلتُ.

وضعنـي بيتـر فـي المقعد الخلفـي بجانب كومـة صغيرة من ملابسي والكتب المدرسية والمفاتيح الاحتياطية الخاصة بشقتي. وأخبرني بأن دراجتي كانت في صندوق السـيارة، وبأنني سـأكون قـادرة علـى الذهـاب بها مـن منزله إلى المدرسـة. ثـم أضاف أنه اضطر إلى قطع قفل دراجتي، ولكنه اشترى لي قفلا جديدا من النوع التوافقي. وقد اسـتغرق بضع لحظات وهو يحاول تشغيله، محرِّكا الأرقام بإبهاميه الغليظين قبل أن يسلِّمني إياه.

- «هل تعرفين كيف يعمل هذا القفل؟».

- «ليس حقا»، قلت.

- «ولا أنا»، قال وهو ينظر بعيدا.

Twitter: @ketab_n

كانـت مارينا تجلـس على الرصيف أمام البناية التي تسـكن فيهـا، وتنتظر قدومنا. أومأتْ لي كي آتـي إليها، وعندما تعانقنا شعرتُ بدموعها تنهمر على رقبتي.

- «لا تبكي»، قلتُ لها، وهو ما جعلها تبكي بشدة أكبر.

- «هيا بنا لنوصلك إلى الداخل»، قال بيتر.

سلَّم مارينا ملابسي ثم حملني إلى داخل المنزل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(4)

في شـقة بيتر ومارينا كان الحـزن يملأ المكان، بل كان حاضرا بيننـا كشـخص رابع فـي الغرفة. في كل ليلة وعلى مدى أسـبوع كان بيتـر يحدثني بهدوء، يسـألني عما حدث، لكني كنتُ لا أزال أشـعر بالغرابـة في الحديث عـن هذا الأمر، وذلـك إلى أن وصل بـه الإحبـاط حدا دفعه فـي نهاية المطاف إلى أن يمسـك بي من الكتفـين ويهزنـي. لم يكن الأمر مؤلما، ولكنه كان قاسـيا بما فيه الكفاية لإخافتي، وبعد ذلك كان يتراجع ويعتذر محتضنا ذراعه المصابة.

- «أنـا آسـف. أنـا فقط بحاجة لأعرف مـا حصل. لا يمكنني الا أعرف».

لم يخطر لي أن بيتر ومارينا كانا في حالة حداد على فقدان أفضل صديقين لهما، وأنهما كانا يشعران بنفس الألم الذي كنتُ أشعر به، وقد بثَّ في داخلي إدراك هذا الأمر قدرا من الشجاعة. أخبرتُه بكل شـيء عن مكتب ميدي ميشـن وعن الحاجز، وكيف أقمتُ في قرية الوادي. ومع أني لم أقل لبيتر أي شيء عن المنزل الآمـن، فإنـه بعـد حصوله على إجابـات عن الأسـئلة التي كانت تشـغله لم يضغط عليٍ لأشـرح له ماذا فعلتُ خلال ذلك الوقت الضائع.

Twitter: @ketab_n

عدتُ إلى المدرسة، لكنني لم أتحدث مع أي شخص باستثناء لوقا، الذي كان دائما جديا معي. وباستثناء بعض الزلات العرضية، فقد كان ينجح في إخفاء أي مظهر من مظاهر الفرح التي كانت مستمرة من دوني في هذا العالم. لكن بيتر كان قد أخبر أساتذتي بما حدث، كما أن زملائي سمعوا تلك الأشياء أثناء وجودهم في الممرات. أصبح الجميع يعرف. لهذا السبب حظيتُ بدور لا ينازعني فيه أحد لركوب دراجة المولِّد.

أثلجت السماء. لكن الإثارة التي كانت تملأ المدينة عادة في عاصفة من هذا النوع تلاشت بسبب دخان الغارات الجوية وفرض مجموعة جديدة من القيود التموينية. كان فصل الشتاء دائما الفصل المفضل بالنسبة لي على مدار السنة. كنتُ أحب المشي في الساحة العامة وأنا أشرب النبيذ المسخَّن والمضاف له السكر والتوابل، وأتناول الكيلباسا، وأتحدث مع البائعين في الخيم الذين يبيعون منحوتات خشبية على شكل قوارب وصلبان. كما كنتُ أحب ليلة رأس السنة، عندما كان الناس يتنافسون في نشر عبير الشموع الرومانية في الساحة ويطلقون الأغاني وأنا جالسة على كتفَي والدي. لكن العطل كانت تمر دون أن يلاحظها أحد في القرية، وإذا كانت زغرب قد أقامت احتفالا في تلك السنة، فإن كل الأدلة على ذلك كانت قد أزيلت في الوقت الذي عدتُ فيه. ولا أتذكر أي شيء من أيام شهر يناير باستثناء الأنشودة الخاصة بترنيمة عيد الغطاس، التي تتسم بالغرابة والبساطة، والتي يتم تكرارها على آلة أرغن تنتمي إلى زمن آخر.

اتخذ بيتر ومارينا من الشجار هواية لهما. لم يسبق لي أن رأيتُهما على هذه الشاكلة، فقد كان كلٌّ منهما سريعا في توجيه

Twitter: @ketab_n

الاتهام للآخر ومهاجمته. كان بيتر قد توقَّف عن الذهاب إلى القدّاس في حين واظبتْ مارينا على الذهاب أكثر منه. كان بيتر يمضي ساعات طويلة وهو يدخن ويجري حوارات في الخفاء على الهاتف، أما مارينا فكانت تفرغ كل نرفزتها العصبية في التنظيف، وبخاصة التلميع، مع التركيز على الجص الكائن بين قطع البلاط. وكلما كانت تحث بيتر على القيام بشيء مفيد، كان يشير إلى سماعة الهاتف الموجودة على أذنه ثم ينصرف، مغطيا الأذن الأخرى كي لا يؤدي صوتها إلى التشويش عليه.

بدأ بيتر يوجه لي الأسئلة حول بعض التفاصيل الدقيقة بخصوص مؤسسة ميدي ميشن. لم تكن لديّ معلومات كثيرة، باستثناء أن راهيلا كانت ترقد في مستشفى للأطفال في فيلادلفيا، وأن الأسرة التي تتولى رعايتها تم تحديدها من خلال برنامج ميدي ميشن. فوالداي لم يتحدثا أبدا معهم، فضلا عن أني لم أكن أعرف أسماءهم.

- «لا أعلم أي شيء آخر»، قلت له، وقد سئمتُ تلك الأحاديث.

- «واظبي على التفكير في الأمر. قد تتذكرين شيئا يفيدنا».

- «يفيدنا في ماذا؟».

أثناء الليل كانا يشعران بالحزن، وهذا كان أسوأ بكثير من الشجار الذي كان يدور بينهما. كان كلام مارينا هادئا وغير مفهوم، أما صوت بيتر الخشن فقد كان يصل إليّ بسهولة عبر الجدار المشترك بيننا.

- «الأنذال! لا أعرف ما الذي يجب علي القيام به».

ردَّتْ عليه مارينا بهدوء، أعقبه صدور صوت صرير من نوابض السرير.

Twitter: @ketab_n

- «اللعنة»، قال أثناء قيام أحدهما بإطفاء المصباح. ثم أضاف «من أجل ماذا أنا أصلّي؟».

في أحد أيام السبت، تمكّنت مارينا من إقناع بيتر للذهاب إلى الكنيسة، «لحضور جنازة فقط»، على حدّ قولها. حتى عائلتي لم تكن تذهب إلى الكنيسة كثيرا، خصوصا بعد مرض راهيلا، إلا لحضور جنازات الأقارب والاحتفال بالأعياد. كنت قد حفظتُ الصلوات وحضرتُ أول عشاء مقدس مثل جميع الذين كنتُ أعرفهم تقريبا، ولكني لم أشعر يوما بذلك الارتباط العاطفي بالكنيسة. كنتُ أعتقد أن الدين سيصبح مفهوما أكثر بالنسبة لي عندما أكبر.

ذهبتُ برفقة مارينا وبيتر إلى كاتدرائية زغرب وأمضينا ساعة عند شموع الصلاة الموجودة في الخلف، حيث ركعنا واستخدمنا المسابح إلى أن أُصيب إصبعا الإبهام لديّ بالحروق بسبب أعواد الثقاب الرخيصة، كما أُصيبتْ ركبتاي بالكدمات من جراء الركوع على البلاط البارد.

بعد ذلك، سرنا إلى الساحة العامة، حيث كان قد بُدئ بحفل تأبيني مؤقت للشهداء. كان هناك جدار مبني من الطوب الأحمر، وكل طوبة فيه كانت تحمل اسم شخص قُتل أو اختفى أثناء الحرب. وقد بلغ طول الجدار ما يعادل المئات من حجارة الطوب. التقطتُ طوبة سائبة من كومة موجودة أمامي، وكتبتُ عليها اسمَي والدَيّ، وذلك رغبة مني في أن أبقيهما معا، ثم أضفتُها إلى صف الحجارة المتنامي على الجدار. كانت لدى مارينا شمعةٌ أخرى، وهي من النوع الخاص بالنذور ومصمَّمة كي تبقى مضاءة حتى في الهواء الطلق، وقد تركتْها هناك لتتلألأ وسط الغسق.

Twitter: @ketab_n

بـدأ بيتـر يتصـرف علـى نحو أكثـر غرابـة، حيـث كان يأتي ويغـادر دون أن يعلـم أحد، وعندما كان يعـود إلى المنزل لم يكن يستطيع الجلوس دون القيام بشيء، بل كان يتمشى في المطبخ جيئة وذهابا وهو يمرِّرُ يده السـليمة داخل شـعره. وقد ذكَّرتْني عصبيتُـه بتلك السـنة التي اشـترى فيهـا والدي قـلادة غـالية لوالدتـي بمناسـبة الكريسـماس، حيـث ذرع هـو الآخر الشـقة جيئة وذهابا لمدة أسـبوع، وقد كان متحمسـا جدا للأمر لدرجة أنه استسـلم في نهاية المطاف وأعطاهـا القلادة قبل ثلاثة أيام من حلول الكريسـماس. وقد أُعجبتْ بها، وكان وجهه يشـع نورا نتيجة شعورها بالسعادة.

لم يكن وجه بيتر يتمتع بهذا النور، وقد بدأ شعوري بالارتباك يتزايـد عندمـا اتضح لي أنني كنتُ أشـكِّل موضـوع القلق الذي يشـعر به. وأخيرا، وفـي إحدى الليالي على العشـاء، وبينما كان بيتـر يحدِّق في وجهي ويصدر صوت تنخُّم خفيف من حنجرته، خبطت مارينا كوبها على الطاولة ثم دفعت كرسيها إلى الوراء.

- «بيتر، أرجوك أخبرها!».

- «يخبرني بماذا؟» قلتُ.

- «لا أريد أن أخبرها إن لم تكن لدي كل المعلومات».

- «تخبرني بماذا؟».

- «لقـد تعقبنا راهيلا والأسـرة الحاضنة لهـا»، قالت مارينا. «إنهم يريدون تبنيها»، أضافت.

- «ماذا؟».

- «مؤسسـة ميـدي.ميشـن لم تكـن تريد أن تخبرنـي أين تم وضعها، فهذا مخالف للقوانين، ولكنني وجدتُها»، قال بيتر.

Twitter: @ketab_n

- «كان من المفترض أن تعود عندما تتحسن حالتها الصحية. إنها أختي».

- «حسنا»، قالت مارينا، ثم أضافت «قد تكون هناك خيارات أخرى».

- «ماذا تقصدين؟».

- «قالت العائلة الحاضنة إنها مستعدة لأن تأخذك أنتِ أيضا، شريطة أن نكون قادرين على اتخاذ الترتيبات اللازمة لإيصالك إلى هناك».

- «تأخذني أنا؟».

- «أي أن تتبناك يا آنا. ستتمكنين من الذهاب والعيش معهم ومع راهيلا. في أميركا».

شعرتُ بموجة غضب تعتمل في صدري. أردتُ أن أضرب أي شيء، فركلتُ العارضة السفلية الواصلة بين ساقَي الكرسي الذي كنتُ أجلس عليه. لماذا كانا يحاولان التخلص مني؟ لماذا كانا يريدان أن يرمياني مع بعض الغرباء في قارة أخرى؟

- «لماذا لا نستطيع البقاء هنا معكما؟ ألا تريداننا؟».

هز بيتر رأسه بالنفي.

- «هل تعتقدين حقا أن هذه ستكون فكرة جيدة؟ أن نقوم بإعادة راهيلا المريضة من أميركا إلى هذه المنطقة التي أنهكتها الحرب؟».

- «بيتر!» قالت مارينا.

أومأتُ برأسي تعبيرا عن تأييدي لما يقول. لم أفكر في الأمر بهذا الشكل. أشارت إليّ مارينا كي أذهب إليها، فذهبتُ وجلستُ في حضنها. بدأتْ تملِّس شعري وتحدق في بيتر.

Twitter: @ketab_n

- «أعتقد أن هذا هو الأفضل»، قالت، ثم أضافت «بالنسبة لراهيلا، ولك أنتِ».

- «أنا آسف على الصراخ»، قال بيتر، وقد أصبح صوته ألطف الآن.

- «لكنني أعلم بأنك ذكية بما فيه الكفاية لكي تتفهمي. أنتِ تتفهمين الأمر، أليس كذلك؟» أضاف.

أومأتُ برأسي موافقة.

- «سوف أقوم ببعض الإجراءات لتأمين خروجك من هنا. أعتقد أنني أستطيع القيام بذلك».

تواصل بيتر مع ميدي ميشن، التي قدمتْ له ردا مقتضبا مفاده أن حالات لم شمل العائلات لم تكن ضمن نطاق اختصاصها، وأنه يستطيع إعادة التقدم بالطلب نيابة عني في حال مرضتُ. بعد ذلك فكّر في مسألة اللجوء، ولكن لم تكن هناك سفارة أميركية في كرواتيا بعد. وكانت القنصلية في بلغراد ترد على المتصلين بها برسالة صوتية مسجّلة تعتذر فيها عن جعلهم ينتظرون، وتقول لهم إنه نظرا لارتفاع حجم الاستفسارات، فإنهم منشغلون في هذا الوقت بإنجاز الطلبات المتراكمة.

- «لا تقلقي»، قال بيتر، ثم أضاف «أعرف شخصا ما».

في الصباح التالي، قمنا، بيتر وأنا، بالضغط على جرس شقة كائنة في سرداب يقع تحت متجر لبيع اللحوم في منطقة تقع جنوبي المدينة لم يسبق لي أن ذهبتُ إليها قط. انتظرنا، ونحن نستمع إلى صوت الجلجلة الصادرة عن سلسلة معدنية ومزلاج دوّار على الجانب الآخر من الباب. انفتح الباب قليلا، وكان ذلك

Twitter: @ketab_n

كافيا ليكشف لنا نصف الوجه الشاحب للشخص الواقف خلفه، والذي أعاد إغلاقه ليتمكن من إكمال عملية الفتح.

- «إنه الأمن»، قال الرجل، ثم أضاف «أنتم تعرفون الأوضاع».

في نهاية المطاف فُتح الباب بمقدار كاف للمرور من خلاله فدخلنا أنا وبيتر. كانت الشقة رطبة وتفوح منها رائحة العفن. في البداية كان من الصعب تمييز ما يوجد بداخلها، ولكن بعد أن تكيَّفتْ عيناي مع المكان، بدا واضحا أن تلك الشقة المكوَّنة من غرفة واحدة لم تكن مجرد منزل لشخص أعزب زائد الوزن. فقد كانت هناك طاولة مستطيلة الشكل مليئة بالمعدات بدءا من الآلات الكاتبة مرورا بالطابعات وصولا إلى -حسب تقديري- موقد للحام.

- «ماذا حدث لك؟» قال الرجل، مشيرا إلى ذراع بيتر.

- «كسرٌ في العضد. الشظية لا تزال في الداخل».

شعرتُ بالندم لأنني لم أسأله يوما عن هذا الأمر، لكنه كان يبدو دائما وكأنه لا يريد التحدث عن ذلك، وقد تفهَّمتُ الأمر. بعد ذلك غيَّر الرجل الموضوع.

- «وماذا يمكنني أن أفعل لكِ اليوم؟» قال موجها الكلام لي بعد أن اتخذ وضعية القرفصاء. ثم أضاف «هل تريدين رخصة قيادة؟».

- «ها ها»، قال بيتر، ثم قام الرجلان بالتصافح والعناق بيد واحدة. قبَّل الرجلُ بيتر ثلاث مرات على الطريقة الأرثوذكسية، فشعرتُ بالنفور.

- «آنا»، قال بيتر، ثم أضاف «هذا هو سرديان».

إنه اسم صربي بلا منازع. تسارعت ضربات قلبي.

Twitter: @ketab_n

- «إنه صديق قديم من المدرسة الثانوية. كان سرديان يعرف والديك».

- «نعم»، قال سرديان، وهو يمد يده. «أنا آسف لسماع ذلك الخبر»، أضاف.

- «هيا إذن، صافحيه».

- «أستطيع مساعدتك»، قال سرديان. وبعد أن وضعتُ يدي في يده أضاف «سمعتُ أنكِ في حاجة الى تأشيرة أميركية».

نظرتُ إلى بيتر، الذي أومأ لي موافقا. فحذوتُ حذوه وأومأتُ برأسي.

- «حسنا، لحسن الحظ، أنا أصدر تأشيرات مضمونة تماما»، قال سرديان، مشيرا بحركة من يده نحو كافة معدات ورشته. ثم أضاف «حتى إنه يوجد لدي الورق نفسه الذي تستخدمه الولايات المتحدة الأميركية». وبعد التنقيب داخل خزائن مليئة بالأوراق قال «كيف ستسافرين إلى هناك؟».

- «ربما عبر ألمانيا»، قال بيتر، ثم أضاف «لا أزال أعمل على تدبر التفاصيل الصغيرة».

- «ألمانيا»، قال، ثم أضاف «إذا بقيتِ ضمن المحطة الدولية فستكونين على ما يرام».

حرَّك بعض العتلات في معدات الطباعة، فبدأت الآلات تعمل مصدرة صوت طنين.

- «من خلال هذه الورقة يمكنني إنتاج نسخ أميركية طبق الأصل! حصلتُ عليها عبر إحدى المتدربات في السفارة..».

- «ليست في حاجة لمعرفة من أين حصلتَ عليها»، قال بيتر، متنبئا بمسار القصة.

Twitter: @ketab_n

- «إن ثدييهـا»، قـال سـرديان، واضعا يديه على مسـافة أمام صـدره، ثـم أضاف «لا أبالـغ إن قلتُ لك إنهما بحجم شـمام كوز العسل».

ابتسـم بيتر ابتسـامة يشـوبها الارتباك، فاسـتغرب سرديان عندما وجد علامات القلق على وجه صديقه.

- «ما المشـكلة في الثديين؟ إنها فتاة صغيرة. وسـيكون لديها ثديان في المستقبل».

- «حسنا! يكفي عن الثديين».

- «حسنا»، قال سرديان. ثم نظر إليّ وأضاف «لم أكن أعلم أنه حساس لهذه الدرجة».

- «ماذا عن جواز السفر؟».

- «ماذا تعني؟ سـنقوم فقط بتثبيت التأشـيرة بدبوس ضمن جوازها العادي».

- «لقد... ضاع»، قال بيتر.

- «حسنا، يمكنك التقدم بطلب للحصول على جواز جديد».

- «الوقـت غيـر كاف. ألا يمكنـك أن تصمـم لها جواز سـفر؟ صمم لها جوازا ألمانيا!».

- «هكـذا إذن، أُصممُ جواز سـفر ألماني مزوَّر ثم أجعل طفلة لا تعرف أي كلمة باللغة الألمانية تسـافر به إلى ألمانيا!» رفع سـرديان راحة كفه وصفع بها بيتر على جبهته، ثم رمقني بغمزة من عينه وأضاف «انتبهوا، يوجد لدينا عبقري حقيقي هنا تحت تصرفنا!».

- «حسـنا، حسـنا»، قال بيتر، ثم أضاف «صمِّم لها إذن جوازا مـن جوازاتنـا. ألا تحتاج إلى التقاط صورة لها أو شـيء من هذا القبيل؟».

Twitter: @ketab_n

- «بالطبع».

قـام سـرديان بتهيئـة اثنين من أضـواء التصوير، كانا أشـبه بمظلتـين، فوقفتُ بكل هدوء أمـام لوحة بيضاء في حين قام هو بالتقاط الصورة.

- «هل أعود لتسلُّمِه يوم الأربعاء؟».

سـلَّمه بيتر مغلفا، رفع سرديان غطاء المغلف بإصبعه وألقى نظرة داخله.

- «سوف أحضر لك البقية لاحقا».

- «جيد جدا»، قال سرديان، منحنيا أمامنا بشكل ملفت قبل أن يرافقنا إلى الباب، ويتركنا هناك وسط ضوء النهار.

- «آنا».

التفتُّ إلى الوراء.

- «كان والداك طيبين».

- «شكرا»، قلتُ.

حاولتُ أن أفكر بشيء أفضل لأقوله له، ولكن سرديان كان قد أغلق الباب، وكان صوت إقفال المزاليج واضحا خلفنا.

تردَّدتْ أصوات الجيران في بيت الدَّرج أثناء صعودنا إلى شقة أهلي. كانت الجدران هناك دائما رقيقة. ومثلما أقلقتني فكرة أن أصدقائي كانوا يذهبون إلى المدرسة من دوني، فقد صُدمت عندما وجدتُ أن الناس كانوا ما يزالون يعيشـون حياتهم الطبيعية هنا في البناية التي كانت تسكن فيها عائلتي، وأن حياتهم لم تتوقف مثلمـا توقفـتْ حياتـي. أدار بيتر المفتاح الاحتياطـي في القفل، ولكن بدلا من أن ينفتح الباب ويصطدم بالجدار، فقد كان عالقا في الإطار. دفعه بيتر بقوة باستخدام كتفه السليم.

Twitter: @ketab_n

- «هل تستطيع إطالة البقاء هنا؟» قلتُ له.

كان الشعور بالألم باديا عليه ولكنه تريَّث في كل الأحوال.

عندما وصلنا إلى الداخل كانت الغرفة مظلمة وكان الهواء عطنا من كثرة انحباسه. أما أشعة الشمس فكانت تنفذ خيوطها من بين الستائر، كاشفة عن أعمدة الغبار الدوّامية. وكان باب غرفة نوم والديّ مغلقا، فتركتُه على حاله، ورحتُ أتنقّل عبر المطبخ. خرجتْ رائحة عفنة من الثلاجة، ثم ركض شيءٌ صغير ومبهم إلى جانب إزار الحائط واختفى تحت باب غرفة المؤونة.

في غرفة الجلوس مرَّرتُ يدي فوق مسند ذراع الأريكة التي كان والدي يجلس عليها. ثم سحبتُ ملابسي من فوق رف الكتب وأدخلتُها في كيس الوسادة التي كنتُ أنام عليها. ومن الرف السفلي جمعتُ عينات من أشرطة المواد الإذاعية التي كنا قد سجلناها أنا ووالدي دون أن نحصل على ترخيص مسبق بذلك. وفوق البيانو كانت هناك صورة لنا نحن الأربعة، وأخرى لي كطفلة عندما كنا في تيسكا؛ أزلتُهما من مكانيهما المتجاورين على الحائط. أما صورة زفاف والديّ فكانت معلقة في مكان أعلى، ولذلك لم أتمكن من الوصول إليها.

ناداني بيتر وسألني كيف كانت تسير الأمور، فقفزتُ وضربتُ بيدي على أزرار نغمات الجواب المنخفضة على البيانو، ثم ركضتُ من الغرفة، وأنا أجرُّ خلفي كيس الوسادة المنتفخ. فكرتُ في أن أطلب من بيتر العودة لإحضار صورة الزفاف، ولكن عندما وصل إلى مدخل الباب، كشف لي الضوء عن عينيه المحمرتين، فلم أقل شيئا.

Twitter: @ketab_n

في الليلة التي سبقت سفري، ظهر لوقا تحت نافذتي على دراجته. وكان بيتر قد أوعز لي بألا أخبر أحدا عن موعد سفري أو إلى أين سأذهب، ولكن كنت قد أخبرتُ لوقا على أي حال، بعد أن جعلتُه يقسم بالحفاظ على سرية الأمر.

- «كيف قمتَ..».

- «لقد تسللتُ خلسة. انزلي».

- «اصعد أنت».

التقيتُ به عند الباب، فتوجهنا بحذر نحو المطبخ ثم خرجنا من هناك عبر سلم الطوارئ. كانت مارينا والعائلة التي تقطن في المبنى المجاور قد قاموا بتعليق حبل غسيل في الممر، وكانت أغطية الأسرَّة التابعة لأحدهم تصدر صوت فرقعة بسبب اصطدام الريح بها.

- «هل ستكونين في مأمن هناك؟».

- «أعتقد ذلك، أختي راهيلا في مأمن».

- «ولكن كما تعلمين من خلال الأفلام، هناك الكثير من رعاة البقر ورجال العصابات».

- «أعتقد أن كل الأماكن خطيرة إلى حدّ ما».

- «أظن ذلك».

وضع يده على يدي، ثم سحبها.

- «هل ستبعث لي برسائل؟» قلتُ.

قال إنه سيفعل، وجلسنا لبرهة من الوقت نسترسل في الحديث عن الغرب المتوحش ومدينة نيويورك وفيلادلفيا، حيث قد أتمكن من رؤية روكي. وعندما بدأت جفون لوقا ترفرف، لكمته في ذراعه وقلت له إن بإمكانه البقاء هنا لهذه الليلة، ولكن كان

Twitter: @ketab_n

عليه الوصول الى منزله قبل أن يكتشف أهله بأنه متغيب دون إذن. كان السلم الموجود في مخرج الطوارئ محطما، لذلك صعد مرة أخرى إلى الشقة وخرج من هناك.

- «لا أعرف ماذا أقول»، قلتُ له همسا عندما وضع رجله فوق دراجته.

- «إذن لا تقولي أي شيء. عندما تعودين، سيبدو الأمر كما لو أنكِ لم تغادري على الإطلاق».

وقفَ على دواسات دراجته وانطلق مغادرا مدخل المبنى المفروش بالحصى، ثم انعطف عند الزاوية متواريا عن الأنظار.

استيقظتُ وسط الظلام حيث كان بيتر يقف قرب سريري.

- «آسف»، قال، ثم أضاف «لقد حان الوقت».

- «أنا مستيقظة».

ارتديتُ الملابس التي كنتُ قد تركتُها خارج الحقيبة. ثم ذهبتُ إلى غرفة النوم لأودِّع مارينا، حيث قبَّلتُها على خدها.

- «انتبهي لنفسك»، قالت بصوت هامس، ثم أضافت «واهتمي براهيلا».

- «تعالي، كوني مساعدتي في القيادة»، قال بيتر، مشيرا إلى المقعد الأمامي.

كان يرتدي زي الجيش حيث كان الكم الأيسر مقطوعا من أجل توفير مكان لحمالة اليد المصابة. وضع مغلفا أصفر اللون في حضني ثم انطلق بالسيارة إلى الوراء حتى خرج من المدخل.

- «اسمعي، هذا مهم جدا. هنا توجد جميع الوثائق الخاصة بكِ، التذكرة وجواز السفر ومعلومات الاتصال بالعائلة الأميركية وخطاب الدعوة و..».

Twitter: @ketab_n

ثـم مدَّ يده إلى جيبه ووضـع بعض الدنانير في المغلف: «هذا شيء إضافي في حال جاع أحدهم».

- «جاع أحدهم؟».

- «ليـس مـن أجل الطعام»، قال وهو ينقـر بيده على المغلَّف. ثـم أضاف «سـتجدين أن الرجال الأقوياء يمكن اسـتمالتهم في أغلب الأحيان. على الأقل هذا ما يحصل هنا. لا أعرف عنهم في أميركا. لا تقلقي. ستعرفين إن كنتِ بحاجة لذلك. اللطف ليس أسلوبا عسكريا. الآن، عندما تصلين إلى ألمانيا..».

- «يجـب ألا أغـادر المحطـة الدولية»، قلـتُ، متذكرة تعليمات سرديان.

- «جيد. وعندما تصلين إلى نيويورك؟».

نظـرتُ إليـه نظـرة جوفـاء. لـم أكـن أسـتطيع أن أتذكـر أي نصيحة حول أميركا.

- «فقـط تظاهـري بعـدم الاكتـراث!» قال، ثم أضاف «سـوف يستقبلونك في المطار، وبمجرد مرورك من الجمارك، تكونين قد اجتزت كل الصعوبات».

قلَّبـتُ الأوراق، ثـم عـدتُ إليهـا مـرة أخـرى وتصفَّحتُها من البداية. كانت هناك تذكرة واحدة فقط.

- «مكتـوبٌ على التذكـرة فرانكفورت-نيويـورك. أين النصف الآخر؟».

كنـتُ أعتقـد أن الجـزء الأصعـب يتمثـل في الحصـول على التأشـيرة الأمريكيـة. لـم أكن أتصـور أن الخروج من هـذا البلد سيكون مشكلة. ولكن كلما فكرت في الأمر، ازداد خوفي. وبطبيعة الحال لا توجد شـركة تتمتع بالغباء الكافي كي ترسـل طائراتها

Twitter: @ketab_n

التجارية للتحليق في المجال الجوي لمنطقة حرب.

- «لقد اتخذتُ الترتيبات»، قال بيتر.

- «كيف عثرتَ على كل هؤلاء الناس ليساعدونا؟».

- «كنتُ دائما أعرف الناس. أنت فقط لم تلاحظي ذلك. فقد كنتِ صغيرة».

كان المطار مطوّقا بالمركبات البيضاء: شاحنات إمداد ذات واجهات ملساء مزودة بأسطح مغطاة، وصهاريج لنقل الوقود، وسيارات رباعية الدفع بيضاء لامعة، وأيضا سلسلة من الدبابات بيضاء اللون والتي كُتب عليها اسم الأمم المتحدة بخط أسود عريض. وعلى جانبي السياج، كانت المنطقة تعج بقوات حفظ السلام والخوذات والسترات الواقية من الرصاص التي كانت شبه متلألئة وسط ضوء الفجر الباهت. لكن بيتر عبر المدخل. انتظرته كي يتحول إلى بوابة جانبية أو طريق للخدمة. لكنه بدلا من ذلك اختار السير على الطريق السريع المتجه جنوبا.

- «بيتر، المطار؟».

- «لن نذهب إلى هناك»، قال.

- «ماذا تعني؟».

- «إنه يخضع لحراسة مشددة جدا. يدققون على الطائرات».

- «إذن إلى أين نحن ذاهبون؟».

- «إلى أوتوتشاتش».

- «أوتوتشاتش! وهل لديهم مطار حتى؟ أليس التشيتنيك موجودين هناك؟».

- «نحن نعول على ذلك»، قال، ثم أضاف «في الوقت الراهن، الفوضى هي صديقتنا. ما من أحد سينتبه لكِ».

Twitter: @ketab_n

- «لكن..».

- «لكن لا شيء»، قال.

كانت الشمس قد اكتسبت لونها الأحمر مع حلول الصباح، فحدقتُ نحو قدميّ لأتجنب وهجها. سرنا في صمت إلى أن أصبحتُ لا أدرك شيئا.

- «سوف نخرجك من هنا»، قال بيتر، ثم أضاف «عندما نصل الى أوتوتشاتش، سوف يقابلنا شخصٌ يُدعى ستانفيلد، وهو أحد جنود قوات حفظ السلام».

- «أنا خائفة»، قلت.

- «يجب أن تكوني خائفة».

- «ماذا؟».

- «سيكون أمرا غريبا لو أنكِ كنتِ غير خائفة».

- «شخصٌ تابع للأمم المتحدة. ولماذا يساعدنا؟».

- «إنها امرأة»، قال بيتر، ثم اضاف «وقد أنقذتْ حياتها».

- «هل كان ذلك سبب الإصابة التي تعرضتَ لها في ذراعك؟».

- «لا. حدث ذلك في يوم إجازتي».

بدا السرور واضحا عليه، وقد أدى ذلك إلى رسم ابتسامة على وجهه لم يسعني إلا أن أبادله بابتسامة مماثلة.

- «سوف تعتني بكِ»، قال واضعا يده على ركبتي.

بعد نحو ساعة، دخلنا إلى مدينة ليكا ثم وصلنا إلى مشارف أوتوتشاتش. كانت الأراضي الزراعية تنحسر مفسحة المجال لنشوء تجمعات صغيرة من البيوت المسقوفة بالقرميد الأحمر والبيج على طول الطريق. وقد تعرضتْ معظم تلك البيوت للقصف وكانت في حالات متفاوتة من التلف.

Twitter: @ketab_n

- «تبا»، قال بيتر.

نظرتُ إلى الأمام فرأيتُ رجالا ملتحين يقفون في الطريق.

- «اللعنة»، أضاف بيتر.

- «ماذا نفعل؟».

- «انتقلي إلى المقاعد الخلفية واستلقي على الأرض ولا تتحركي حتى أقول لك»، قال.

حشرتُ المغلف ضمن حزام بنطلوني، ثم قفزتُ من فوق ذراع نقل السرعات، وتمددتُ على أرضية السيارة جاعلة وجهي يلتصق بتلك السجادة القذرة. ألقى بيتر بطانية فوقي ثم توقّفَ عند نقطة التفتيش.

سمعتُه ينزل زجاج النافذة، ثم بدأ شخص غريبٌ بالتحدث على مقربة مني.

- «هل يمكنني مساعدتك؟».

- «توجد لدي طلبية للتوصيل»، قال بيتر، ثم سمعتُ صوت فتح أوراق مطوية، وتساءلتُ ما إذا كانت تلك ورقة تعليمات أو دنانير لإسكات «الجوع» الذي كان قد حدثني عنه.

- «هذا الطريق مغلق. يتعين عليك أن تعود أدراجك».

- «ألم تسمعوا أيها القوم عن وقف لإطلاق النار؟» قال بيتر.

- «سمعت أن الجيش الشعبي اليوغوسلافي قد وافق على وقف إطلاق النار. لحسن الحظ، أنا لست في هذا الجيش».

- «انظر، لدي طلبية للتوصيل. القائد ستانفيلد».

- «ليس هناك أحد يُدعى ستانفيلد هنا»، قال الجندي، مكررا ذلك الاسم الأجنبي بشيء من الصعوبة.

Twitter: @ketab_n

- «إنها من الأمم المتحدة».

- «إنها؟» قال، وقد بدا مستأنسا، ثم أضاف «لا يوجد أمم متحدة هنا».

- «يُستحسن أن تتأكد من رسائلك»، قال بيتر، ثم أضاف «إنهم موجودون في المطار حاليا، وسوف تواجه مشكلات جمة إذا جعلتَهم ينتظرون».

- «أنا لا أتلقى الأوامر من قوات حفظ السلام».

سمعتُ صوت حفيف الأوراق مرة أخرى.

- «انتظر»، قال الجندي مع صدور صوت طنين من جهاز اللاسلكي.

سأل الجندي ما إذا كانت هناك طلبية للتوصيل، لكن الرد كان مشوشا وغير مفهوم.

- «حسنا، يا رفيق. قائدي لا يعلم عن طلبية التوصيل الخاصة بك. لذلك سيتعين علي أن أطلب منك الخروج من السيارة».

- «بالتأكيد»، قال بيتر، ولكن كان يمكنني أن أراه وهو يمد يده في الفراغ الضيق الكائن بين المقاعد، من أمام حزام الأمان، حيث لمع أمام عيني ذلك المعدن البرونزي الذي تتميز به الأسلحة.

- «أسرع! ترجَّل!».

- «آنا، عدّي من واحد إلى ثلاثة، ثم اركضي نحو مكتب البريد الموجود في مركز المدينة»، همسَ لي.

- «ماذا؟» قال الجندي.

- «آسف»، قال بيتر، ثم سمعتُه يفتح بابه ويقول «كنتُ فقط...».

Twitter: @ketab_n

سمعتُ صوت إطلاق نار فانطلقتُ هاربة من السيارة، وكنتُ لا أزال ممسكة بالبطانية حول كتفيّ. كان جندي التشيتنيك ممددا على الأرض ويمسك وجهه، أما بيتر فكان يركض نحو الأجمة الموجودة مقابل الطريق، وهو يشتّت انتباه الجنود الآخرين في الوقت الذي كنتُ أنطلق فيه مسرعة عبر الحقول نحو مركز المدينة.

- «وداعا!» قلتُ لبيتر بأعلى صوتي، مع أني كنتُ أعلم أنه لن يسمعني.

هل سيكون قادرا على القتال أو الهرب وذراعه مصابة؟ ربما إذا ركضتُ بسرعة كافية وعثرتُ على ستانفيلد فإن الأمم المتحدة قد ترسل ذوي الخوذات الزرقاء لمساعدته. كانت الشوارع مليئة بالحفر والحصى من قذائف الهاون، ولذلك بذلتُ قصارى جهدي كي لا أتعثر.

مقارنة بزغرب، كانت أوتوتشاتش عبارة عن بلدة للمشردين. فقد كانت المنازل تبدو متشابهة ومألوفة بواجهاتها البنية والبيضاء وأسطحها القرميدية، ولكن لم تكن هناك مبان عالية هنا، إذ كان أعلاها لا يكاد يتجاوز بضعة أدوار، لذلك كان من الصعب العثور على وسط المدينة. لم يكن هناك الكثير من الناس في الشارع، ولم يلحظ وجودي أي أحد.

- «أين مكتب البريد؟» قلتُ لرجل يجلس مسترخيا عند الزاوية ويشرب البراندي من الزجاجة.

- «إنه لا يعمل»، قال.

- «أعلم أنه لا يعمل، ولكن أين هو؟».

- «وماذا ستستفيدين منه إذا كان مغلقا؟».

Twitter: @ketab_n

- «انسَ الأمر».

- «يقع على بعد شارعين من هنا. بجوار المخبز المغلق والبنك المغلق و...».

- «شكرا».

ركضتُ عابرة الحارتين، ولكن لم يكن هناك أحدٌ أمام مكتب البريد، وقد بدا معتما من الداخل. بدأت صفارات الإنذار الخاصة بالغارات الجوية بالانطلاق.

عبر ذلك الزقاق من الجهة الخلفية للمبنى، وجدتُ امرأة ترتدي زي قوات حفظ السلام. وقامت بتعديل شعرها المسرَّح على هيئة ذيل حصان تحت خوذتها، ثم نظرتْ إلى ساعتها. نقرتُ على ذراعها.

- «حسنا، ماذا لدينا هنا؟» قالت باللغة الإنجليزية.

- «هل أنتِ النسخة النسائية من سوبرمان؟» قالت مشيرة إلى البطانية التي أضعها على كتفي.

شعرتُ بالرهبة من لغتها وزيها الموحد، ولكني كنتُ أحتاج إليها كي ترسل المساعدة لبيتر، لذلك ركزتُ على الكلمات التي تعلمتُها في المدرسة ومن والدتي.

- «ستانفيلد»، قلتُ.

- «نعم، كيف... أنتِ آنا؟».

- «بيتر واقع في مأزق».

- «أين هو؟».

- «التشيتنيك»، قلتُ لها، ثم أضفتُ «الطريق الكبير».

- «هل أُصيب؟».

- «لا أدري».

Twitter: @ketab_n

- «اللعنة».

تحدثتْ عبر جهاز الاتصال اللاسلكي المربوط بأعلى ذراعها، حيث ذكرتْ سلسلة من الأرقام وشيئا آخر لم أستطع أن أفهمه. ثم التفتتْ إلي وقالت: «لا تقلقي، سوف يعتنون به. الآن دعينا نساعدك للصعود على متن هذه الطائرة».

في المطار، كانت قوات حفظ السلام تحرس كل المداخل. سلمتُها المغلف الذي أعطاني إياه بيتر.

- «هناك مال داخل المغلف»، قلتُ.

- «آمل ألا نحتاج إليه»، قالت محدقة في الحرس الموجود في المقدمة.

- «لا، ليس هو»، أضافت.

تبعتُها إلى البوابة التالية.

- «كلا»، قالت.

توجهنا بعد ذلك إلى البوابة الخلفية.

- «هنا ستسير الأمور»، قالت.

سحبت الرباط المطاطي من شعرها المعقود على شكل ذيل حصان، فانساب شعرها الأشقر متموجا حول كتفيها.

- «مهلا، أنت»، قالت.

نظر الحارس إليها مندهشا.

- «آه، أهلا يا شارون».

- «هل لك أن تسمح لي بالمرور؟ سنتأخر عن الرحلة».

- «من هذه الطفلة؟».

- «إنها..». ثم أعطته شيفرة مكونة من أحرف وأرقام. «كنتُ قد حدثتُك عنها، هل تذكر؟» أضافت.

Twitter: @ketab_n

كرَّر تلك الشيفرة خلفها، ثم بدت الحيرة على وجهه.

- «هل لديها إذن مرور؟» قال.

- «بالطبع يوجد لديها»، قالت ستانفيلد، ثم أضافت «ولكني مررتُ بلحظة كنتُ فيها مشتتة الذهن فتركتُ الأوراق بين أمتعتي. إذا سمحتَ لنا بالدخول أستطيع أن أحضرها وأُريك إياها».

- «حسنا..».

- «أنت الأفضل»، قالت.

تقدمتْ خطوة أخرى نحوه حتى أصبحت قريبة جدا منه. فأزاح حاجز المرور من خلال الماسح الضوئي وسمح لنا بالدخول.

- «أيها الأبله»، قالت بعد أن أصبحنا خارج مجال السمع بالنسبة له.

جثونا خلف مولد كهربائي حيث أعادت ربط شعرها. قبل الحرب، كان المطار في أوتوتشاتش مكانا ترفيهيا، وكنت أستطيع رؤية المكان الذي أضيفت فيه قطعة مدرَّج معبَّأة بالتراب لاستيعاب الطائرات الكبيرة. تأملتُ الطائرة، وهي عبارة عن ناقلة بضائع خضراء قصيرة وغليظة. لم يسبق لي أن ركبتُ طائرة من قبل، وقد كانت هذه الطائرة غليظة بشكل جعلها تبدو غير قادرة على الإقلاع. قام أحد الجنود الذين يرتدون الخوذات الزرقاء بفتح مزلاج المقصورة، وهو عبارة عن باب مجهَّز بسلَّم، ثم ترجَّل لكي يدخن سيجارة. شدَّتْ السيدة ستانفيلد على يدي، وبدأنا نركض عبر إسفلت مدرج المطار.

لم تكن الطائرة من الداخل تشبه الصورة التي كوَّنتُها في ذهني عنها؛ لم تكن هناك كراس، كانت هناك فقط مقاعد طويلة

Twitter: @ketab_n

وحبال شبكية خضراء مثبتة على الجدار من أجل التمسك بها، بالإضافة إلى أكوام هائلة من الصناديق. اصطحبتني السيدة ستانفيلد إلى مكان يقع خلف مجموعة من الصناديق الخشبية.

- «اجلسي هنا»، قالت.

- «هل سيكون بيتر بخير؟».

- «أرسلت له بعض الرجال. والآن إياكِ أن تصدري أي صوت آخر حتى نصبح في الجو».

- «ثم ماذا؟».

لكن كانت هناك أصواتٌ قرب الدرج، كان هناك آخرون من أصحاب الخوذات الزرقاء يصعدون إلى الطائرة، فسارعتْ إلى الوقوف، لكونها لم تكن تريد أن يراها أحد وهي تتحدث إلى الذخائر.

عندما أقلعت الطائرة شعرتُ بأن معدتي تتقلب وأذنيّ تكادان تنفجران، لكني بقيتُ مختبئة بلا حراك، أنظر إلى أمشاط الذخيرة الخاصة بالبنادق من خلال الصناديق المضلعة. في نهاية المطاف تخلصتُ من الشعور بالاضطراب، وبدأتُ أشعر بالملل بسبب الهدير الممل للمحرك، الأمر الذي جعلني أتجرأ على إدخال يدي من خلال فتحة في أحد الصناديق والإمساك بأحد مخازن الطلقات. أعدتُ ضبط قبضتي إلى أن تمكنتُ من إخراج يدي عبر الفتحة وأنا أمسك بمشط الذخيرة، ثم بدأتُ بتحميل الطلقات فيه وتفريغها دون تفكير. وقد أدت هذه الحركة المتكررة إلى تهدئة معدتي وأعصابي.

- «ما هذا الصوت؟» سمعتُ أحدهم يقول، فتجمدتُ في مكاني.

Twitter: @ketab_n

- «أي صوت؟» قالت ستانفيلد.

- «يبدو كما لو أنه..». كان الصوت أقرب إلي الآن.

- «اللعنة!».

نظـرتُ إلى صاحـب الخوذة الزرقـاء بهلع، فحـدَّق إليّ بهلـع مماثل.

- «الأمور على ما يُرام. لديها تصريح بذلك»، قالت ستانفيلد.

- «تعالي إلى هنا يا آنا. تعالي اجلسـي بجانبي»، أضافت. ثم أخرجـتْ جواز سـفري من المغلـف وقالت «أترون؟ لديها تأشـيرة أمريكية».

حدق بها أفراد قوات حفظ السلام الآخرون. جلستُ بجانبها، ثم عدتُ إلى ممارسة تحميل وتفريغ الطلقات.

- «مـع ذلـك، أنا على ثقة من أنكم جميعـا تملكون ما يكفي من رجاحة العقل كي لا... آنا! ماذا تفعلين؟».

- «إنها سريعة»، قال أحد أصحاب الخوذات الزرقاء.

- «أين تعلمتِ كيفية القيام بذلك؟».

- «أعرف وحسب»، قلت.

قامـت بتعديـل وضع خوذتهـا، وأرخت الرباط المشـدود حول عنقها.

- «أنا على ثقة من أنكم جميعا تملكون ما يكفي من رجاحة العقل كي لا تتفوهوا بأي كلمة عن هذا الموضوع. وذلك من أجل الشـكليات. بالطبـع أنتـم لا تريدون وضع جونسـن المسـكين في ورطة لفشله الذريع في استكمال إجراءات التدقيق الأمـني».

نظر الجميع إلى أحد أفراد ذوي الخوذات الزرقاء وهو جالس بين زملائه.

Twitter: @ketab_n

- «أنت حاريت في تلك القرية، أليس كذلك؟» قالت ستانفيلد.

- «قليلا».

بعد ذلك انتزعتُ مشط الذخيرة من يدي ووضعته في جيب الحمولـة الخـاص بها. لـم يتفوَّه أحد بـأي كلمة أخـرى إلى أن بدأتْ عجلات الهبوط تصدر صوت قعقعة رتيبة تحت أقدامنا.

Twitter: @ketab_n

IV
الأشجار تردِّدُ الصدى
(1)

- «هل أنت متأكدة من أن هذا هو المكان؟» قال لوقا.

تلمَّستُ حزام الأمان الذي كنتُ أرتديه ثم خلعتُه وخرجتُ من السيارة.

- «كانت أكياس الرمل هنا تماما. وكان لديهم شجرة في الجانب الآخر من الطريق»، قلتُ.

ترجَّل لوقا من السيارة أيضا، ووقف بجانبي.

- «كان والدي يقود السيارة، فجاء ذلك الشخص ذو الأسنان الفاسدة وأدخل رأسه من نافذة سيارتنا وكانت في حوزته بندقية»، أضفتُ، ثم وضعتُ يدي على رقبتي في نفس المكان الذي نهر به الجندي والدي ببندقيته.

- «حسنا».

- «كان ذلك خطئي، كما تعلم. أنا التي جعلتهم يتوقفون لتناول طعام الغداء. لو لم نفعل ذلك، لربما كنا تمكنّا من العودة قبل إقامة الحاجز».

- «كنتِ في العاشرة من عمرك. لم تجبري أي شخص على

Twitter: @ketab_n

القيام بأي شيء. وما من أحد كان يمكنه أن يعلم ما الذي سيحدث».

نظرتُ إلى الغابة، لكن الظلال الكثيفة جعلت رؤية أي شيء داخلها أمرا متعذرا.

- «لقد انتهى الأمر»، قال لوقا.

- «لا أشعر بأنه انتهى».

دخلنا في أجمة على جانب الطريق مليئة بالنباتات الكثيفة مثل عشبة الخنازير وحشيشة الأفعى ونبتة أخرى تشبه بهشية عيد الميلاد، حيث تسبَّبتْ بخدش كاحليّ. أما الأشجار الأكبر حجما، كالصنوبر العملاق والبلوط، فكانت تطغى على بقية الشجيرات. وقد عملت المظلة المتشكِّلة من تلك الأشجار على حجب معظم أشعة شمس الصيف، في حين كانت الأغصان السفلية مغطاة برذاذ بارد. وكانت تفوح من المكان رائحة الأرض والتحلُّل.

عندما كنتُ بعيدة عن هذا المكان كنتُ أشعر بالكراهية تجاهه، ولكن الآن حتى هذا الشعور بدأ يصبح ضبابيا. الكراهية لا تزال موجودة، ولكن كانت هناك مشاعر أخرى أيضا، مثل الإثارة والإحساس بما يشبه الدوار، بالإضافة إلى شعور غريب بالهدوء نظرا لكوني أصبحتُ قريبة من والدي مرة أخرى.

ازدادت الظلمة في الغابة، ثم بدأتْ تنقشع، ولكن عندما وصلنا إلى الفُرجة الخالية من الأشجار فإنها لم تكن تشبه الصورة التي احتفظتُ بها في ذهني عنها. كانت الأشجار غير تلك الأشجار، في حين كانت أرض الغابة مختلفة عن صورتها المحفورة في مخيلتي. أما الخضرة الغنّاء لأوراق الأشجار في

Twitter: @ketab_n

فصل الصيف فكانت أمرا محيِّرا بالنسبة لي. كان المكان ينبض بالحياة، ويتمتع بالجمال تقريبا.

في مقابل الفرجة لمحتُ جذع شجرة مقطوعا على نحو مستوٍ وأنيق، كان ذلك الدليل الوحيد على أن إنسانا مرَّ من هناك. تفحَّصتُ المنطقة بحثا عن آثار مجزرة، كأن يكون هناك تقعر أو ارتفاع في الأرض يوحي بأن عملية دفن قد جرتْ في المكان. لكن لم يكن هناك أي شيء. فقط تربة طينية داكنة تحتفظ بالرطوبة بسبب ظلال الأشجار.

- «لن أعثر عليهم أبدا».

مرَّرتُ أصابعي على طول الشجرة المنتصبة قربي، والتي كان لحاؤها الرمادي المليء بالأخاديد والشقوق بمثابة معرض تاريخي للعواصف التي تعرَّضت لها تلك الشجرة. كانت هناك خنفساء تسير مسرعة أسفل أحد الأخاديد الكائنة في الجذع، لكنها لم تلبث أن اختفت وسط التراب.

جلستُ القرفصاء ورحتُ أمشِّط الأرض بأصابعي بشكل جعل التراب يتراكم تحت أظفاري. كانت هناك بضع ثمار بلوط لا تزال خضراء لكونها سقطت عن الشجرة في وقت مبكر جدا، فأخذتُ واحدة ودفنتُها في الأخدود الذي حفرتْه أصابعي.

- «أين أنتم؟» صرختُ.

جفل سربٌ من طيور بسبب الضوضاء التي أحدثتُها، فانطلق من الغصن الذي كان يجثم عليه واتجه إلى خارج الغابة.

- «آنا؟».

كنتُ قد نسيتُ تقريبا بأن لوقا هناك، وعندما التفتُّ نحوه انتابني شعورٌ بأنه مضى على جلوسي في ذلك المكان وقتٌ أطول

Twitter: @ketab_n

بكثير مما كنت أتصور.

- «هل أنتِ بخير؟».

أصدرت ركبتاي صوت فرقعة عندما وقفتُ ومسحتُ يديّ بالشورت الذي كنتُ أرتديه.

- «أجل»، قلتُ له، ثم أضفتُ «أنا بخير».

عدنا إلى السيارة، وعندما وصلنا إلى الطريق السريع انعطفتُ عائدة باتجاه الطريق الصغير، ثم سلكتُ الطريق الحجري نحو أسفل الوادي.

لم تعد تلك القرية قرية، فكل الأشياء التي جعلتْها تستحق هذا اللقب في السابق بما في ذلك السكان قد هجرتها منذ زمن طويل. كانت معظم المباني قد تحولت إلى ركام وألواح خرسانية مهدَّمة. أما المباني القليلة التي كانت لا تزال واقفة فكانت تبدو غريبة على المكان؛ فالنوافذ، التي انهار كل الزجاج الذي كان يغطيها، لم يتم إغلاقها بألواح خشبية، ما ترك تجاويف غائرة في الأماكن التي كانت توجد فيها تلك النوافذ.

تركنا السيارة في منتصف الطريق، وواصلنا التقدم في الشارع الرئيسي سيرا على الأقدام. حاولتُ أن أتعرف على منزل درينكا ودامير، ولكن كان من الصعب تحديد أين كان ينتهي منزلٌ ما ويبدأ المنزل الذي يليه.

- «انتبهي»، قال لوقا، ثم أضاف «هل تعتقدين أنه يوجد هناك أجراس عيد ميلاد (أي قنابل عنقودية)؟».

تذكرتُ دجاجات درينكا التي نفقت في ذلك الانفجار، فتجمَّدتُ في مكاني.

- «نعم، كان يوجد».

Twitter: @ketab_n

- «يقولـون إنهم سـيحتاجون إلى عشـرين عاما أخرى حتى يتمكنوا من إزالة كل القنابل والألغام».

فـي الشـارع كان يمكننـي أن أرى مبنى حجريـا كبيرا مطليا باللون الأسود. وفي حال كنتُ في المكان الصحيح فإن هذا المبنى هو على الأرجح مبنى المدرسة، لكنني لم أكن أتذكر بأن لونه كان قاتما بهذا الشكل.

- «امشِ بهذا الشـكل»، قلتُ للوقـا، وأنا أرفع قدميّ إلى أعلى مسـتوى أثنـاء توجهنـا نحو المدرسـة. ثم أضفتُ «هـذا يمنحك المزيد من الوقت كي تنظر قبل أن تضع قدمك على الأرض».

عندمـا أصبحنـا علـى مسـافة قريبة بمـا فيه الكفايـة، كان يمكننـي أن أرى أن المبنى لم يكـن مطليا على الإطلاق؛ فقد كان أسـود اللون بسـبب السُّـخام، حيث كان زجاج النوافذ مدمرا أما مصاريعها فكانت محروقة.

- «هـذا مقـر التشـيتنيك»، قلتُ، ثـم أضفت «لقـد اغتصبوا الكثير من النساء هنا».

وضـع لوقـا يديـه فـي جيوبه، وقـد بـدا واضحا بأنه يشـعر بالغثيان.

- «كنتُ صغيرة جدا»، قلتُ. «وكان يوجد لدي بندقية»، أضفتُ.

لا بـد أن المقـر الخـاص بنـا كان مقابل الدوّار. ولكن الشـيء الـذي كان موجـودا هناك كان أقرب شـبها إلى سـطح القمر منه إلـى المنزل الآمـن، إذ كانت الأرض هناك عبارة عـن حفرة مليئة بالكتل الإسـمنتية المتكسـرة. في البداية أطلقتُ العنان لخيالي وقلـتُ لنفسـي إن مقاتلي المنـزل الآمن ربما هـم الذين أضرموا النـار فـي مبنى المدرسـة، وبذلك يكون المقاتلون التشـيتنيك قد

Twitter: @ketab_n

نالـوا ما يسـتحقون. وربمـا انتصر أبنـاء القريـة، أو هربوا على الأقـل. ولكن الآن، بعد أن حدَّقتُ في تلك الأرض الغائرة، علمتُ بـأن هذا لا يمكن أن يكـون صحيحا. التفتُّ نحو المبنى المحترق. على الجدار البعيد كان يوجد لوحٌ خشـبي غير محترق، وقد برز من بين الأعشاب النامية حوله.

- «ما هذا؟» قلتُ.

مـدّ لوقـا يده وقـام بإزاحة النبات المعرِّش ليكشـف عن لافتة مكتوبة بخطّ متعرِّج:

فـي ذكـرى جيراننا، الذيـن أُحرقوا وهم على قيـد الحياة من قبل

القـوات الصربيـة شـبه العسـكرية خـلال حـرب الاسـتقلال الكرواتية

مارس 1992. العدد 79 شخصا

- «يا إلهي»، قال لوقا.

قمـتُ بإزاحـة بقيـة الأعشـاب وتنظيف الرمـاد المتحرك عن اللوحـة إلى أن اسـودَّتْ يداي من السُّـخَام. وكان تصميم اللوحة غير مستو، كما لو أن ذلك تمَّ باليد.

- «تسعة وسبعون شخصا».

- «هل أنتِ متأكدة من أن هذه هي البلدة؟» قال.

- «نعم»، قلت.

كنـتُ متأكـدة تمامـا. المقبـرة لا يمكـن اكتشـافها، والقريـة مدمرة. كان هذا أكبر انتصار حققوه. نظرتُ نحو ما كان يُفترض أن يكون حقول القمح.

- «إذا كانت هي بالفعل، فإني قتلتُ رجلا في ذلك الحقل».

Twitter: @ketab_n

بدأتُ بالتوجه إلى هناك قبل أن أدرك ما الذي كنتُ أفعله.

- «اللعنة يا آنا، احذري الألغام!» قال لوقا.

بيد أنني لم أتوقف. وإذا كانت القرية مدمَّرة بشكل يجعل التعرف عليها أمرا صعبا، فإن الحقل كان أسوأ حالا، إذ لم يكن هناك أي أثر للقمح أو أية محاصيل أخرى، بل كان مجرد أرض منبسطة مليئة بالأعشاب البرية. وكان عدم وجود أدلة مؤيدة كافيا تقريبا لإقناع أي شخص بأنني كنتُ مجنونة، أو أنني لفقتُ كل تلك الأشياء، أو على الأقل أن الأمور لم تحدث بالطريقة التي قلتُ إنها حدثتْ بها.

عندما وصلتُ إلى وسط الحقل أبطأتُ سرعتي فلحق بي لوقا.

- «احذري. هل تريدين أن ينفجر بك أحد الألغام؟».

- «لقد قتلتُ شخصا هنا» قلتُ، ثم أضفتُ «أقصد أني أعتقد بأنني قتلتُ شخصا».

حكيتُ له عن الرجل الذي التقيتُه في الحقل، وكيف حدَّقنا في بعضنا قبل أن أطلق النار عليه.

- «ربما لم يمت».

- «لوقا، لقد قتلتُ رجلا. وربما أكثر من واحد؛ من يدري ماذا حدث عندما كنتُ أطلق النار من النافذة. ربما تمكنتُ من إصابةِ شخص آخر».

- «كنت تدافعين عن نفسك».

- «لستُ أفضل من أي واحد منهم».

- «كنتِ طفلة صغيرة. لم تكوني مدركة حتى لما تقومين به».

- «لا، هنا بيت القصيد. عندما كنتُ أطلق النار وأصبتُ ذلك

Twitter: @ketab_n

الرجل راق لي الأمر. كنت أعلم أن ذلك سيئ، لكني أحببته. ولم أشعر بالأسف».

سمح لي لوقا بالوقوف هناك إلى أن بدأت الشمس بالغروب.

- «سيحل الظلام قريبا».

- «أعلم».

- «هناك ألغام وأشياء أخرى».

- «أعلم».

- «هيا».

عدنا إلى السيارة وأنا أحدق في الأرض. رميتُ المفاتيح نحو لوقا، أصدر المحرك صوت طقطقة، ثم اشتغل، وقام لوقا بتعديل صمام الاختناق.

- «من برأيك قام بوضع تلك اللوحة؟» قلتُ.

- «قد تكون كنيسة من بلدة مجاورة، أو إحدى المنظمات غير الحكومية. جميع المشاريع حاليا مهتمة بالإحصائيات. يطلقون على ذلك اسم سفر الموتى. إنهم يريدون وضع قائمة يذكرون فيها جميع الذين ماتوا بالاسم».

- «والداي».

- «لقد قام والدي بالإبلاغ عن اسميهما».

- «شكرا لك»، قلت.

- «إذا كانت تلك حقا هي البقعة التي.. والداك، فعلينا أن نبلِّغ عنها أيضا. يوجد لديهم كلاب أو آلات تعمل بالأشعة السينية أو وسائل أخرى للعثور على المقابر».

أخرجتُ الخريطة، ووضعتُ علامة على تلك البقعة.

- «أنت لستِ قاتلة»، قال لوقا، وحاولتُ أن أصدقه.

Twitter: @ketab_n

عندمـا توجَّهنـا نحو الجنـوب، بـدأت تظهر لوحـات إعلانية تحمـل وجها مألوفـا، وكلما اجتزنا مسـافة أكبـر، كان عدد تلك اللوحـات يتزايد بشـكل مطَّرد؛ وقد اسـتغرقتُ وقتا حتى أدركتُ أن ذلك الوجه يعود للجنرال جوتوفينا. ولكن بدلا من الشعارات الوطنيـة التـي كانـت منتشـرة عندما كنـتُ صغيـرة، كانت تلك الملصقات تحمل عبارة: بطل وليس مجرما.

- «ما هذا؟» قلتُ عندما مررنا بلوحة أخرى.

- «جزء من محادثات الدخول في الاتحاد الأوروبي. كي يُنظر في أمر عضويتنا علينا أن نقوم بأشـياء لا حصر لها حتى نثبت أننا ملتزمون بالسـلام. وقد تعيَّن على رجال الشرطة أن يسلِّموا أسلحتهم. وعلينا أن نتخلى عن مجرمي الحرب لدينا».

- «وهل يوجد لدينا مجرمو حرب؟».

- «هكذا يقولون».

- «ومن يقول ذلك؟ وماذا عن التشيتنيك؟».

- «الأمم المتحدة»، قال لوقا، ثم أضاف «كما أنه لا يُفترض بنا أن نقول تشيتنيك الآن. فهذا فيه إهانة».

- «هم كانوا يطلقون على أنفسهم تشيتنيك. وكانوا ينشدون تلك الأغاني الفظيعة».

- «وشـعار (مـن أجـل الوطن مسـتعدون) كان شـعارا فاشـيا بالدرجـة الأولى»، قال لوقا، ثم أضاف «جنودنا قتلوا الصرب في كرايينـا، كما قام مسـلمو البوسـنة بقتل الصرب فـي بانيا لوقا، وكان الجيشـان البوسـني والكرواتي يقاتـل بعضهما بعضا أيضا قبل أن نوحِّد قواتنا ..».

- «لكن الأمم المتحدة»، قلتُ، ثم أضفتُ «يجب أن تتحدث عن

Twitter: @ketab_n

الأمر. فقد كان التشيتنيك الجهة التي اغتصبت أكبر عدد من النساء. لقد قاموا بتصوير سربرنيتشا بالفيديو. ثمانية آلاف شخص في تلك المقبرة، في تلك المنطقة الآمنة السخيفة التي كانت تحت سيطرة الأمم المتحدة ذاتها. حتى وسائل الإعلام الأميركية تداولت تلك القصة».

كنتُ قد اقتطعتُ ذلك المقال من الجريدة واحتفظتُ به في غرفتي في غاردنفيل.

- «أعلم ذلك»، قال لوقا.

كنتُ أريده أن يشعر بالغضب أيضا، ولكن كنت أعلم في نهاية المطاف أن إدانة طرف لا تثبت براءة الطرف الآخر.

واصلتُ قيادة السيارة حتى بعد حلول الليل، متحملة عناء الرطوبة المالحة كلما تقدمتُ نحو البحر. كان لوقا نائما، ولم أرَ مدينة منذ وقت طويل. في الجهة المقابلة من الطريق مررنا بكوخ رُسمت على واجهته عبارة (بار للجنس) بلون وردي متألق.

- «هيه، استيقظ. أين سنتوقف؟».

- «قريبا».

تثاءب لوقا ثم جلس. وبعد قليل أشار إلى مخرج بدا أشبه بطريق مسدود.

- «ذلك هو. انتظري».

قام لوقا بدفع ذراع نقل السرعات إلى وضعية الوقوف.

- «يا إلهي، سوف تجعلها تفقد السرعة».

- «في كل الأحوال جهاز نقل الحركة سيتباطأ بعد الرقم الذي نقلتِ عليه».

أومأ لي لوقا كي نتبادل الأماكن، فصعد من فوق لوحة

Twitter: @ketab_n

المفاتيح الموجودة في المنتصف. وفي اللحظة التي تشابكتْ فيها أيدينا وأرجلنا اندفعتُ من فوقه نحو المقعد المجاور للسائق. قام بانعطافة قاسية نحو اليسار وسار على طريق ساحلي غير معبَّد. لم يكن هناك العديد من الشواطئ الخاصة في كرواتيا، ولكن بالقرب من أرصفة السفن ظهرَ سياجٌ تعلوه أسلاك شائكة. في الماء، كانت القوارب المزودة بالكهرباء وبسلالم حلزونية تتمايل وتصدر صوت طنين.

- «لن نقوم بالتطفل على أي يخت»، قلت.

- «لن نقوم بالتطفل. تستطيعين القول إننا مدعوون».

توقفنا عند مقر محصِّل الضرائب حيث قام رجل يرتدي زي شرطة مزيَّف بفتح نافذة من الزجاج الأكريليكي.

- «مرحبا بكم في مارينا سولاريس لليخوت. الاسم وكلمة السر؟» قال مجهِّزا لوحا مشبكيا.

- «مرحبا يا سيدي»، قال لوقا بلغة رسمية. ثم أضاف «نحن أصدقاء دانييلا بابيتش ومن المفترض أن نلتقيها في قاربها».

وجَّه الحارس مصباحه الكاشف نحو السيارة، ثم راح يقلِّبُ مرة أخرى في القائمة الموجودة لديه.

- «لم تصل إلى هنا حتى الآن. ولا يمكنني أن أسمح لك بالدخول دون إذن صريح من المالك».

قلتُ لنفسي إن الأمور متعثرة ولن تسير بهذا الشكل، لكن لوقا بقي رابط الجأش.

- «قالت إنها قد تتأخر. أنا أعرف كلمة السر».

- «وما هي؟».

- «Absolut»، قال لوقا، ثم أضاف وهو ينظر إلي أكثر مما

Twitter: @ketab_n

كان ينظر إلى الحرس «هذا اسم كلبها».

- «وهل أطلقت على كلبها اسم فودكا؟» قلتُ، لكن لوقا أومأ لي بالتزام الصمت.

- «وهذا هو المفتاح»، قال لوقا، رافعا مفتاح منزله أمام المصباح الكاشف للحارس.

أما الحارس، الذي بدا الآن شخصا مرتبكا أكثر منه آمرا ناهيا، فراح يؤشر على المربعات الكائنة على الورقة الموجودة بين يديه.

- «وقِّع هنا».

مرَّرَ اللوح المشبكي إلى لوقا. خربش لوقا توقيعا غير مقروء، إذ كان خطه دائما رديئا، ثم أعاده له من خلال النافذة.

- «نأمل أن تستمتعوا بإقامتكم في سولاريس»، قال الحارس بنبرة تنمُّ عن أنه كان شبه مهزوم. ثم ضغط زر فتح البوابة، ودخلنا من خلالها.

- «مذهل، أليس كذلك؟» قال لوقا.

- «عائلتها تكون دائما في إيطاليا هذا الوقت من العام»، أضاف.

- «لا أستطيع أن أصدق أنها أطلقت على كلبها اسم فودكا».

- «أووه هيّا. ما مشكلتك معها؟».

- «أنا فقط..». لكن لم يكن بوسعي التفكير في سبب لأكرهها باستثناء تلك الطريقة المزعجة التي كانت تلمس بها ذراع لوقا عندما كانت تتحدث معه، لذلك لم أنه الفكرة.

توقفنا داخل المنتجع وأخرجنا البطانيات من صندوق السيارة. سرنا على ممر مرصوف بحجارة قرميدية ومررنا

Twitter: @ketab_n

بمطعم مجهَّز بثريا من الكريستال وخمور فاخرة مصفوفة على بار مزود بمرايا، وكوخ مغطى بألواح من الخشب كُتب عليه اسم ساونا. في الجهة المقابلة كانت اليخوت والقوارب تتمايل بجوار الحوض. وكانت النوافذ مضاءة في بعض منها، ولكن معظمها كان عبارة عن ظلال داكنة فوق المياه السوداء.

- «من أين حصلت أسرة دانييلا على أموالها؟» قلتُ.

- «كانوا يملكون الكثير من العقارات الواقعة على الواجهة البحرية ثم قاموا ببيعها لبعض المستثمرين المصرفيين الألمان الذين بنوا فندقا عليها».

- «أي من تلك القوارب قاربها؟».

- «لا أدري».

- «إذن أين سننام؟».

- «هنا».

وصلنا إلى سياج من الحديد المطاوع الأسود حيث كان يوجد في داخله حوض سباحة ومجموعة من الكراسي البلاستيكية الخاصة للاستلقاء، لكن البوابة كانت مقفلة. أدخل لوقا إحدى قدميه بين الأوتاد مستندا على العارضة السفلية ثم قفز من فوق السياج بمنتهى السهولة. بعد ذلك ناولتُه بطانيتي وحذوتُ حذوه.

فرشنا المكان لننام على الكراسي. استلقيتُ على ظهري لأنظر إلى السماء، كانت سوداء ومزدانة بالنجوم بشكل يفوق ما رأيتُه خلال سنوات، بل كان عددها يفوق ما كنت أستطيع رؤيته من الحقل الخلفي في غاردنفيل.

- «واو»، قلتُ وأنا أتنهَّد.

Twitter: @ketab_n

- «هذه من مزايا الذهاب إلى مكان ناء».

- «نيويورك ليست مناسبة للتحديق في النجوم».

- «ولا حتى زغرب».

- «لا أظن ذلك».

تذكرتُ الليالي التي كنا نمضيها أنا ولوقا على شرفة شقتي، حيث كنا نبحث بلا كلل ولا ملل عن كوكبة الجوزاء، التي كنا نعتبرها أفضل مجموعة نجوم موجودة في السماء لأنه يوجد فيها شكل سيف. أما الآن فقد بدا أننا كنا على الأرجح ننظر إلى الطائرات أو الأقمار الصناعية الروسية.

لم يقل لوقا أي شيء لفترة من الوقت، فظننتُ أنه خلد إلى النوم. أغمضتُ عينيّ وحاولت النوم أيضا، ولكنني كنتُ متوترة، فصور الغابة ودخولنا إلى هذا المكان بالحيلة ودانييلا كلها كانت تدور في رأسي.

- «طابتْ ليلتُك»، قلت.

- «أود أن أقبِّلك»، بادرني لوقا بالقول.

- «ماذا؟».

التفتُّ لأنظر في وجهه لكني لم أستطع أن أرى سوى إطار جسده في الظلام.

- «لن أفعل ذلك»، قال، ثم أضاف «فهذه ليست فكرة جيدة. ولكني أعتقد أنه يجب أن تعلمي بأني أودّ أن أقبلك».

- «لماذا؟».

- «حسنا، أنتِ جذابة ونحن ننام معا في العراء تحت النجوم..».

- «أقصد»، قلتُ وأنا أحمد الله لأن الظلام غطّى شعوري

Twitter: @ketab_n

بالخجل، «لماذا هي فكرة سيئة؟».

- «لأنني بذلك أخرِّب العلاقات. فأنتِ عائدة إلى وطنك في نهاية الصيف».

تذكَّرتُ برايان وتساءلتُ ما إذا كان قد أرسل لي رسالة بالبريد الإلكتروني.

- «أنا من يخرب العلاقات»، قلتُ، ثم أضفتُ «لقد انفصلتُ عن صديقي الأخير لأنه كان لطيفا للغاية».

فكرتُ ما الذي يمكن أن يعنيه وجودي مع لوقا، وما إذا كنتُ فعلا أريد هذا الشيء. وهل الحسد الذي كنتُ أشعر به كلما ذُكِرتْ دانييلا دليلٌ على أني أكنُّ له مشاعر الحب، أم أن ذلك كان مجرد حنين إلى الماضي، إلى الوقت الذي كنا فيه صغارا وكان لكلّ منا عالمه الكامل؟

لم أتحدث كثيرا عن خططي لما بعد فصل الصيف، وفي اللحظات التي كنتُ أستسلم فيها للمزاجية والتقلب، كنت أفكِّر في البقاء، إذ أستطيع الانتقال إلى جامعة زغرب، وأعمل في تعليم اللغة الإنجليزية بعد ذلك. لكن في أعماقي كنتُ أعلم بأنني سأعود إلى الولايات المتحدة كي أنهي دراستي وأعود إلى عائلتي. تركتُ ذلك السؤال معلَّقا دون رد، واستلقينا دون حركة، وكل واحد منا يشعر بالارتياح إزاء صمت الآخر مثلما كنا دائما.

- «وعلاوة على ذلك»، قال لوقا في نهاية المطاف، كما لو أنه كان لا يزال يقلِّب في ذهنه إيجابيات وسلبيات علاقتنا المحتملة. ثم أضاف «أنتِ تعرفين الكثير».

لكنني لم أستطع منع نفسي من التفكير، وأنا أتراوح بين اليقظة والنوم، بأن هذا الأمر ربما لم يكن على هذه الدرجة من السوء.

Twitter: @ketab_n

صحوتُ بعد بضع ساعات. كان الظلام لا يزال مخيما في حين كانت قدماي مخدرتين من البرد. في إحدى المرات عندما كنتُ في نيويورك تسرَّب الماء إلى حذائي الخاص بالسير على الثلوج وتجمَّد بين أصابع قدمي، ولكنني حتى الآن لا أتذكر أنه مرَّ عليَّ وقتٌ شعرتُ فيه بهذا اليأس من شدة البرد. كنتُ أرتجف والقشعريرة تسري في شتى أنحاء جسدي، ففتحتُ بنطلون الجينز الذي كنتُ أستخدمه كوسادة وارتديتُه فوق الشورت.

- «لوقا»، همستُ له، ثم أضفتُ «البرد شديدٌ جدا».

تحرَّك لوقا، وتمنيتُ لو أنه يستيقظ، لكنه بدلا من ذلك تمتم بكلمة اعتقدتُ جازمة أنها «جوارب» ثم تقلَّبَ في فراشه وأدار ظهره. بدت أفكاري بطيئة، وأطرافي مثقلة. فسحبتُ كرسيّي إلى أن أصبح قريبا من كرسيّه.

Twitter: @ketab_n

(2)

بعد ساعات شعرتُ بأشعة الشمس على وجهي، حيث كانت في البداية لطيفة، ثم أصبحتْ حارّة ومزعجة. خطر في ذهني أننا متنا. ثم أحسَستُ بألم حادّ في كامل ساقي. جلستُ، وأنا أحجبُ عينيّ من ضوء الصباح، فرأيت هيكل ذلك الرجل بزيه الشرطي المزيف، والذي كان في هذا الوقت يضرب لوقا بهراوته ويتلفظ بالشتائم.

- «أيها المنبوذون!» صاح، وهو يكيل لنا الإهانات التي طالت حتى أمهاتنا. ثم أضاف «لقد خدعتُماني! اخرجا من هنا هيا!».

- «لا يمكننا السير وأنت تهوي بهراوتك على أرجلنا!».

توقّف للحظة، كما لو أنه كان يفكر في ما قلتُه له، فانطلقنا، لوقا وأنا، وقفزنا فوق السياج، في حين كانت بطانياتنا البرتقالية تجرجر وراءنا.

اندفعنا بين الأعشاب البحرية الكثيفة نحو الشاطئ العام. كانت عذوبة الهواء تخالطها ملوحةٌ، وهذا كان ناجما عن اختلاط مياه البحر بالصنوبر، والذي كان يشير في طفولتي إلى بداية العطلة الصيفية. كان لا يزال الوقت مبكرا، وهناك عددٌ قليل من الناس على الشاطئ. انزلق صندلي من قدميّ

Twitter: @ketab_n

فشعرتُ بألم مبرِّح بسبب الحصى المدببة الصغيرة.

- «يا إلهي»، قلتُ، وأنا أقفز عائدة نحو حذائي. «إنها حادة جدا»، أضفتُ.

كنتُ قد اعتدتُ على الشاطئ الرملي في جنوب جيرسي، علما أنه كان أقل روعة من هذا الشاطئ.

- «نعم، سيتعين عليكِ الاهتمام بندويك».

عند حافة المياه وضع لوقا بطانيته وبنطلونه وركض في البحر.

- «إنها دافئة!» صاح، ثم غاص تحت السطح.

خلعتُ ملابسي وبقيتُ بالملابس الداخلية، وبعد ذلك على الفور شعرتُ بالحرج. كنتُ قد تأملتُ جسد لوقا وهو عاري الصدر عندما كنا في زغرب. لذلك كان من الطبيعي أن يقوم هو بتأمل جسدي بعد أن كبرتُ وأصبح لي وركان وثديان. كنت أريده أن يُعجب بما يرى. نظرتُ إلى فخذيّ، ثم قمتُ بتعديل حمالة الصدرية. تمنيتُ لو كانت لدي منشفة. لكن ما من شيء كان يمكن القيام به في هذا الخصوص. فكرتُ، ثم ركضتُ برعونة داخل البحر إلى أن أصبحتُ على عمق كاف للسباحة، حيث كنتُ أتوق لتغطية نفسي ورفع قدميّ اللتين تؤلمانني عن الصخور.

لا أتذكر أن مياه البحر في الماضي كانت هادئة بهذا الشكل، فهي لا تشبه أبدا تلك المياه الهائجة التي كانت تحتِّم خوض معارك متواصلة ضد المد والتيار المعاكس اللذين كانا يحدثان أثناء السباحة في المحيط. وعندما نظرتُ إلى الأسفل، دُهشتُ لرؤية ساقيّ، اللتين لم تحجبهما الرواسب الدوَّامية في منتصف المحيط الأطلسي. أرجعتُ رأسي الى الوراء واستسلمتُ للإيقاع

Twitter: @ketab_n

المتمايل لأشباه الأمواج. وفي اللحظة التي بدأتُ أتساءل فيها ما إذا كان يمكن للمرء أن ينام بهذه الطريقة، أمسك شيء زلقٌ وقوي بكاحلي وسحبني نحو الأسفل. فظللتُ أصرخ وأركل إلى أن تمكنتُ من الإفلات من ذلك الشيء. حينذاك ظهر لوقا بجانبي وقد سيطرتْ عليه نوبة ضحك.

- «يا إلهي، أنت شرير»، قلت.

وبينما كنا نراوح مكاننا في الماء لامست أرجلنا بعضها.

- «هيا بنا، من الأفضل أن نذهب إذا كنّا نريد الوصول إلى تيسكا قبل حلول الظلام»، قال لوقا وهو يمرر يده داخل شعره.

قفزنا فوق السياج مرة أخرى ودخلنا سولاريس لكي نستعيد السيارة. جلسنا على غطاء المحرك والتهمنا نصف كيس من خليط الحبوب والفواكه وعلبة من الحليب المعقم، وبعد ذلك غيَّرتُ ملابسي في المقعد الخلفي. رفع لنا الحارس إصبعه الوسطى عندما اجتزنا المخرج بسرعة، وعدنا إلى الطريق الرئيسي.

تولى لوقا قيادة السيارة في حين استلقيتُ في المقعد الخلفي أتصفح الجزء الأخير من رحلة ريبيكا ويست وأنظر من النافذة. ومع تقدمنا في الطريق كانت الجبال تطغى أكثر وأكثر على المشهد، حيث كان الغطاء النباتي في المرتفعات يابسا ما جعلها تكتسب لونا أسمر ضاربا إلى الصفرة، وهو ما أضفى على التلال لونا ذهبيا تقريبا.

كان لوقا يحاول أن يحسب كم من الوقت يحتاج المرء لنسيان الحرب.

- «ربما نحن في طريقنا إلى ذلك»، قلتُ. «فالأطفال الذين

Twitter: @ketab_n

وُلدوا في السنوات الخمس أو الست الأخيرة وُلدوا خارج زمن الحرب. إنهم أطفال ما بعد الحرب»، أضفتُ.

- «الجميع لا يزال يتحدث عنها»، قال لوقا.

- «هنا ربما. ولكن الحديث عنها ليس مثل العيش في خضمِّها».

- «ليس من الضروري أن تجرِّبي الشيء حتى تتذكريه. فأنت سيكون لديك أطفال يوما ما، وهؤلاء الأطفال في نهاية المطاف سيطالبون بمعرفة مصير فئة من أجدادهم».

- «وأنا سأقول لهم إنهم ماتوا».

- «يجب أن تقولي لهم الحقيقة».

- «هذه هي الحقيقة. لقد ماتوا».

- «القصة الكاملة. يجب أن تخبري راهيلا أيضا. فهي تستحق أن تعرف».

- «أعلم ذلك»، قلتُ.

أفلتُّ الكتاب من يديّ فنزل في حضني مغلقا. نظرتُ إلى الخارج نحو الجبال المذهَّبة وفكرتُ في قرون من الحروب والأخطاء التي اجتمعتْ في هذا المكان. التاريخ لم يُدفن هنا. بل كانت عملية نبشه لا تزال جارية.

- «ما تلك القباحة التي تقرئينها؟».

أخبرتُه عن ريبيكا ويست وعن رحلتها في أرجاء يوغوسلافيا.

- «القرف نفسه، إنما حرب مختلفة».

- «بعض الناس يقولون إن شبه جزيرة البلقان عنيفة بالفطرة، وإنه يتعين علينا خوض حرب كل خمسين عاما».

- «آمل ألا يكون هذا صحيحا»، قال.

Twitter: @ketab_n

(3)

وصلنـا عند أطراف تيسـكا بعد بضع سـاعات. وكانت تيسـكا دائما تُعتبر منطقة ريفية نائية حتى وفق المعايير اليوغوسلافية، فالكهربـاء كانـت تأتـي بشـكل متقطـع، في حين كانـت خطوط الهاتـف والبـث التلفزيونـي قليلة جـدا، ومعظم المنـازل لم تكن مجهَّـزة بسـخانات للمياه، وكانت تبعد مسـافة خمس وعشـرين دقيقة بالسـيارة عن أقرب مدينة حقيقية. ولكن ما كان ينقصها من وسائل الراحة كان يتم التعويض عنه من خلال الهواء النقي والشـمس الدافئة ووقوعها على جرف صخري مطل على البحر الأدرياتيكي.

وأنـا طفلـة كنـتُ أنظـر إلـى عطلـة الصيـف علـى أنهـا من البدَهيـات، فقـد كان الاسـتمتاع بعطلـة لمـدة شـهر مـن الأمور المتعـارف عليهـا فـي جميـع أنحاء البـلاد، كما أن جميـع الذين كنـتُ أعرفهم تقريبا كانـوا يمضون إجازاتهم على السـاحل. أما الآن فقد خطر في ذهني كم سـيبدو جنونيا أخذ إجازة لمدة شهر بالنسبة للأميركيين. إذ كان جاك بالكاد يستطيع الحصول على إجـازة لمـدة أسـبوع من شـركة استشـارات الكمبيوتـر التي يعمل فيهـا، وحتى في حالٍ حصل على تلـك الإجازة، فقد كانت تؤرِّقه باستمرار مراسلات واتصالات العملاء المتطلِّبين.

كنتُ أتناقش مع لوقا حول ما إذا كانت العملة الموحَّدة للاتحاد الأوروبي أمرا مجديا من الناحية الاقتصادية أم لا، ولكن مشهد المياه الزمردية الذي تبدّى فجأة جعلني أتوقف عن الكلام، ولذلك تركنا ذلك الحديث جانبا. شيءٌ جديد بدأ يتفتح في داخلي، شعورٌ مختلفٌ عن القلق الذي انتابني خلال معظم الرحلة؛ إنه الحنين إلى طفولتي، دون المرور بالآلام التي عكّرت صفوها. لقد تعلمت السباحة في هذا البحر، كما تعلمتُ قيادة الزورق الضخم لجيراننا، والقفز من حواف الصخور دون أن أجرح قدميّ، وتعلّمتُ أيضا كيف أصطاد السمك وأنزع أحشاءه وأشويه. وأثناء الليل كنت أتسلل إلى ذلك الشاطئ المعتم لأتحدث، بخليط من الإنجليزية الركيكة ولغة الإشارة مع الأطفال الإيطاليين والتشيك الذين جاؤوا برفقة عائلاتهم لقضاء عطلة غير مكلفة.

- «آمل أنه لا يزال هناك»، قلتُ بصوت غير مسموع، كما لو أنني كنتُ أقول تعويذة.

أنزلنا النوافذ وتركنا الهواء المختلط بملوحة البحر يملأ السيارة.

على ذلك الشاطئ المهجور، كانت الأمواج ترتطم بسقف شاحنة حمراء اللون، كانت مقلوبة وصدئة. لا بد أن السائق كان يسير بسرعة كبيرة على الطريق العلوي ولم يتمكن من الانعطاف. ولَعي بهذا المكان طغى عليه مرة أخرى الشعور بالضيق والتركيز على الهدف الذي جئتُ من أجله. فإما أن بيتر ومارينا كانا لا يزالان هنا وإما أنهما توفيا، وكنت على وشك أن أكتشف الحقيقة.

Twitter: @ketab_n

عند نقطة معينة تحوَّل الطريق إلى ممر للمشاة علما أنه لم تكن هناك لافتةٌ تنذر بذلك. وهذا الطريق، الذي لم يكن في أحسن الأحوال يتسع لأكثر من سيارة واحدة، كان يفتقر إلى وجود حاجز للحماية على جانبيه، وكانت تحده من إحدى الجهات الصخور التي لا ترحم لجبال الألب الدينارية، أما من الجهة الأخرى فكان هناك البحر الأدرياتيكي. وفي حال غامر السائق في التقدم أكثر مما ينبغي، فإنه قد يضطر للقيام بكامل رحلة العودة إلى أعلى الجبل وهو يقود السيارة إلى الخلف. أوقفتُ السيارة على بقعة ترابية قبل أن يضيق الطريق تماما. كانت تلك البقعة في الماضي موقفا مزدحما بالسيارات، ولكن الآن كانت هناك سيارتان أخريان فقط، وكانتا قديمتين لدرجة أنه من الصعب معرفة ما إذا كانتا مهجورتين. حملنا حقائبنا واتجهنا نحو القرية يرافقنا نسيمٌ محملٌ بالرطوبة والحرارة.

في البداية لم يكن واضحا ما إذا كان المكان مدمَّرا بفعل القصف أم أنه متهالك وحسب. على الرغم من أنني أقمتُ في هذا المكان لعدة أشهر متواصلة، وجدتُ أنه من الصعب التصديق بأن الناس عاشوا حياتهم كلها على طول الأحشاء الملتوية لجبل دينارا، وذلك في مكان على هذه الدرجة من الصغر ويتمتع بهذه الصلة الوثيقة مع الطبيعة.

كان أنتي - وهو جد بيتر - قد انتقل إلى تيسكا في أربعينيات القرن الماضي بعد الانتهاء من دراسة الطب في سارايفو. وقد قام بالتعاون مع جيرانه ببناء بعضهم منازل بعض باستخدام الخرسانة والبغال. وعندما زرتُ المكان كطفلة صغيرة بعد ذلك بعقود من الزمن، بدت القرية كما لو أن أنتي كان لا يزال على

Twitter: @ketab_n

قيد الحياة وبصحة جيدة. فقد كان عنواننا ببساطة يحمل اسم «بيت الطبيب، تيسكا، 21318»، وهذا هو الرمز البريدي للبلدة التالية. حتى إن خلط الإسمنت بشكل جماعي كان لا يزال من الممارسات المتعارف عليها في البلدة. وكانت أولى ذكرياتي في هذا المكان تعود إلى اللحظة التي قام فيها والدي وبيتر بنقل الدلاء المليئة بالخرسانة جنبا إلى جنب مع بقية رجال القرية لتحويل الممر الذي يسلكه الناس إلى مجموعات من الدرجات الغليظة والمصمَّمة باليد. وكانت الفكرة تتمثل في أن الدَّرج سيكون أسهل للتنقل بالنسبة لكبار السن مقارنة بالطرق الترابية، التي كانت زلقة في بعض المناطق المستوية ومليئة بالجذور في مناطق أخرى. ولكن كان من الأسهل بالنسبة لي الجري على طول تلك الممرات، حيث شعرتُ في ذلك الوقت بالاستياء من الدرج لأنه أبطأ حركتي.

وصلتُ أنا ولوقا إلى الدَّرج، الذي كان ينحدر بوتيرة متعرِّجة نحو مستوى سطح البحر، ويميل مع ميلان الجبال مثل مجموعة من الأمعاء، ثم يتابع مسيرته الملتوية إلى ما بعد المتجر، الذي كان الوحيد في القرية، وصولا إلى النصب الحجري لعمال الثورة المجيدة. بعد ذلك يلتف حول الكنيسة الصغيرة ثم يتجه نحو مبنى المدرسة، الذي كان مُحاطا بالنباتات المتسلقة البرية. كانت المدرسة تعاني الإهمال حتى عندما كنتُ صغيرة، باستثناء الأماكن التي قام فيها الرجال كبار السن بإزالة الأدغال لتنظيف الأرض الرملية المرصوصة للاعب كرة البوتشي. بعد ذلك يستمر الدَّرج في مسيرته متجها نحو الماء، متجاوزا الحقول المليئة بأشجار التين ونباتات الصبار الأميركي. كانت ثمار التين طرية

Twitter: @ketab_n

وحلوة الطعم، أما ثمار الصبار فكانت سميكة ومليئة بالأشواك، وقد كان وجودها بجوار بعضها دليلا على أن تربتها متقلبة.

- «لا يزال منتصبا»، صاح لوقا من أسفل الطريق.

أسرعتُ ووقفتُ بجانبه على الدرجة المائلة. من خلال فرجة بين أشجار التين تمكنتُ من رؤية منزل بيتر ومارينا، حيث كانت الأعشاب تغطيه وتحيط به من كل جانب. كانت الواجهة مليئة بآثار شظايا القذائف، وكان جزءٌ من السقف متهدما. لا يمكن لأحد أن يعيش في مكان كهذا.

تجاوزتُ الدرجات القليلة المتبقية بقفزة واحدة حتى بلغتُ الشرفة، وشققتُ طريقي بين أوراق الأشجار الميتة حتى وصلتُ إلى الباب الأمامي، وبمنتهى الغباء بدأتُ أقرع الباب.

- «مرحبا؟».

- «هذه آنا».

- «انتظر قليلا»، قلتُ، ورحتُ أخبط الباب بقوة أكبر.

- «آنا، تمهلي. لا تفعلي ذلك».

- «مهلا! اخرجوا من هذا المكان!» قال أحدهم بلكنة إنجليزية ثقيلة.

- «عذرا»، رددتُ باللغة الكرواتية.

- «أنتم كروات؟» ردَّتْ عليَّ امرأة.

- «أجل، نحن كروات»، قلتُ، ثم مشيت في اتجاه الصوت. «أنا أبحث عن آل توميتش؟» أضفتُ.

ظهرت المرأة على شرفة منزل كان يقع في أعلى الجبل على مسافة أبعد مما كنت أتوقع وذلك نظرا لوضوح صوتها، وهذه من العجائب الصوتية التي تتمتع بها تلك الجروف والتي كنتُ

Twitter: @ketab_n

قد نسيتُها. كانت سيدة هرمة مليئة بالتجاعيد وتلف نفسها بثوب أسود طويل الأكمام جعلني أتعرق بمجرد النظر إليه، وكانت تضع على رأسها وشاحا مزركشا بالزهور الحمراء وتربطه تحت ذقنها.

- «آسفة»، قالت عندما اقترينا. «ظننتُ أنكم سياح. الأطفال يحبون اقتحام الأماكن المهجورة».

- «المهجورة؟» قلتُ.

- «لقد غادروا منذ سنوات».

- «وماذا حلَّ بأصحاب المنزل؟».

- «بيتر قُتل في الحرب. هذا ما قالته مارينا. هل كنتِ تعرفينهم؟».

عندما قالت ذلك، بدا لي الأمر صحيحا، كما لو أنني كنتُ أعلم ذلك دائما، ولكن هذا لم يحل دون شعوري بهول تلك الفاجعة، التي نزلتْ على معدتي قاسية كالحجر. ولكنها قالت إنها تحدثتْ إلى مارينا.

- «هل مارينا هنا؟» سألتُ.

- «لم تعد هنا. جاءت إلى هنا لفترة من الوقت بعد وفاة بيتر. كانت تحاول الخروج من البلد. قالت إنها تريد الذهاب إلى النمسا لتعيش مع شقيقتها».

- «هل تعرفين ما إذا كانت قد ذهبتْ إلى هناك بالفعل؟ وفي أي مكان في النمسا؟ وكيف يمكنني الاتصال بها؟».

هزت المرأة رأسها بالنفي.

- «عذرا يا صغيرتي. لكنكِ تبدين مألوفة بالنسبة لي. هلا قلتِ لي من أين أنتِ؟».

Twitter: @ketab_n

- «كنا نأتي لقضاء العطلات مع بيتر ومارينا عندما كنتُ صغيرة. أنا آنا يوريتش».

- «يوريتش. نعم» قالت، معدِّلة وشاح رأسها.

- «إذن أنتِ هي».

نظرتُ إلى المرأة، مُحاولة أن أتبين ما الذي كانت تقصده.

- «هي ماذا؟» قلتُ أخيرا.

- «التي عاشت».

- «عشتُ».

- «أنتِ تشبهين والدك».

- «هل تعرفينه؟».

- «كنت أعرفهم جميعا».

- «جدتي»، صاح صوت صغير من داخل المنزل.

- «أنا ذاهبة إلى الكنيسة الآن. تعالي لاحقا، لنتحدث».

- «سأفعل»، قلتُ، لكنها دخلتْ إلى منزلها بسرعة، في حين بقيتُ أنا على الشرفة أحدق في الفضاء من المكان الذي كانت تقف فيه.

حطَّم لوقا النافذة الخلفية، فدخلتُ منها إلى ذلك المكان المظلم والمليء بأعشاش العنكبوت. كان الهواء في الداخل ثقيلا ومحملا بالأوساخ التي تراكمت عبر السنين. وكانت الجدران عارية، أما لوازم المطبخ فلم تكن موجودة، وحاولتُ تقدير العجلة التي كانت فيها مارينا عندما غادرتْ. كانت الأريكة الكستنائية القبيحة لا تزال محشورة بالجدار، كما كانت الطاولة لا تزال موضوعة إلى جانب فرن الغاز في نفس المكان الذي كانت تطلق عليه مارينا اسم المطبخ، علما أنه عمليا كان يشكل جزءا من

Twitter: @ketab_n

الغرفة نفسها. وعلى الرغم من انعدام مظاهر الحياة في المكان وخروج رائحة نتنة منه، فإنه بدا كما كان.

- «اذهبي وافتحي الباب الأمامي»، صاح لوقا. «حجمي كبير لا أستطيع الدخول من هنا»، أضاف.

تقدَّمتُ بترنُّح نحو الباب، ولكن وجودي في المنزل كان بمثابة عامل معجِّل في انهيار ما صمد أمام عوامل الزمن. فقد سقطت مجموعة من الستائر من مكانها على النافذة الجانبية، وتسلَّلَ شعاعٌ كثيف من النور إلى المطبخ المظلم.

رأيتُ والديّ، كانت بشرتهما متعرقة ومسمرة بسبب حرارة الصيف. كانت والدتي تقف عند حوض الجلي في المطبخ، تفرك الغسيل وتدندن أنشودة قديمة للأطفال، بينما يقترب منها والدي وينضم إليها محاكيا أنغام الأغنية بالصفير. تسللتْ يداه بين طيات فستانها، متلمسا وركيها. وتدفقت المياه في الحوض عندما جعلها تستدير نحوه وقبَّل جبينها. من هذه الزاوية، رأيتُ فستانها وقد التصق بقوة حول خصرها، وأدركتُ أنه كان قد مضى بضعة أشهر على حملها براهيلا في آخر مرة ذهبنا فيها إلى تيسكا.

سمعتُ لوقا يعبث بالباب الأمامي، وسرعان ما تمكن من فتحه بنفسه. ضوءٌ ساطع ملأ المنزل. أغمضتُ عينيّ وفتحتُهما بسرعة ما أدى إلى اختفاء والديّ.

- «ماذا تفعلين؟» قال.

- «لا شيء».

فتحتُ ما تبقى من ستائر ومصاريع ونوافذ، ثم اختفيتُ في غرفة النوم الخلفية، حيث كنتُ أسمعه يقوم بنفس الشيء.

Twitter: @ketab_n

كان المنزل مصممًا على شكل صندوق خرساني ليكون ملاذا من الشمس عندما تكون في الجنوب. لكن الآن بعد رفع كل الستائر وانهيار السطح، كان المنزل في أبهى صورة رأيتُه فيها. وقد أدى دخول النسيم العليل إلى طرد الهواء الفاسد خارج النوافذ.

خرج لوقا من الحمام ومعه مجموعة من المكانس. كان بيتر ومارينا دائما يستخدمان حوض الاستحمام لتخزين أدوات التنظيف ولوازمه. لم يكن في المنزل مياه ساخنة، ولذلك لم يكن هناك فرقٌ حقيقي بين الاستحمام في الهواء الطلق والاستحمام داخل الحمام.

- «هيا بنا إذن»، قال لوقا، ثم نهرني بطرف عصا المكنسة.

- «كيف عرفت أنها موجودة هناك في الداخل؟».

- «ألا تذكرين ذلك الصيف عندما كان والدك وبيتر يقومان بتجديد أرضية الشرفة فتسببا بإدخال غبار الإسمنت إلى داخل المنزل ما جعل والدتك ومارينا تكادان تصابان بالجنون؟».

- «الآن بدأتُ أتذكر».

- «لقد قمنا، أنت وأنا، بالكنس لقرابة ثلاثة أيام متواصلة. عمليا أنا أعاني صدمة من جراء تلك التجربة».

- «أنا متأكدة من أن مثل هذا العذر سينطلي على والدتك».

في الداخل بدأ لوقا بكنس الأرض وتلميعها، كما قام بتنظيف مناضد المطبخ، أما أنا فأمضيتُ فترة ما بعد الظهر في إزالة النباتات المتسلقة التي كانت تغطي النوافذ. وعلى الفور بدأتُ أشعر بالألم بين كتفيّ، وأدركت كم كنتُ أفتقر للياقة البدنية بسبب قلة الحركة، وكم كنتُ مرتاحة عندما كنتُ أجلس في مقعد مترو الأنفاق أو إلى مكتبي في المدرسة. ولكن راقت

Twitter: @ketab_n

لـي المشـقة التـي كنتُ أشـعر بهـا الآن، إنهـا عذاب مُثمـر، حيث انتقلتُ من واجهة المنزل إلى الفناء نفسـه، ورحتُ أزيل الأعشاب الضارة وأنظفُ مكانها مُقسِّمة المكان إلى مربعات منتظمة. كانت جذور الأعشـاب متشـبِّثة بعنـاد داخل الكتل الترابية السـميكة. رميتُ الأعشـاب والنباتات المتسلقة ضمن كومة كانت في السابق مخصصـة لتجميـع السـماد العضـوي، ثم وضعـتُ نصب عيني التخلـص من طبقات التراب والغبار والرمـال التي كانت تغطي الشـرفة، حيـث قمـتُ بتجميعها ضمـن أكوام ثـم جرفتُها بعيدا باستخدام لقّاطة معدنية وفرشاة أتذكر أن بيتر قام بتصميمهما يدويا في الفناء الأمامي.

تحت بقعة قذرة بالقرب من الباب الأمامي اكتشفتُ بصمات الأيدي. فخلال الصيف قام والدي وبيتر بصب خرسـانة جديدة للفنـاء، فأقـدم كل واحـد منـا على تـرك بصمة يده فـي البقعة المجاورة للباب. كانت تلك فكرتي.

- «إذا أسـأتِ التصـرف، فإنـي سـأقوم بإخفـاء بصمـة يدك، وحينذاك سـتتم إزالتك مـن العائلة!» هكـذا كان بيتر يمازحني كلما كان يريد أن يكلِّفني مهمة ما.

وهـا أنـا الآن أقف أمـام ذلـك الزُّخرف، ضغطـتُ بيدي على خطوط يده، وتأملتُ في مدى سهولة إزالة عائلة ما من الوجود. تتبعتُ أشكال أيدي والديّ، ثم شكل يدي، كانت رؤوس أصابعي وأنا في التاسعة من عمري بالكاد تصل إلى المفاصل الأولى لأصابعي الحاليـة. في إحدى زوايا الكتلة الخرسـانية، كانت هناك لطخة على شـكل إصبع قدم غامضة محفورة في الإسـمنت. فقد شـعر لوقـا حينـذاك بالغيرة، لكن الحرج منعه مـن إضافة بصمة يده

Twitter: @ketab_n

إلى بقعة رأى أنها تخصُّ العائلة، فقام بدمغ إصبع قدمه الكبير في ذلك المكان من الخرسانة. بعد ذلك، أحسَّ بقدر أكبر من الخجل، فلم يقم بتنظيف الإسمنت بالسرعة الكافية، ولذلك احتاج إلى عدة أيام لكي يزيله عن جلده.

- «مهلا، لوقا! تعال انظر إلى هذا!».

ظهر لوقا من دون قميص وتفوح منه رائحة العرق.

- «ما هو؟».

- «صمدتْ إصبع قدمك أمام اختبار الزمن!».

- «وهل تلك البصمات تعود لوالديكِ؟».

- «ولبيتر ومارينا، أجل».

- «ولكِ»، قال.

- «نعم، ولي أيضا».

- «أنا سعيد بامتلاكك هذا الشيء»، قال، ثم دخل مرة أخرى إلى المنزل.

للحظة تساءلتُ ما إذا كان سيحاول اقتطاع الخرسانة التي توجد عليها البصمات وإخراجها من الأرض، لكنه بدلا من ذلك عاد ومعه حقيبتي، ثم بحث بداخلها وأخرج الكاميرا منها.

- «ها هي».

التقطتُ صورتين لتلك البصمات ووضعتُهما في الداخل على الطاولة لكي تتظهّرا.

- «أحضر حافظة نقودي من الحقيبة أيضا»، قلتُ. «دعنا نذهب إلى المتجر»، أضفتُ.

صعدنا الدرج إلى الرصيف العلوي واتجهنا نحو متجر القرية.

Twitter: @ketab_n

- «هل تعتقدين أنك ستذهبين للبحث عن مارينا؟» قال لوقا.

تذكَّرتُ اليوم الذي هربتُ فيه وتساءلتُ ما إذا كان بيتر قد قُتل في ذلك اليوم أم أنه عاد إلى الجبهة وقام بإنقاذ أشخاص آخرين قبل أن يُقتل. إذا كان قد تم الإيقاع به في تلك الغابة، فإن مارينا ربما تعتقد أنني أنا قد متُّ أيضا.

- «أريد ذلك. لكن التجول في النمسا أصعب بالنسبة لي من التجول هنا».

- «يمكنني أن أذهب معكِ إذا كنتِ تريدين».

- «ربما سأحاول في البداية أن أجد طريقة لأبعث لها رسالة».

- «إذا كانت على قيد الحياة، ينبغي عليكِ زيارتها».

- «دعني أقم بذلك»، قلتُ.

- «سأفعل. ولكن لن أتركِك تنتظرين عشر سنوات أخرى هذه المرة».

جلجلتْ أجراس الباب عندما اتجهنا نحو الداخل، فرفع رجلٌ عجوز رأسه من صحيفة «المتشيا نيوز» التي كان يقرؤها ونظر إلينا بلا اكتراث. كانت السلع الرئيسية في المتجر - وهي الخبز والجبنة البيضاء الدسمة والطوابع والسجائر - مرتبة على طاولة خاصة بلعب الورق. في المكان المجاور الأكثر برودة كان يوجد سمك الإسقمري وبلح البحر الذي أحضره الصيادون. أخذنا اثنتين من سمك الإسقمري من داخل الصندوق. طلب لوقا زيت زيتون، فقام الرجل بلف الأسماك بورق جريدة، ثم أحضر له زجاجة صغيرة. وأضاف مشط أعواد ثقاب إلى مجموعة الأغراض.

- «هل ما يزال الهاتف المزوَّد بحصّالة يعمل؟» قلتُ.

Twitter: @ketab_n

عندما كنت صغيرة، كان هذا الهاتف المعلَّق في جانب المحل الوحيد في القرية، وحتى في ذلك الوقت كان صعب الاستخدام.

- «أحيانا»، قال. «هل تريدين بطاقة هاتف؟» أضاف.

- «نعم، لو سمحت»، قلت.

- «للاتصال بأميركا».

أخرجَ بطاقة بلاستيكية من تحت دُرج ماكينة التسجيل كُتبتْ على واجهتها عبارة (أميركا الشمالية) بحروف غامقة، وأضافها إلى مجموع الأغراض. أخرج لوقا من حافظة نقوده ورقة من فئة المئة كونا، ووضع الرجل طعامنا في كيس ورقي بني اللون.

- «تعالوا يوم الأربعاء، إذا أردتم»، قال أثناء مغادرتنا المكان. «ستأتينا بعض الشوكولاته»، أضاف.

- «سأذهب لأوقد النار»، قال لوقا وهو يناولني بطاقة الهاتف. «أراكِ عندما تعودين إلى المنزل»، أضاف.

لم يسبق لي أن أجريتُ اتصالا هاتفيا من تيسكا سوى مرة واحدة، كان ذلك عندما نسيتْ والدتي ثوب السباحة الخاص بها، حيث سمحتْ لي بالاتصال بالمنزل كي أطلب من والدي إحضاره. حينذاك وقفتْ خلفي، وقامت بطي السلك بالطريقة الصحيحة، ثم رفعتْه فوق رؤوسنا كالهوائي. حاولتُ محاكاتها في تلك الحركة، حيث ظللتُ أبدِّل انحناءات السلك إلى أن أصبحتْ هناك حرارة، بعد ذلك قمتُ على عجل بإدخال سلسلة الأرقام المدوَّنة على ظهر البطاقة متبوعة برقم هاتف منزلي في أميركا.

- «آنا؟».

- «أيمكنك سماعي؟».

Twitter: @ketab_n

- «بصعوبة! كيف حالكِ؟ لقد قلقتُ عليكِ كثيرا!».

- «أنا بخير. نحن على الساحل. لا يوجد إنترنت ولا أي شيء. آسفة لأني لم أواظب على التواصل معكِ».

- «وصلتْني رسالتكِ التي بعثتِها عبر البريد الإلكتروني. لكن كان يجب أن تتصلي».

- «أعلم ذلك. أنا آسفة. هل راهيـ- راشيل في المنزل؟».

- «لديها جلسة تدريب بكرة القدم».

- «هل يمكنني أن أعاود الاتصال وأترك لها رسالة صوتية؟».

- «سيكون ذلك رائعا».

- «حسنا، سأفعل ذلك الآن».

- «لكن هل أنتِ بخير؟» قالت لورا.

- «نعم، أنا بخير».

- «حسنا، أنا مسرورة. شكرا لاتصالك. ولا ..».

بدأ الخط يخشخش، ثم انقطع. أعدتُ تعديل السلك وعاودتُ الاتصال. بدأ الهاتف يرن إلى أن ظهرتْ نغمة كنتُ آمل أنها نغمة البريد الصوتي، على الرغم من أن التشويش كان طاغيا على الكلمات.

- «مرحبا راشيل. أنا في كرواتيا على الشاطئ والأجواء جميلة جدا. كنتُ ألتقط بعض الصور لأجلك. ربما يمكنك أن تأتي معي في الصيف المقبل، في حال وافقتْ أمك على ذلك. ستعجبك الحياة هنا ..».

أصدر الخط صوت أزيز عاليا وغير مألوف.

- «أحبكِ!» قلتُ بصوت عال كي أغطي على صوت الطنين، ثم أقفلتُ الخط. بعد ذلك عدتُ إلى المتجر واشتريتُ بطاقة بريدية

Twitter: @ketab_n

وطابعا خاصا بالبريد الجوي لكي أتمكن من الكتابة إلى برايان في تلك الليلة.

في طريقي إلى المنزل طرقتُ باب السيدة العجوز وانتظرتُ وقتا طويلا كي يجيبني أحدُهم. كانت المصابيح مُطفأة ولم يكن هناك أطفالٌ يلعبون في الفناء الخلفي.

- «في الغد إذن»، قلت للمنزل الفارغ.

استحممتُ تحت أنبوب يقع عند حافة الجرف، وهو مكانٌ يتمتع بالانكشاف الكلي والعزلة التامة على حدّ سواء. كنت أستطيع رؤية القرية بأكملها، حيث كان الناس منهمكين بأنشطة الغسق. فقد كان كبار السن من الرجال الموجودين على الرصيف البحري يقومون برفع أقفاص الصيد السلكية. قام صاحب المتجر بإطفاء الأنوار، في حين قام أحدهم بتشغيل الضوء في برج الكنيسة. أما أملاح البحر فقد جفّتْ مخلفة خطوطا مرئية على جسدي شبيهة بالخطوط التي يخلفها المد، فقمتُ بفركها وإزالتها. كانت الريح تصفر في تجاويف أذنيّ، وتلسع بشرتي المبللة، وتجعل الماء البارد النازل من الحنفية يبدو دافئا.

قام لوقا بإذكاء النار في الموقد القرميدي الموجود أمام المنزل، في حين قمتُ أنا بالتحرك في المطبخ بحثا عن أي أوان للطبخ يمكن أن تكون مارينا قد خلّفتها وراءها. لكنها لم تنسَ أي شيء ذي فائدة، وقد شعرتُ بالارتياح لأنه بدا لي أنه كان لديها الوقت الكافي لتوضيب كل شيء. قمتُ بتنظيف منضدة المطبخ، ثم أزلتُ عنها الصور، التي كانت تشمل صورا لبصمات الأيدي في الخرسانة وللوقا ولبحيرات بليتفيتش، ورتبتُها على حافة ناتئة

Twitter: @ketab_n

على طول الجدار. سآخذها معي كي أريها لراهيلا، لكن الآن يبدو أن مكانها مناسبٌ جدا هنا.

طبخنا السمك بالزيت وأغصان الصنوبر، ثم وضعناه على طاولة المطبخ وقطّعناه بأيدينا. كان مالح الطعم ويشعر من يمضغه بشيء يشبه الرمل في فمه، كما أنه كان يفتقر إلى التنظيف الجيد من الحراشف، ولكن الزيت ودخان أغصان الصنوبر أضفيا عليه نكهة كافية. بعد ذلك ختمنا طعامنا بتناول الحلوى المتمثلة في زبدة الفول السوداني، حيث أفرغنا المرطبان منها تماما ونظّفنا جوانبه بشكل جيد. كانت الأسراب الأخيرة من طيور النورس وزمّج الماء ينادي بعضها بعضا، لتسكن إلى أعشاشها خلال الليل.

- «هل تعلم أنه يمكنك أن تأتي إلى أميركا؟» قلتُ.

- «لا أعتقد أن لغتي الإنجليزية جيدة بما فيه الكفاية»، قال بسرعة ملفتة ما جعلني أدرك أنه كان يفكر بالأمر.

- «لغتك الإنجليزية جيدة. ولكن تعالَ للزيارة على الأقل. تعال لكي تراني في نيويورك».

- «أستطيع أن أفعل ذلك».

في هذا الوقت كان الظلام قد أرخى سدوله على تيسكا، فتساءلتُ كم تأخّر الوقت. لم أنظر إلى أي ساعة طوال ذلك اليوم. من الأسباب النادرة للفرح التي توفرها القرية أننا لم نكن محكومين بالوقت، حيث كنا نتناول الطعام عندما نجوع ونخلد إلى النوم عندما نتعب. وبالفعل كنتُ متعبة في هذا الوقت، حيث كانت معدتي ممتلئة، وعضلاتي تؤلمني، في حين كان ذهني ينضح بالدفء والضبابية.

Twitter: @ketab_n

استمعتُ إلى لوقا وهو يتساءل بصوت عال عن الآلية التي تتبعها الطيور المهاجرة لتجد طريق عودتها في كل موسم، وذلك في الوقت الذي فرشنا فيه البطانيات واستلقينا على الأرض، حيث شعرتُ ببرودة البلاط وقساوته على ظهري المتخشّب. ومن خلال الشرخ الكائن في السقف كان يمكننا أن نرى السماء، حيث مددنا أذرعنا إلى الأعلى لاقتفاء آثار مجموعات النجوم. كان لهذا الأمر مفعولٌ مهدِّئ بالنسبة لي، تماما مثلما كان عندما كنا صغارا حيث كنا نتضور جوعا ونهاب الموت. في جميع أنحاء الغرفة كان القمر يملأ الآثار التي خلّفتْها القذائف في الجدران بضوء أزرق شاحب، فكانت الجدران تبدو مكتملة من جديد، مثلما تبدو داخل أي منزل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المترجم في سطور

مالك أحمد عساف

- من مواليد الجديدة - لبنان العام 1970.
- سوري الجنسية.
- مترجم في الإدارة السياسية للجيش السوري (1993 - 1995).
- مترجم في صحيفتي «الوسط» و«أوان» الكويتيتين (2007 - 2010).
- عمل في مجال تعليم اللغة الإنجليزية بدءا من العام 1996 حتى الآن لمصلحة وزارة التربية في الكويت.
- ترجم عشرات المقالات لمصلحة مجلة «الثقافة العالمية» التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- يمارس حاليا أعمال الترجمة بشكل مستقل لمصلحة عدد من المؤسسات.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المراجع في سطور

د. محمد عبدالغني غنوم

- مواليد سورية 1958.
- من أصل فلسطيني.
- حصل على الإجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة دمشق سنة 1980.
- حصل على الماجستير في الأدب الإنجليزي سنة 1985 من جامعة نيويورك.
- حصل على ماجستير فلسفة في الأدب الإنجليزي والنقد سنة 1989 من جامعة كولومبيا/ نيويورك.
- حصل على الدكتوراه في النقد الأدبي الإنجليزي المعاصر سنة 1991 من جامعة كولومبيا.
- قام بترجمة ومراجعة كتب عديدة وبحوث وقصص قصيرة.
- من الكتب: كتاب في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار للناقدة الهندية آنيا لومبا، ومسرحيتان من الأدب الإيرلندي هما صناعة تاريخ وترجمات للكاتب المسرحي الإيرلندي بريان فريل نشرتا في سلسلة إبداعات عالمية عدد 553.
- قام بتدريس الأدب الإنجليزي في جامعة ماكيوان في كندا ما بين 1993 - 1996.
- أستاذ مشارك في كلية اللغات والترجمة في جامعة الإمام في الرياض منذ العام 1996.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيفو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر

Twitter: @ketab_n

ما صدر من هذه السلسلة

348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيفو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساورويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة، فروغ فرخزاد وأشعارها، سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

Twitter: @ketab_n

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند أديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس

Twitter: @ketab_n

ما صدر من هذه السلسلة

398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرُقّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إنّيَ أتَعافَى (رواية)	تأليف: دافيد فوينْكِينُوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإياب (ديوان شعر)	تأليف: هاينْريش هاينْه
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كَريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون
413	اليوم السابع (رواية صينية طويلة)	تأليف: يـو هـوا
414	الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل (رواية)	تأليف: جِلْبير سِينُويه
415	رَاوِي مَرَّاكِش (رواية)	تأليف: جويديب روي ـ باتاجاريا

Twitter: @ketab_n

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة		مجلة الفنون		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	20	-	12	-	12	-	25	-	20	-	20	-
الأفراد داخل الكويت	10	-	6	-	6	-	15	-	10	-	10	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	24	-	16	-	16	-	30	-	24	-	24	-
الأفراد في دول الخليج العربي	12	-	8	-	8	-	17	-	12	-	12	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	50	-	30	-	20	-	50	-	50	-	50
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	25	-	15	-	10	-	25	-	25	-	25
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	100	-	50	-	40	-	100	-	100	-	100
الأفراد خارج الوطن العربي	-	50	-	25	-	20	-	50	-	50	-	50

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقداً/ شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كشف بأسماء وأرقام وكلاء التوزيع - أولاً: التوزيع المحلي - دولة الكويت

م	الدولة	وكيل التوزيع	رقم الهاتف	رقم الفاكس	الإيميل
1	الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	00965 /2/1/24826820	00965 /24826823	im_grp50@yahoo.com
ثانياً: التوزيع الخارجي					
2	السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	00966 /14419933 – 14418972	00966 /12121766 – 1212774	bander.shareef@saudidistribution.com babiker.khalil@saudidistribution.com
3	البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	00973 /17617733 – 36616168	00973 /17617744	cir@alayam.com rudainaa.ahmed@alayam.com
4	الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	00971 /3/2/43916501	00971 /43918354 – 43918019	eppdc@emirates.net.ae info@eppdco.com essam.ali@eppdco.com
5	سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	00968 /24492936 – 24496748 – 24491399	00968 /24493200	alattadist@yahoo.com
6	قطر	شركة دار الثقافة	00974 /44621942 – 44622182	00974 /44621800	thaqafadist@qatar.net.qa
7	مصر	مؤسسة أخبار اليوم	00202 /5/4/3/2/1/25782700 00202 /25806400	00202 /25782540	ahmed_isaac2008@hotmail.com
8	لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	00961 /5/1666314	00961 /1653259 00961 /1653260	topspeed1@hotmail.com
9	تونس	الشركة التونسية	00216 /71322499	00216 /71323004	sotupress@sotup.com.nt
10	المغرب	الشركة العربية الأفريقية	00212 /522249200	00212 /522249214	s.wardi@sapress.ma
11	الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	00962 /6535885 – 797204095	00962 /65337733	alshafiei.ankousha@aramex.com basem.abuhameds@aramex.com
12	فلسطين	شركة رام الله للتوزيع والنشر	00970 /22980800	00970 /22964133	wael.kassess@rdp.ps
13	اليمن	القائد للنشر والتوزيع	00967 /1240883	00967 /1240883	alkaidpd@yahoo.com
14	السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	002491 /83242702	002491 /83242703	daralryan_cup22@hotmail.com daralryan_12@hotmail.com

سارة نوفيتش

ولدت في العام 1987
وعاشت بين الولايات المتحدة
وكرواتيا.
تخرجت في برنامج
«ماجستير الفنون الجميلة»
في جامعة كولومبيا، حيث
درست الرواية والترجمة.
تعمل حاليا محررة
لقسم الرواية في مجلة
«بلندرباس». كما تقوم
بتعليم أصول الكتابة في
معهد فاشن للتكنولوجيا
وفي جامعة كولومبيا.
تعيش حاليا في حي كوينز
بمدينة نيويورك.

Twitter: @ketab_n

فَتَاةٌ في حَالَةِ حَرْب

يشـتمل هذا العدد على رواية أجمع النقاد على أنها من بين أفضل الكتب التـي صدرت في العام 2015. إنها رواية «فتاة في حالة حرب»، باكورة أعمال الكاتبة الأميركية من أصل كرواتي، سارة نوفيتش.

تبـدأ أحداث هذه الروايـة في زغرب، العام 1991، حيث نشـاهد آنا يوريتـش الفتـاة البريئة البالغة من العمر عشـر سـنوات وهي تعيش حياة خالية من الهموم مع أسـرتها في شـقة صغيـرة في العاصمة الكرواتيـة. لكن مع اندلاع شـرارة الحرب الأهلية وانتشـارها في كافة أرجاء ما كان يُعرف سـابقا بيوغوسـلافيا، يتوقف اللعب والمرح وتغلق المدارس أبوابها، ليتم اسـتبدال ذلك بنظـام الحصص الغذائية والتدرُّب علـى كيفية التصرف أثنـاء الغارات الجوية، ما يؤدي إلى تشـظي حياة الطفولة الهانئة التي كانت تعيشـها آنا. وعند وصول الحرب إلى عتبة باب منزلها، حيث يُقتل والداها ويتم تسـفير شـقيقتها الصغرى عبر إحدى المنظمات غير الحكومية إلى الولايات المتحدة بغرض العلاج، تجد آنا نفسـها مضطرة للعيش في عالم بالغ الخطـورة، حيث لا تتردد في حمل البندقية والقتال ضد الصرب.

تتناوب مشـاهد الرواية بين حيـاة آنا الطفلة قبل الحـرب وأثناءها، وحياتهـا كطالبـة جامعيـة تعيش فـي مانهاتن بنيويـورك في العام 2001، حيث تلحق بشـقيقتها التي تتعافى من مرضها. وعلى الرغم من أنها تبذل كل ما بوسـعها لتنسى الماضي وتتطلع نحو المستقبل، فإنها تجد نفسـها غيـر قادرة على الهـروب من ذكريـات الحرب. ولكـي تتخلص مـن كوابيس الجثث التي لا تنفك تراودها كل ليلة وتمنعها من النوم، تقرر العودة إلى كرواتيا بعد عقد من الزمن، حيث كانت الحرب قد وضعـتْ أوزارها، علها بذلك تتصالح مع الماضـي والتاريخ والمكان الذي كانت تسميه يوماً وطنها.

باختصار، تقدم لنا سـارة نوفيتش من خلال «فتاة في حالة حرب» نظرة شاملة على الأثر الذي يمكن أن تخلفه الحرب على حياة الفرد.

إنهـا رواية مؤثرة واسـتثنائية فـي تناولها المتـوازن للحزن والمنفى، والذاكرة والهوية، والقوة المنقذة للحب.

ISBN: 978-99906-0-533-4

إبداعات عالمية